الإنسانُ بينَ الدَّيْنُونةِ للهِ والدَّيْنونةِ لغيرهِ

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإنَّ التوحيد هو أساس دعوة الرسل جميعا قال تعالى:{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [المائدة:٧٢]

وقال تعالى:{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف:٥٩]

وقال تعالى:{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [الأعراف:٦٥]

وقال تعالى:{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف:٧٣]

وقال تعالى:{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [النحل:٣٦]

فهذا أمره وهذه إرادته لعباده.واللّه – تعالى – لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه،أو دفعهم قسرا إلى مخالفته.وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال،وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين،بعد ما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار ..ثم شاءت رحمة اللّه بعباده بعد هذا كله

ألا يدعهم لهذا العقل وحده،فوضع لهذا العقل ميزانا ثابتا في شرائعه التي جاءت بها رسله،يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر،ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصف به الأهواء.ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان،ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ،يأمرون بعبادة اللّه وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان.[1]

وفي كل ذرة من ذرات هذا الكون دلالة قاطعة على وحدانية الله سبحانه وتعالى،قال تعالى:{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) } [النمل:٥٩ – ٦٣]

وبين تعالى أنه لا يمكن أن يغفر الشرك به أبدا، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء،قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [النساء:٤٨]

وقال تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء:١١٦]

إن الشرك انقطاع ما بين اللّه والعباد.فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة.إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون.مقطوعو الصلة باللّه رب العالمين.وما تشرك النفس باللّه،وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا – وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل – ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية.إنما تفعله وقد

[1] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٨٢١]

فسدت فسادا لا رجعة فيه! وتلفت فطرتها الــتي برأهــا اللّـــه عليها،وارتـــدت أســـفل سافلين،وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم!

أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر،والظلم العظيم الوقح الجاهر ..أمــا مــا وراء ذلك من الذنوب – والكبائر – فإن اللّه يغفره – لمن يشاء – فهو داخل في حدود المغفرة ما دام العبد يشعر باللّه ويرجو مغفرته ويستيقن أنه قادر على أن يغفر لـــه وأن عفـــوه لا يقصر عن ذنبه ..وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفد ولا تحد والمغفرة التي لا يوصد لها باب ولا يقف عليها بوّاب! [٢]

والدينونة لله تعالى تجعل صاحبها يشعر بالسعادة والأمن والطمأنينة،والاستقرار .

فهو يعرف سبب وجوده،ويعرف هدفه في الحياة،فيسعى جاهدا لمرضاة ربه في كل عمـــل وكل حركة يقوم بها في هذه الدار .

وأما الذي يخضع ويدين لغير الله تعالى فهو يعيش في قلق واضطراب وتناقض،وهم وغـــم بشكل دائم،لأنه لا يدري لماذا خلق، وما هي مهمته الأساسية في هذه الحياة .

قال تعالى:{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر:٢٩]

يضرب اللّه المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضـــهم بعضـــا فيه،وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه،ولكل منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكســـة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد،وهو يعلم ما يطلبه منه،ويكلفه به،فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح ..«هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا؟» ..

إنهما لا يستويان.فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين.وتجمـــع الطاقة ووحدة الاتجاه،ووضوح الطريق.والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقـــل لا يستقر على حال ولا يرضي واحدا منهم فضلا على أن يرضي الجميع!

[٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٠١٥] وانظر كتابي أسباب تخلف الوعيد

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال.فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى،لأن بصره أبدا معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق.

ولأنه يعرف مصدرا واحدا للحياة والقوة والرزق،ومصدرا واحدا للنفع والضر،ومصدرا واحدا للمنح والمنع،فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد،يستمد منه وحده،ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته.ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره.ويخدم سيدا واحدا يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه ..وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد،فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء ..

ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي،بالحمد للّه الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار.وهم مع هذا ينحرفون،وأكثرهم لا يعلمون ..وهذا مثل من الأمثلة التي يضربها القرآن للناس لعلهم يتذكرون.وهو قرآن عربي،مستقيم،واضح،لا لبس فيه ولا عوج ولا انحراف.يخاطب الفطرة بمنطقها القريب المفهوم.[3]

وفي كتابنا هذا تفصيل لهذا الأمر الجلل .

أسأل الله تعالى أن ينفع به جامعه وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين،وأن يجعلنا من يدينون لله تعالى وحده في كل شؤون حياتهم المادية والمعنوية .

قال تعالى:{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الملك:٢٢]

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ٣ ذو القعدة ١٤٣١ هـ الموافق ل ١٠/١٠/٢٠١٠م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[3] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٣٨٢٨]

المعنى العام للدينونة

الدينونة:جاءت من دان أي خضع وانقاد .

والدِّينُ من هذا إنما هو طاعته والتعبد له و دانه ديناً أَي أَذله واستعبده .[4]

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) } [التوبة:٣٠، ٣١]

يَعْنِي وَمَا أُمِرَ هَؤُلاَءِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى - الَّذِينَ اتَّخَذُوا الأَْحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ أَرْبَابًا - إِلاَّ أَنْ يَعْبُدُوا مَعْبُودًا وَاحِدًا، وَأَنْ لاَ يُطِيعُوا إِلاَّ رَبًّا وَاحِدًا، دُونَ أَرْبَابٍ شَتَّى، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ كُل شَيْءٍ وَطَاعَةُ كُل خَلْقٍ، الْمُسْتَحِقُّ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ الدَّيْنُونَةَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ:وَلاَ تَنْبَغِي الأُْلُوهِيَّةُ إِلاَّ لِوَاحِدٍ، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ الْخَلْقَ بِعِبَادَتِهِ وَلَزِمَتْ جَمِيعَ الْعِبَادِ طَاعَتُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [5].

والمقصود بها هنا الخضوع والانقياد التام لله تعالى وحده لا شريك له في العقيدة والعبادة والشريعة ومنهج الحياة كله، وتلقي تشريعات الحياة منه وحده دون سواه من تشريعات أرضية هابطة ناقصة متغيرة متبدلة ...



[4] - لسان العرب [١٣ /١٦٤]

[5] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤ /٢١٣] والموسوعة الفقهية الكويتية [٢٨ /٣٢١]

التوحيدُ أساس دعوة الرسل جميعا

قال تعالى :{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (٢٥) سورة الأنبياء

التوحيد هو المقوّم الأول للتصور الإسلامي، بما أنه هو الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية، ولكنه كذلك هو إحدى خصائص هذا التصور، بما أن التصور الإسلامي يتفرد بهذه الصور الخالصة من التوحيد، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة في الأرض جميعاً.. وبهذا الاعتبار نتحدث هنا عن "التوحيد" ضمن "خصائص التصور الإسلامي" كما سنتحدث عنه في القسم الثاني من هذا البحث، ضمن "مقومات التصور الإسلامي"..

نتحدث عنه هنا ضمن الخصائص، لنبين نوع تفرد التصور الإسلامي بهذه الخاصية، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة في جنبات الأرض.

ونبادر فنقرر أن "التوحيد" كان هو "الخاصية" البارزة في كل دين جاء به من عند الله رسول. كما أنه كان "المقوّم الأول" في دين الله كله .. وأن "الإسلام" – على إطلاقه- كان هو الدين الذي جاء به كل رسول. بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده، واتباع منهج الله -وحده- في كل شؤون الحياة، والتلقي من الله –وحده- في هذا الشؤون كلها، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه، والعبادة لله وحده سواء في الشعائر التعبدية أو في نظام الحياة الواقعية .. ولكن التحريفات والانحرافات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات، لم تبق في الأرض كلها من تصور ديني صحيح، إلا التصور الذي جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم- وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليها يد التحريف، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التي طغت على حياة الناس .. ومن ثم أصبح "التوحيد" خاصية من خصائص هذا الدين.

هنالك اعتبار آخر يجعل من حقنا أن نقرر هذه الحقيقة .. حقيقة أن التوحيد خاصية لهذا التصور. وهو المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في العقيدة الإسلامية، والجوانب التي

تمتد إليها في هذا التصور، وفيما يقوم على هذا التصور من مشاعر وأخلاق وسلوك وتنظيم لجوانب الحياة الواقعية .. فقد امتدت هذه الحقيقة إلى تصور المسلم للكون كله، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة على حياته هو بحذافيرها. كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها:خافيها وظاهرها. صغيرها وكبيرها. حقيرها وجليلها. شعائرها وشرائعها. اعتقاديها وعمليها. فرديها وجماعيها. دنيويها وأخرويها .. بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة.. كما سبق أن بينا في خاصية "الشمول" .. وكما سنبين بالتفصيل في القسم الثاني من هذا البحث عند الكلام عن "حقيقة الألوهية".

يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية .. ألوهية يتفرد بها الله سبحانه. وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه.. وكما يتفرد الله – سبحانه- بالألوهية، كذلك "يتفرد" –تبعاً لهذا- بكل خصائص الألوهية .. وكما يشترك كل حي وكل شيء- بعد ذلك – في العبودية، كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية.. فهناك إذن وجودان متميزان. وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله. والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد..

هذه هي القاعدة الأولى في التصور الإسلامي .. ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى .. وقيام التصور الإسلامي على هذه القاعدة الأساسية هو الذي يجعلها إحدى خصائصه كما أسلفنا.

ولقد سبق القول بأن "التوحيد" كان هو قاعد كل ديانة جاء بها من عند الله رسول. والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة، ويؤكدها، ويكررها في قصة كل رسول، كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين:{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (٥٩) سورة الأعراف

ونكتفي بهذا القدر من مجالات التوحيد في التصور الإسلامي، حيث يتبين منها إفراد الله- سبحانه- بالألوهية، وتقرير عبودية كل من عدا الله وكل ما عداه لألوهيته. وقيام العلاقات بين الخلق والخالق على أساس العبودية وحدها. لا على أساس نسب ولا صهر.

ولا مشاركة ولا مشابهة، في ذات ولا في صفة ولا في اختصاص... وهذا القدر يكفي في بيان أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامي. وهي الحقيقة التي نريد تقريرها في هذا القسم الأول من البحث. أما تفصيل هذه الحقيقة فموضعه في القسم الثاني عند الكلام عن "حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية".

غير أن الحديث عن خاصية التوحيد لا يتم حتى نشير كذلك –بمثل هذا الاختصار– إلى مقتضيات هذا التوحيد المطلق الكامل الشامل الحاسم الدقيق، في الحياة الإنسانية ... وهذه المقتضيات تمثل كذلك كيف أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامي:

إن من مقتضيات توحيد الألوهية –في التصور الإسلامي– إفراد الله –سبحانه– بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر، كإفراده –سبحانه– بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم، وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء.

وكما أن المسلم يعتقد أن لا إله إلا الله، وأن لا معبود إلا الله، وأن لا خالق إلا الله، وأن لا رازق إلا الله، وأن لا نافع أو ضار إلا الله، وأن لا متصرف في شأنه –وفي شأن الكون كله– إلا الله... فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى ..

كذلك يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببني الإنسان من جنسه إلا الله .. فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات .. سواء..

فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية، والطلب والرجاء والخشية والتقوى، كالتلقي من الله وحده في التشريع والتوجيه، ومنهج الحياة ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات .. كلاهما من مقتضيات التوحيد – كما هو في التصور الإسلامي– وكلاهما يصور المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في ضمير المسلم وفي حياته على السواء..

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياها في الضمير وفي الحياة ربطاً وثيقاً، ويرتب على وحدانية الألوهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود، كل ما يكلفه المسلم، سواء ما يكلفه من شعور في الضمير، أو ما يكلفه من شعائر في العبادة، أو ما يكلفه من التزام في الشريعة.. وفي السياق الواحد يرد ذكر التوحيد، وآثار الفاعلية والسلطان، في الكون وفي الحياة الدنيا والآخرة، ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله، باعتباره مقتضى توحيد الألوهية والسلطان:

إن هذا التصور ينشئ في العقل والقلب آثاراً متفردة، لا ينشئها تصور آخر، كما أنه ينشئ في الحياة الإنسانية مثل هذه الآثار كذلك.

إنه ينشئ في القلب والعقل حالة من "الانضباط" لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها القيم، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك.

فالذي يتصور الألوهية على هذا النحو، ويدرك حدود العبودية كذلك، يتحدد اتجاهه، كما يتحدد سلوكه، ويعرف على وجه الضبط والدقة:من هو؟ وما غاية وجوده؟ وما حدود سلطاته؟ كما يدرك حقيقة كل شيء في هذا الكون، وحقيقة القوة الفاعلة فيه. ومن ثم يتصور الأشياء ويتعامل معها في حدود مضبوطة، لا تميع فيها ولا تأرجح. وانضباط التصور ينشئ انضباطاً في طبيعة العقل وموازينه، وانضباطاً في طبيعة القلب وقيمه. والتعامل مع سنن الله بعد ذلك والتلقي عنها يزيد هذا الانضباط ويحكمه ويقويه.

ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذي يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرازق القادر القاهر المدبر المتصرف، وبين غيره من أصحاب التصورات التي أشرنا إليها. سواء من يتعامل مع إلهين متضادين:إله للخير وإله للشر! ومن يتعامل مع إله موجود ولكنه حالٌّ في العدم! ومن يتعامل مع إله لا يعنيه من أمره ولا من أمر هذا الكون شيء! ومن يتعامل مع إله (المادة) الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يثبت على حال! إلى آخر الركام الذي لا يستقر العقل أو القلب منه على قرار.

وإن هذا التصور لينشئ في القلب والعقل "الاستقامة" ... فالإنسان الذي يـدرك مـن حقيقة ربه ومن صفاته ومن علاقته به ذلك القدر "المضبوط" لا شك يستقيم في التعامـل معه بقلبه وعقلهن ولا يضطرب ولا يطيش!

والمسلم يعرف من تصوره لربه، وعلاقته به، ما يحب ربه وما يكره منه، ويسـتيقنه أن لا سبيل له إلى رضاه إلا الإيمان به، ومعرفته بصفاته، والاستقامة على منهجه وطريقه. فهو لا يمت إليه —سبحانه– ببنوة ولا قرابة، ولا يتقرب إليه بتعويذة ولا شفاعة، ولا يعبـده إلا بامتثال أمره ونهيه. واتباع شرعه وحكمه.

ومن شأن هذه المعرفة أن تنشئ الاستقامة في قلبه وعقله. الاستقامة باسـتقامة التصـور. والاستقامة باستقامة السلوك.

ذلك إلى الوضوح والبساطة واليسر في التصور في السلوك.. يدرك هذا كله من يوازن بين التصور الإسلامي القائم على التوحيد —بمعناه هذا ومجاله– وبين التصور الكنسي للأقانيم الثلاثة للإله الواحد. والبنوة التي لا سبيل للنجاة إلا بالاتحاد بها. والخطيئة الموروثة الـتي لا يغفرها إلا الاتحاد بالابن الذي هو المسيح عليه السلام! ... إلى آخر هـذه المعميـات في هذه الدروب!

مثل هذا يقال عمن يتعامل مع "الطبيعة!" التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنهى ولا تـأمرن ولا تطالب عبادها بفضيلة ولا عمل ولا تنهاهم عن رذيلة ولا خلق! فأنى يستقيم هـؤلاء العباد على منهج أو طريق؟ وأنى يستقيم لهم عقل أو قلب، وهم لا يعلمون مـن حقيقـة إلههم ذاك شيئاً مستقيناً على الإطلاق، وهم كل يوم على موعد لكشف شيء عنه جديد، ولمعرفة صفة أو طبع لم يكونوا يعرفونه. ولا يعرفونه إلا بالمصادفة أو بالتجريب!

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضي في استعراض الحال مع سائر التصورات التي سبق لنـا عرضها في فصل، "تيه وركام" في أول هذا البحث، وفي الفصول المتفرقـة بعـد ذلـك. وكلها لا يمكن أن توحي لأصحابها بضبط ولا استقامة في تصور أو في سلوك. كما أنهـا جميعاً تتسم بالغموض والتعقيد والتخليط.

ومن ثم كان أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية، هو الاستقامة والبساطة والوضوح.. وهذه هي السمة التي تجتذب الأفراد الذين يدخلون في هذا الدين من الأوروبيين والأمريكيين المعاصرين، فيتحدثون عنها، بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين. وهي ذاتها السمة التي تجتذب البدائيين في أفريقيا وآسيا في القديم والحديث.. لأنها سمة الفطرة التي يشترك فيها الناس أجمعين متحضرين وبدائيين.

وإن هذا التصور ليكفل تجمع الشخصية والطاقة في كيان المسلم الفرد والجماعة، وينفي التمزق والانفصام والتبدد، التي تسببها العقائد والتصورات الأخرى..

فالكينونة الإنسانية — التي هي وحدة أصل خلقتها– تواجه ألوهية واحدة تتعامل معها في كل نشاط لها. تتعامل مع هذه الألوهية اعتقاداً وشعوراً. وتتعامل معها عبادة واتجاهاً. وتتعامل معها تشريعاً ونظاماً.. وتتعامل معها في الدنيا والآخرة أيضاً..

إنها لا تتوزع في الاعتقاد بآلهة مختلفة. أو بعناصر مختلفة في الألوهية الواحدة! أو بقوى مختلفة بعضها داخل في حوزة الإله وبعضها خارج عليه مضاد له! أو بعوامل مختلفة فيها ما يقهر الإله ذاته، وليس لها هي قانون يعرف فيتفاهم معه! أو بقوى "الطبيعة" التي ليس لها كيان محدد ولا ناموس مفهوم!

وهي لا تتوزع في التوجه بالاعتقاد والشعور والعبادة إلى جهة. والتلقي في نظام الحياة الواقعية من جهة أخرى. إنما هي تتلقى من مصدر واحد في هذا وذلك، وتتبع ناموساً واحداً يحكم الضمير والشعور، كما يحكم الحركة والعمل..وهو ناموس لا يحكم الكينونة الإنسانية وحدها، إنما يحكم الكون كله كذلك.. فالكينونة الإنسانية حينما تعامل مع هذا الكون تتعامل معه في ظل هذا الناموس الواحد، بلا توزع ولا تمزق كذلك في هذا المجال.

وهذا التجمع ينشئ طاقة هائلة، لا يقف في وجهها شيء. وهذا بعض أسرار الخوارق التي أنشأتها العقيدة الإسلامية في الحياة والتاريخ البشري. فمن هذا التصور انبثقت تلك الطاقة الموحدة. التي صنعت هذه الخوارق .. الطاقة المتجمعة في ذاتها، المتجمعة كذلك مع الطاقات الكونية المتصالحة معها، لأنها تتجمع وإياها في الناموس الواحد، المتجه إلى الألوهية الواحدة. كما بينا قبل في الحديث عن خاصية الشمول.

ثم نجئ إلى الأثر المتفرد الذي ينشئه التصور الإسلامي في ضمير المسـلم وفي حياتـه، وفي كيانه المجتمع المسلم وفي نشاطه بخاصية التوحيد التي يتضمنها ويقوم عليها ..

إنه .. تحرير الإنسان .. أو هو بتعبير آخر .. ميلاد الإنسان ..

إنه توحد الألوهية وتفردها بخصائص الألوهية، واشتراك ما عدا الله ومن عداه في العبودية وتجردهم من خصائص الألوهية .. إن هذا معناه ومقتضاه:ألا يتلقى الناس الشرائع في أمور حياتهم إلا من الله. كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر إلا لله. توحيداً للسلطان الـذي هـو أخص خصائص الألوهية. والذي لا ينازع الله فيه مؤمن، ولا يجترئ عليه إلا كافر..

والنصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى وتحدده وتجرده. بما لا يدع مجالاً لشك فيه أو جدال: { إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (٤٠) سورة يوسف والإسلام –وحده- يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده- هو الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

إن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر-في صورة من الصور- يقعون في عبودية العباد .. وفي الإسلام –وحده- يتحررون من هـذه العبوديـة للعبـاد بعبوديتهم لله وحده.

وهذا هو "تحرير الإنسان" في حقيقته الكبيرة .. وهذا –من ثم- هو "ميلاد الإنسـان".. فقبل ذلك لا يكون للإنسان وجوده "الإنساني" الكامل، بمعناه الكبير، الوحيد ..

.. وهذه هي الهدية الربانية التي يهديها للناس في الأرض بعقيدة التوحيد ... وهذه هـي النعمة الإلهية التي يمن الله بها على عباده وهو يقول لهم:"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً"..

وهذه هي الهدية التي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أنه يهدوها –بدورهم- للبشرية كلها. وهذه هي النعمة التي يملكون أن يفيضوا منها على الناس، بعد أن يفيضوها على أنفسهم، ويرضوا منها ما رضيه الله لهم.

وهذا هو الجديد الذي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم، كمـا تقدم به أسلافهم بالأمس فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد. ولم تستطع أن تقـاوم

جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك، فهو شيء آخر غير كل ما لديها من تصورات وعقائـــد، وأفكار وفلسفات، وأنظمة وأوضاع .. بكل تأكيد ..

لقد قال ربعي بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس، وهو يسأله ما الذي جاء بكم؟ كلمات قلائل تصور طبيعة هذه العقيدة، وطبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها، كما تصور طبيعة تصور أهلها لها، وإدراكهم لحقيقة دورهم بها ..

قَالَ سَيْفٌ عَنْ شُيُوخه:وَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجَيْشَان بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْد أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْـــه برَجُـــلٍ عَاقلٍ عَالمٍ بمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْه الْمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، ﷺ فَلَمَّا قَدمَ عَلَيْه جَعَـــلَ رُسْـــتُمُ يَقُولُ لَهُ:إِنَّكُمْ جيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسنُ إِلَيْكُمْ وَنَكُفُّ الْأَذَى عَنْكُمْ، فَارْجعُوا إِلَى بلَادكُمْ وَلَـــا نَمْنَعُ تُجَّارَكُمْ منَ الدُّخُول إِلَى بلَادنَا. فَقَالَ لَهُ الْمُغيرَةُ:إِنَّا لَيْسَ طَلَبُنَا الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هَمُّنَـــا وَطَلَبُنَا الْآخرَةُ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا قَالَ لَهُ:إِنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذه الطَّائفَةَ عَلَى مَنْ لَـــمْ يَدنْ بديني، فَأَنَا مُنْتَقمٌ بهمْ منْهُمْ، وَأَجْعَلُ لَهُمُ الْغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقرِّينَ به، وَهُوَ دينُ الْحَقِّ لَا يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا يَعْتَصمُ به إِلَّا عَزَّ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ:فَمَا هُوَ ؟ فَقَالَ:أَمَّا عَمُـــودُهُ الَّذي لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ منْهُ إِلَّا به، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَالْإِقْرَارُ بمَا جَاءَ منْ عنْد اللَّه. فَقَالَ:مَا أَحْسَنَ هَذَا ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا ؟ قَالَ:وَإِخْرَاجُ الْعبَاد مـــنْ عبَادَة الْعبَاد إِلَى عبَادَة اللَّه. قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا، وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا ؟ قَالَ:وَالنَّاسُ بَنُـــو آدَمَ، فَهُمْ إِخْوَةٌ لأَبٍ وَأُمٍّ. قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا، ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ:أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَـــا فـــي ديـــنكُمْ، أَتَرْجعُونَ عَنْ بلَادنَا ؟ قَالَ:إِي وَاللَّه، ثُمَّ لَا نَقْرَبُ بلَادَكُمْ إِلَّـــا فـــي تجَـــارَة أَوْ حَاجَـــة. قَالَ:وَحَسَنٌ أَيْضًا. قَالَ:وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغيرَةُ منْ عنْده ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمه في الْإِسْلَامِ، فَأَنفُوا منْ ذَلكَ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فيه، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ.

قَالُوا:ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْه سَعْدٌ رَسُولًا آخَرَ بطَلَبه، وَهُوَ ربْعيُّ بْنُ عَامرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْه وَقَـــدْ زَيَّنُـــوا مَجْلسَهُ بالنَّمَارق الْمُذَهَّبَة وَالزَّرَابيِّ الْحَرير، وَأَظْهَرَ الْيَوَاقيتَ وَاللَّـــآلئَ الثَّمينَـــةَ، وَالزِّينَـــةَ الْعَظيمَةَ، وَعَلَيْه تَاجُهُ، وَغَيْرُ ذَلكَ منَ الْأَمْتعَة الثَّمينَة، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مـــنْ ذَهَـــبٍ، وَدَخَلَ ربْعيٌّ بثيَابٍ صَفيقَة وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ وَفَرَسٍ قَصيرَة، وَلَمْ يَزَلْ رَاكبَهَا حَتَّى دَاسَ بهَـــا عَلَى طَرَف الْبُسَاط، ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا ببَعْضِ تلْكَ الْوَسَائد، وَأَقْبَلَ وَعَلَيْه سـِـلَاحُهُ وَدرْعُـــهُ

وَبَيْضَةٌ عَلَى رَأْسه، فَقَالُوا لَهُ:ضَعْ سلَاحَكَ. فَقَالَ:إِنِّي لَمْ آتكُمْ، وَإِنَّمَا جئْتُكُمْ حينَ دَعَوْتُمُوني، فَإِنْ تَرَكْتُمُوني هَكَذَا وَإِلَّا رَجَعْتُ. فَقَالَ رُسْتُمُ:ائْذَنُوا لَهُ. فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رُمْحه فَوْقَ النَّمَارق فَخَرَّقَ عَامَّتَهَا، فَقَالُوا لَهُ:مَا جَاءَ بكُمْ ؟ فَقَالَ:اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ منْ عبَادَة الْعبَاد إِلَى عبَادَة اللَّه، وَمنْ ضيق الدُّنْيَا إِلَى سعَتهَا، وَمنْ جَوْر الْأَدْيَان إِلَى عَدْل الْإِسْلَام، فَأَرْسَلَنَا بدينه إِلَى خَلْقه لنَدْعُوَهُمْ إِلَيْه، فَمَنْ قَبلَ ذَلكَ قَبلْنَا منْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضيَ إِلَى مَوْعُود اللَّه. قَالُوا:وَمَا مَوْعُودُ اللَّه ؟ قَالَ:الْجَنَّةُ لمَنْ مَاتَ عَلَى قتَال مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لمَنْ بَقيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ:قَدْ سَمعْتُ مَقَالَتَكُمْ، فَهَلْ لَكَمَ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فيه وَتَنْظُرُوا ؟ قَالَ:نَعَمْ، كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ ؟ أَيَوْمًا أَوْ يَوْمَيْن ؟ قَالَ:لَا، بَلْ حَتَّى نُكَاتبَ أَهْلَ رَأْينَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمنَا. فَقَالَ:مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عنْدَ اللِّقَاء أَكْثَرَ منْ ثَلَاث، فَانْظُرْ في أَمْركَ وَأَمْرهمْ، وَاخْتَرْ وَاحدَةً منْ ثَلَاث بَعْدَ الْأَجَل. فَقَالَ:أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ ؟ قَالَ:لَا، وَلَكنَّ الْمُسْلمُونَ كَالْجَسَد الْوَاحد يُجيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلَاهُمْ. فَاجْتَمَعَ رُسْتُمُ برُؤَسَاء قَوْمه، فَقَالَ:هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ أَعَزَّ وَأَرْجَحَ منْ كَلَام هَذَا الرَّجُل ؟ فَقَالُوا:مَعَاذَ اللَّه أَنْ تَميلَ إِلَى شَيْءٍ منْ هَذَا وَتَدَعَ دينَكَ لهَذَا الْكَلْب ! أَمَا تَرَى إِلَى ثيَابه ؟ ! فَقَالَ:وَيْلَكُمْ لَا تَنْظُرُوا إِلَى الثِّيَاب، وَانْظُرُوا إِلَى الرَّأْي وَالْكَلَام وَالسِّيرَة، إِنَّ الْعَرَبَ يَسْتَخفُّونَ بالثِّيَاب وَالْمَأْكَل، وَيَصُونُونَ الْأَحْسَابَ.

ثُمَّ بَعَثُوا يَطْلُبُونَ في الْيَوْم الثَّاني رَجُلًا، فَبُعثَ إِلَيْهمْ حُذَيْفَةُ بْنُ محْصَن، فَتَكَلَّمَ نَحْوَ مَا قَالَ ربْعيٌّ. وَفي الْيَوْم الثَّالث الْمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَتَكَلَّمَ بكَلَامٍ حَسَنٍ طَويلٍ، قَالَ فيه رُسْتُمُ للْمُغيرَة:إِنَّمَا مَثَلُكُمْ في دُخُولكُمْ أَرْضَنَا كَمَثَل الذُّبَاب رَأَى الْعَسَلَ فَقَالَ:مَنْ يُوصلُني إِلَيْه وَلَهُ درْهَمَان ؟ فَلَمَّا سَقَطَ عَلَيْه غَرقَ فيه، فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْخَلَاصَ فَلَا يَجدُهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ:مَنْ يُخَلِّصُني وَلَهُ أَرْبَعَةُ دَرَاهمَ ؟ وَمَثَلُكُمْ كَمَثَل ثَعْلَبٍ ضَعيفٍ دَخَلَ جُحْرًا في كَرْمٍ، فَلَمَّا رَآهُ صَاحبُ الْكَرْم ضَعيفًا رَحمَهُ فَتَرَكَهُ، فَلَمَّا سَمنَ أَفْسَدَ شَيْئًا كَثيرًا فَجَاءَ بجَيْشه، وَاسْتَعَانَ عَلَيْه بغلْمَانه، فَذَهَبَ ليَخْرُجَ فَلَمْ يَسْتَطعْ لسمَنه، فَضَرَبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ، فَهَكَذَا تَخْرُجُونَ منْ بلَادنَا. ثُمَّ اسْتَشَاطَ غَضَبًا، وَأَقْسَمَ بالشَّمْس لَأَقْتُلَنَّكُمْ غَدًا. فَقَالَ الْمُغيرَةُ:سَتَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ للْمُغيرَة:قَدْ أَمَرْتُ لَكُمْ بكسْوَةٍ، وَلأَميركُمْ بأَلْف دينَارٍ

وَكِسْوَةٍ وَمَرْكُوبٍ وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا. فَقَالَ الْمُغِيرَةُ:أَبْعَدَ أَنْ أَوْهَنَّا مُلْكَكُمْ وَضَعَّفْنَا عِزَّكُمْ ؟ ! وَلَنَا مُدَّةٌ نَحْوَ بِلَادِكُمْ، وَنَأْخُذُ الْجِزْيَةَ مِنْكُمْ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، وَسَتَصِيرُونَ لَنَا عَبِيدًا عَلَى رَغْمِكُمْ. فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ اسْتَشَاطَ غَضَبًا. [٦]

وفي هذه الكلمات القلائل تتركز قاعدة هذه العقيدة، وتتجلى طبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها، وانطلقت بها ..

إنها إخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ... ورد أمرهم إلى الله – وحده– في المحيا والممات، في الدنيا والآخرة. وإفراد الله سبحانه بالألوهية وبخصائص الألوهية –والسلطان والحاكمية والتشريع، هي أولى هذه الخصائص التي لا نازع الله فيها مؤمن، ولا يجرؤ على منازعته إياها إلا كافر –ولا توجد حرية للإنسان، بل لا يوجد "الإنسان" ذاته، إلا بخلوصها لله.

وأصحاب عقيدة التوحيد – حين يفيئون اليوم إليها، وحين يرفعون رايتها وحدها– يملكون أن يقولوا للبشرية كلها ما قاله ربعي بن عامر. فالبشرة –من هذه الناحية– اليوم كما كانت يوم قال ربعي بن عامر كلمته.. إنها كلها غارقة في عبادة العباد. والتوحيد – بمعناه الشامل– هو الذي يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وبذلك وحده "يتحرر الإنسان" بل "يولد الإنسان".

وأصحاب عقيدة التوحيد –حين يفيئون إلى منهج الله الذي من به عليهم وينادون به– يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشيء الذي تفقده جميع المناهج والمذاهب والأنظمة والأوضاع في الأرض كلها لا استثناء. ومن ثم يكون لهم اليوم وغداً دور جديد، ودور عالمي إنساني كبير. ودور قيادي أصيل في التيارات العالمية الإنسانية. ودور يمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني –كالدور الذي منح العرب الأميين في الجزيرة العربية، سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني، وللقيادة العالمية الإنسانية.

إنهم لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجاداً علمية، ولا فتوحات حضارية، يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقاً ساحاً على كل ما لدى البشرية منها .. ولكنهم يملكون أن

---

[٦] – البداية والنهاية لابن كثير محقق – موافق للمطبوع – (٧ / ٤٦)

يقدموا لها شيئاً آخر. شيئاً أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضـــارية. إنهـــم يقدمون "تحرير الإنسان" بل "ميلاد الإنسان"...

وهم حين يقدمون للبشرية هذه الهدية يقدمون معها منهجاً كاملاً للحياة منهجاً يقوم على تكريم الإنسان، وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية إطلاقـــه بكـــل طاقاته لينهض بالخلافة وهو حر كريم، يملك إذن أن يقدّم وأن يقـــوم الأمجـــاد العلميـــة، والفتوحات الحضارية، وهو في أوج حريتهن وفي أوج كرامتهن فلا يكون عبداً للآلة، ولا عبداً للبشر .. على السواء.[٧]



[٧] – تهذيب خصائص التصور الإسلامي للسيد قطب رحمه الله لي – وسيتم نشره قريبا إن شاء الله

لا إله إلاّ اللهُ مَنْهَجُ حَيَاةٍ متكاملٍ

العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة:أن لا إله إلا الله.والتلقي عن رسول الله – ﷺ – في كيفية هذه العبودية – هو شطرها الثاني،المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها،لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان،وأركان الإسلام،إنما هو مقتضى لها.فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره،وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج،ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية ... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده،كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلَّغه لنا رسول الله – ﷺ – عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضايتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضايتها فيه لا يكون مسلماً .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله،وأن محمداً رسول الله،قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها،فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة،كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة،أو قامت على قاعدة أخرى معها،أو عدة قواعد أجنبية عنها:{ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } ... [يوسف:٤٠]

{ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } .. [النساء:٨٠]

هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين،وفي حركته الواقعية كذلك :

إنه يفيدنا أولاً في تحديد " طبيعة المجتمع المسلم " .

ويفيدنا ثانياً في تحديد " منهج نشأة المجتمع المسلم " .

ويفيدنا ثالثاً في تحديد " منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية.

ويفيدنا رابعاً في تحديد " منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية " .

وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً .

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله ..

هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله،وأن محمداً رسول الله .

وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي،كما تتمثل في الشعائر التعبدية،كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء .

فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه:{ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ،وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } ... [النحل:٥١ - ٥٢]

ليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله - معه أو من دونه:{ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣]

وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله،عن الطريق الذي بَلَّغَنَا الله به،وهو رسول الله ﷺ :{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [الشورى:٢١]

{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا }[الحشر:٧]

هذا هو المجتمع المسلم.المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراهم،كما تتمثل في شعائرهم وعبادهم،كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاهم .. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود.لتخلف ركنه الأول،وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولقد قلنا:إن العبودية لله تتمثل في " التصور الاعتقادي " .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي .. إنه التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني،والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة

ربه،ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه – غيبه وشهوده – ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها – غيبها وشهودها – ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً،تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده،وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها،ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله – كما بَلَّغَهَا رسول الله ﷺ – تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

فإذا تقرر أن هذا هو " المجتمع المسلم "،فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟

إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده،وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله .. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور،ولا تدين لغير الله في العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع .. ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة .. تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله – معه أو من دونه – وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله – معه أو دونه – وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله – معه أو من دونه .

عندئذ – وعندئذ فقط – تكون هذه الجماعة مسلمة،ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك .. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله – على النحو الذي تقدم – فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً .. ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام،والتي يقوم عليها المجتمع المسلم – هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – لم تقم بشطريها ..

وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام مجتمع إسلامي،وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام .. ينبغي أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله – في أي صورة من صورها التي أسلفنا – وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من

العبودية لغير الله في جماعة مسلمة .. وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله،اعتقاداً وعبادة وشريعة،هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم،وينظم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده .. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله،وأن محمداً رسول الله.

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول .. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة،وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله – معه أو من دونه – إلى العبودية لله وحده بلا شريك،ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية .. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد،مشتق من المجتمع الجاهلي القديم،ومواجه له بعقيدة جديدة،ونظام للحياة جديد،يقوم على أساس هذه العقيدة،وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريه .. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم،كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه،وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها،سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه – وهو أفراد أو مجموعات – أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً – وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام،إلى محمد عليه الصلاة والسلام،بغير استثناء .

وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ،ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم،قوة الاعتقاد والتصور،وقوة الخلق والبناء النفسي،وقوة التنظيم والبناء الجماعي،وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه،أو على الأقل يصمد له !

ولكن ما هو " المجتمع الجاهلي " ؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته ؟

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ! وإذا أردنـــا التحديـــد الموضـــوعي قلنا:إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبوديـــة في التصـــور الاعتقادي،وفي الشعائر التعبدية،وفي الشرائع القانونية ..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار " المجتمع الجاهلي " جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً !!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية .. أولاً:بإلحادها في الله – سبحانه – وبإنكـــار وجـــوده أصلاً،ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى " المادة " أو " الطبيعة "،ورجع الفاعلية في حيـــاة الإنسان وتاريخه إلى " الاقتصاد " أو " أدوات الإنتاج "،ثانياً ":بإقامة نظام العبودية فيـــه للحزب – على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ! – لا لله سبحانه ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص " الإنسان " وذلك باعتبار أن " المطالب الأساسية " له هي فقط مطالب الحيوان،وهي:الطعام والشـــراب والملـــبس والمسكن والجنس ! وحرمانه من حاجات روحه " الإنساني " المتميز عـــن الحيـــوان،وفي أولها:العقيدة في الله،وحرية اختيارها،وحرية التعبير عنها،وكذلك حرية التعبير عن " فرديته " وهي من أخص خصائص " إنسانيته ".هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفرديـــة،وفي اختيار نوع العمل والتخصص،وفي التعبير الفني عن " الذات " إلى آخر ما يميز " الإنسان " عن " الحيوان " أو عن " الآلة " إذ أن التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء،كثيراً مـــا يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة !

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية – وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقيـــة – تدخل فيه – أولاً:بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله – معه أو مـــن دونـــه – وتدخل فيه ثانياً:بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقـــد بألوهيتـــها .. كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع،المرجع فيها لغير الله وشريعته.سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ،أو استمدتها من هيئات مدنية " علمانية " تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله .. أي أن لها الحاكمية

العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان .. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله سبحانه،ولا تزاول إلا بالطريقة التي بَلَّغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً .. تـدخل فيـه هـذه المجتمعات أولاً:بتصورها الاعتقادي المحرَّف،الذي لا يفرد الله – سبحانه – بالألوهية بـل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك،سواء بالبنوة أو بالتثليث،أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته،وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها :{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِـنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } .. [التوبة:٣٠]

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُـوا عَمَّـا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ... [المائدة:٦٣]

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـوطَتَانِ يُنْفِـقُ كَيْفَ يَشَاءُ } ... [المائدة:٦٤]

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ } ... [المائدة:١٨]

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .. ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها،وهي كلها لا تقوم على العبوديـة لله وحده،بالإقرار له وحده بحق الحاكمية،واستمداد السلطان من شرعه،بل تقيم هيئات مـن البشر،لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه .. وقديماً وصمهم الله بالشـرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان،يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم مـا يشرعونه :{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } .. [التوبة:٣١]

وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان.ولم يكونوا يتقدمون لهـم بالشـعائر التعبدية،إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية،فيقبلون منهم ما يشـرعونه لهم،بمـا لم يأذن به الله،فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر،وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسـوا

أحباراً ولا رهباناً .. وكلهم سواء ..وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها " مسلمة " !.

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله،ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً،ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها.فهي – وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله – تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله،فتدين بحاكمية غير الله،فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها،وشرائعها وقيمها،وموازينها،وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريباً ! .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين:{ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } .. [المائدة:٤٤]

ويقول عن المحكومين :{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ... } إلى أن يقول { ... فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } .. [النساء:٦٠ – ٦٥]

كما إنه – سبحانه – قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده،واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه،لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم " مسلمون " لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء.فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده،فهي خروج من دين الله،ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة " علمانيته " وعدم علاقته بالدين أصلاً،وبعضها يعلن أنه " يحترم الدين " ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً،ويقول:إنه ينكر " الغيبية " ويقيم نظامه على " العلمية " باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية ! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال [8] وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول

[8] – يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ } في الجزء السابع من الظلال .

عما يشرعه من عند نفسه:هذه شريعة الله ! .. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..وإذا تعين هذا،فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة:إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره .

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة .. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده.وهي من ثم تلتقي – مع سائر المجتمعات الأخرى – في صفة واحدة .. صفة " الجاهلية " ..

وهذا يقودنا إلى القضية الخطيرة وهي منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله .. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان .. وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الأولى عن " طبيعة المجتمع المسلم "،وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله .

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال :

– ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري أيّاً كان ؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة .. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة .. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول،لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله – ﷺ – لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل،ثم يتبع اتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد:{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [الحشر:٧] ثم إن الإسلام يسأل:{ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } ويجيب :{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } .. { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً } ..والذي يعلم – والذي يخلق ويرزق كذلك – هو الذي يحكم .. ودينه الذي هو منهجه للحياة،هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة..أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف،وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون،والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً !

ودين الله ليس غامضاً،ومنهجه للحياة ليس مائعاً .. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني:محمد رسول الله،فهو محصور فيما بَلَّغه رسول الله ﷺ،من النصوص في الأُصول .. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم،ولا اجتهاد مع النص.وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد – وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته.لا وفق الأهواء والرغبات –:{ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } .. [النساء:٥٩]

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه:هذا شرع الله،إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة،وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر،وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطاناً باسم الله.كالذي عرفته أوروبا ذات يوم باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم المقدس " فليس شيء من هذا في الإسلام.وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله – ﷺ – وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله .

إن كلمة " الدين للواقع " يساء فهمها،ويساء استخدامها كذلك.نعم إن هذا الدين للواقع.ولكن أي واقع ! .. إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه،وفق منهجه،منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها،ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها.هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق،والذي يعلم من خلق :{ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:١٤] والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقرَّه ويبحث له عن سند منه،وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة ! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه،فيقر منه ما يقر،ويلغي منه ما يلغي،وينشئ واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه،وواقعه الذي ينشئه هو الواقع.وهذا هو المعنى بأن الإسلام:" دين للواقع " .. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح ! ولعله يثار هنا سؤال :" أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم ؟ " !.ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجيب عليه :{ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } ؟

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } ! إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله،كمـــا أنزلـــه الله،وكما بَلَّغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم،فهم .. أولاً:" واهمون " فيما بدا لهم .{ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْـــأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى،أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى،فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْـــأُولَى } ... [الـــنجم :٢٣-٢٥]

وهم .. ثانياً:" كافرون " .. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لمـــا شـــرع الله،ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين.ومن أهل هذا الدين ! [٩].

وقال تعالى:{ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِـــدٌ وَلِيَـــذَّكَّرَ أُولُـــو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم:٥٢]

إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار،هي أن يعلم الناس «أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِـــدٌ» ..فهذه هي قاعدة دين اللّه التي يقوم عليها منهجه في الحياة.وليس المقصود بطبيعة الحـــال مجرد العلم،إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم ..المقصود هو الدينونة للّـــه وحده،ما دام أنه لا إله غيره.فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربا - أي حاكما وســـيدا ومتصرفا ومشرعا وموجها - وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد - أي حاكمية العباد للعبـــاد ودينونة العباد للعباد - وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور،ويتناول الشعائر والمناسك كما يتناول الأخلاق والسلوك،والقيم والموازين وكمـــا يتنـــاول الأوضـــاع السياســـية والاقتصادية والاجتماعية،وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل وليس مجرد عقيدة مســـتكنة في الضمائر.وحدود العقيدة أبعد كثيرا من مجرد الاعتقاد الساكن ..إن حدود العقيدة تتســـع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة ..وقضية الحاكمية بكـــل فروعهـــا في الإسلام هي قضية عقيدة.كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة.فمن العقيـــدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم كما يشتمل الأوضاع والشـــرائع ســـواء

[٩] - معالم الطريق بتحقيقي ص ٨٩ فما بعدها

بسواء ..ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين،وقبل أن ندرك مدلولات:« شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه» على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد.وقبل أن نفهم مدلول:العبادة للّه وحده ونحدده بأنه الدينونة للّه وحده لا في لحظات الصلاة،ولكن في كل شأن من شؤون الحياة!

إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم – عليه السلام – ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها،لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم،أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى،مجسمة في أحجار أو أشجار،أو حيوان أو طير،أو نجم أو نار،أو أرواح أو أشباح .

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك باللّه،ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون اللّه.والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة! ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام،وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة! إن الشرك باللّه – المخالف لشهادة أن لا إله إلا اللّه – يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة للّه وحده.ويكفي أن يدين العبد للّه في جوانب من حياته،بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير اللّه،حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته ..وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ..والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ..إن العبد الذي يتوجه للّه بالاعتقاد في ألوهيته وحده ثم يدين للّه في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر.بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير اللّه.ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير اللّه.ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء – مخالفة لشرع اللّه وأمره – إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ويخالف عن

شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه في أخص حقيقتها ..وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع،وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان! والأصنام ..ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة ..فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت،يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها،وضمان دينونتهم له من خلالها ..

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر ..إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى ..ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها! فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان،ويقررون باسمها ما لم يأذن به اللّه من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ...فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها! إذا رفعت «القومية» شعارا،أو رفع «الوطن» شعارا،أو رفع «الشعب» شعارا،أو رفعت «الطبقة» شعارا ...ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون اللّه وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض.بحيث كلما تعارضت شريعة اللّه وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها،نحيت شريعة اللّه وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه،ونفذت إرادة تلك الشعارات - أو بالتعبير الصحيح الدقيق:

إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات - كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون اللّه ..فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعارا! إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية! و لم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة،من موكب الرسل الموصول و لم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام،لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة للّه وحده في كل أمر وفي كل شأن وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة ..ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة،وتقرير ما إذا كانت توحيدا أم شركا؟ دينونة للّه وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!

والذين يظنون أنفسهم في «دين اللّه» لأنهم يقولون بأفواههم «نشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه»،ويدينون للّه فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث ..بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير اللّه ويخضعون لشرائع لم يأذن بها اللّه – وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة اللّه – ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم – أرادوا أم لم يريدوا – ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة.فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام،نبذت أوامر اللّه فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ...الذين يظنون أنفسهم «مسلمين» وفي «دين اللّه» وهذا حالهم ..عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!

إن دين اللّه ليس بهذا الهزل الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها!

إن دين اللّه منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها.والدينونة للّه وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها – فضلا على أصولها وكلياتها – هي دين اللّه،وهي الإسلام الذي لا يقبل اللّه من أحد دينا سواه.وإن الشرك باللّه لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه ..

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات! ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم؟ ولمن الدينونة الكاملة؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال؟

..فإن كان هذا كله للّه فهم في دين اللّه.وإن كان لغير اللّه – معه أو من دونه – فهم في دين الطواغيت والأصنام ..والعياذ باللّه ..![١٠]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٥٩]

الإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله

إنَّ الإيمان باللّه يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند اللّه،وصدق كل الرسل الذين يبعثهم اللّه،ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم،وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم ..ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم.فكلهم جاء من عند اللّه بالإسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين – محمد ﷺ– فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد،لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة.

وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله وتقوم على دين اللّه في الأرض،وهي الوارثة له كله ويشعر المسلمون – من ثم – بضخامة دورهم في هذه الأرض إلى يوم القيامة.فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية في تاريخها الطويل.وهم المختارون لحمل راية اللّه – وراية اللّه وحدها – في الأرض،يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات،من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية ..إلى آخر شارات الجاهلية التي يرفعها الجاهليون في الأرض،على اختلاف الأسماء والمصطلحات واختلاف الزمان والمكان.

إن رصيد الإيمان الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض،ووراثة له منذ أقدم الرسالات،هو أكرم رصيد وأقومه في حياة البشرية.إنه رصيد من الهدى والنور،ومن الثقة والطمأنينة،ومن الرضى والسعادة،ومن المعرفة واليقين ..وما يخلو قلب بشري من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام،وتعمره الوساوس والشكوك،ويستبد به الأسى والشقاء.ثم يروح يتخبط في ظلماء طاخية،لا يعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب! وصرخات القلوب التي حرمت هذا الزاد،وحرمت هذا الأنس،وحرمت هذا النور،صرخات موجعة في جميع العصور [11] ..هذا إذا كان في هذه القلوب حساسية

---

[11] – يقول عمر الخيام :

أحس في نفسي دبيب الفناء و لم أصب في العيش إلا الشقاء

يا حسرتا إن حان حيني و لم يتح لفكري حل لغز القضاء

تروح أيامي ولا تغتدي كما تهب الريح في الفدفد)

وحيوية ورغبة في المعرفة ولهفة على اليقين.فأما القلوب البليدة الميتة الجاسية الغليظة،فقد لا تحس هذه اللهفة ولا يؤرقها الشوق إلى المعرفة ..ومن ثم تمضي في الأرض كالبهيمة تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام وتستمتع.وقد تنطح وترفس كالبهيمة،أو تفترس وتنهش كالوحش وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش،وتنشر الفساد في الأرض ..ثم تمضي ملعونة من اللّه ملعونة من الناس!

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة – ولو غرقت في الرغد المادي – خاوية – ولو تراكم فيها الإنتاج – قلقة – ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجي – وأمامنا في أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلا مراوغ يتنكر للحس والعيان! والمؤمنون باللّه وملائكته وكتبه ورسله،يتوجهون إلى ربهم بالطاعة والتسليم،ويعرفون أنهم صائرون إليه،فيطلبون مغفرته من التقصير:«وَقالُوا:سَمِعْنا وَأَطَعْنا،غُفْرانَكَ رَبَّنا،وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

ويتجلى في هذه الكلمات أثر الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله.يتجلى في السمع والطاعة،السمع لكل ما جاءهم من عند اللّه،والطاعة لكل ما أمر به اللّه.فهو إفراد اللّه بالسيادة كما ذكرنا من قبل،والتلقي منه في كل أمر.فلا إسلام بلا طاعة لأمر اللّه،وإنفاذ لنهجه في الحياة.ولا إيمان حيث يعرض الناس عن أمر اللّه في الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم أو حيث لا ينفذون شريعتة،أو حيث يتلقون تصوراتهم عن الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة من مصدر غير مصدره.فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

ومع السمع والطاعة ..الشعور بالتقصير والعجز عن توفية آلاء اللّه حق شكرها وفرائض اللّه حق أدائها.

والالتجاء إلى رحمة اللّه لتتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها:«غُفْرانَكَ رَبَّنا» ..ولكن طلب الغفران إنما يجيء بعد تقديم الاستسلام وإعلان السمع والطاعة ابتداء بلا عناد أو نكران ..

وما طويت النفس هما على يومين:أمس المنقضي والغد(السيد رحمه الله

وإنما يعقبه كذلك اليقين بأن المصير إلى اللّه.المصير إليه في الدنيا والآخرة.المصير إليه في كل أمر وكل غد

بظهر الغيب واليوم لي وكم يخيب الظن في المقبل

ولست بالغافل حتى أرى جمال دنياي ولا أجتلي

سمعت في حلمي صوتا أصاب ما فتق النوم كمام الشباب

أفق فإن النوم صنو الردى واشرب فمثواك فراش التراب

سأنتحي الموت حثيث الورود ويمحي اسمي من سجل الوجود

هات اسقنيها يا منى خاطري فغاية الأيام طول الهجود

ويقول الجامعة بن داود في «العهد القديم»:باطل الأباطيل.الكل باطل.ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟ دور يمضي ودور يجيء.والأرض قائمة إلى الأبد.الشمس تشرق والشمس تغرب،وتسرع إلى موضعها حيث تشرق.الريح تذهب إلى الجنوب،وتدور إلى الشمال.تذهب دائرة دورانا،وإلى مداراتها ترجع.كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن.إلى المكان الذي جرت منه الأنهار،إلى هناك تذهب راجعة.كل الكلام يقصر،ولا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل.العين لا تشبع من النظر،والأذن لا تمتلى من السمع.ما كان فهو يكون،والذي صنع فهو الذي يصنع.فليس تحت الشمس جديد.إن وجد شيء يقال له:انظر،هذا جديد،فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا.ليس ذكر للأولين.والآخرون أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم ..».عمل.فلا ملجأ من اللّه إلا إليه ولا عاصم من قدره،ولا مرد لقضائه ولا نجوة من عقابه إلا برحمته وغفرانه:«وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».وهذا القول يتضمن الإيمان باليوم الآخر – كما رأينا – والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان باللّه وفق التصور الإسلامي،الذي يقوم على أساس أن اللّه خلق الإنسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط،يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا،ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء ..فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الإسلامي ..وهذا الإيمان على هذا النحو هو الذي يكيف

ضمير المسلم وسلوكه،وتقديره للقيم والنتائج في هذه العاجلة.فهـــو يمضـــي في طريـــق الطاعة،وتحقيق الخير،والقيام على الحق والاتجاه إلى البر سواء كانت ثمرة ذلك – في الأرض – راحة لم أم تعبا.كسبا له أم خسارة.نصرا له أم هزيمة.وجدانا له أو حرمانا.حياة لـــه أو استشهادا.لأن جزاءه هناك في الدار الآخرة بعد نجاحه في الابتلاء،واجتيازه للامتحان ..لا يزحزحه عن الطاعة والحق والخير والبر أن تقف له الدنيا كلها بالمعارضة والأذى والشـــر والقتل ..فهو إنما يتعامل مع اللّه وينفذ عهده وشرطه وينتظر الجزاء هناك! إنهـــا الوحـــدة الكبرى.طابع العقيدة الإسلامية.ترسمه هذه الآية القصيرة:الإيمان باللّه وملائكته.والإيمـــان بجميع كتبه ورسله،بلا تفريق بين الرسل،والسمع والطاعة،والإنابة إلى اللّه.واليقين بيـــوم الحساب.

إنه الإسلام.العقيدة اللائقة بأن تكون ختام العقائد،وآخر الرسالات.العقيدة التي تصـــور موكب الإيمان الواصب من مبتدى الخليقة إلى منتهاها.وخط الهداية المتصـــل الموصـــول بأيدي رسل اللّه جميعا.المتدرج بالبشرية في مراقي الصعود.الكاشف لهـــا عـــن النـــاموس الواحد بقدر ما تطيق:حتى يجيء الإسلام،فيعلن وحدة النـــاموس كاملة،ويـــدع للعقـــل البشري التفصيل والتطبيق.

ثم هي العقيدة التي تعترف بالإنســـان إنســـانا،لا حيوانـــا ولا حجـــرا،ولا ملكـــا ولا شيطانا.تعترف به كما هو،بما فيه من ضعف وما فيه من قوة،وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسد ذي نوازع،وعقل ذي تقدير،وروح ذي أشواق ..وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق وتراعي التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات وتلبي كـــل حاجـــات الجسد والعقل والروح في تناسق يمثل الفطرة ..ثم تحمل الإنسان – بعد ذلـــك – تبعـــة اختياره للطريق الذي يختار:«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهـــا مَـــا اكْتَسَبَتْ».وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف التي يفرضها اللّه عليـــه في خلافته للأرض وفي ابتلائه في أثناء الخلافة وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف.ويطمئن إلى رحمة اللّه وعدله في هذا كله فلا يتبرم بتكاليفه،ولا يضيق بها صـــدرا،ولا يســـتثقلها كذلك،وهو يؤمن أن اللّه الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته،ولو لم تكن في طاقته مـــا

فرضها عليه.ومن شأن هذا التصور – فضلا عما يسكبه في القلب من راحة وطمأنينة وأنس – أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه،وهو يحس أنها داخلة في طوقه ولو لم تكن داخلة في طوقه ما كتبها اللّه عليه فإذا ضعف مرة أو تعب مرة أو ثقل العبء عليه،أدرك أنه الضعف لا فداحة العب ء! واستجاش عزيمته ونفض الضعف عن نفسه وهمّ همة جديدة للوفاء،ما دام داخلا في مقدوره! وهو إيحاء كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق! فهي التربية كذلك لروح المؤمن وهمته وإرادته فوق تزويد تصوره بحقيقة إرادة اللّه به في كل ما يكلفه.ثم الشطر الثاني من هذا التصور :«لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ».فردية التبعة،فلا تنال نفس إلا ما كسبت ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت ..فردية التبعة،ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة،وما قيد فيها له أو عليه.فلا يحيل على أحد،ولا ينتظر عون أحد ..ورجعة الناس إلى ربهم فرادى من شأنها – حين يستيقنها القلب – أن تجعل كل فرد وحدة إيجابية لا تتزل عن حق اللّه فيها لأحد من عباده إلا بالحق.وتقف كل إنسان مدافعا عن حق اللّه فيه تجاه كل إغراء،وكل طغيان،وكل إضلال،وكل إفساد.فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق اللّه فيها – وحق اللّه فيها هو طاعته في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه،وعبوديتها له وحده شعورا وسلوكا – فإذا فرط في هذا الحق لأحد من العبيد تحت الإغراء والإضلال،أو تحت القهر والطغيان – إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان – فما أحد من تلك العبيد بدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له وما أحد من تلك العبيد بحامل عنه شيئا من وزره ولا ناصر له من اللّه واليوم الآخر ..ومن ثم يستأسد كل إنسان في الدفع عن نفسه والدفاع عن حق اللّه فيها،ما دام هو الذي سيلقى جزاءه مفردا وحيدا! ولا خوف من هذه الفردية – في هذا المقام – فمن مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه،بوصفه طرفا من حق اللّه في نفسه.فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة في ماله وكسبه،وفي جهده ونصحه،وفي إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل،وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والنكر ..وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقى اللّه فردا فيتلقى هنالك جزاءه!

وكأنما سمع المؤمنون هذه الحقيقة وأدركوها ..فها هو ذا ينطلق من قلوبهم دعاء خافق واجف،يذكره النص القرآني بطريقة القرآن التصويرية فكأنما نحن أمام مشهد الدعاء،وصفوف المؤمنين قائمة تردده في خشوع عقب إعلان حقيقة التكاليف وحقيقة الجزاء:« رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا.رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا.رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ.وَاعْفُ عَنَّا،وَاغْفِرْ لَنا،وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ» ..وهو دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم وإدراكهم لضعفهم وعجزهم،وحاجتهم إلى رحمته وعفوه،وإلى مدده وعونه وإلصاق ظهورهم إلى ركنه،والتجائهم إلى كنفه،وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه واستعدادهم للجهاد في سبيله واستمدادهم النصر منه ..كل أولئك في نغمة وادعة واجفة تصور بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الروح ..

«رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا».فدائرة الخطأ والنسيان هي التي تحكم تصرف المسلم حين ينتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه.وفي مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح.وليس هو التبجح إذن بالخطيئة أو الإعراض ابتداء عن الأمر،أو التعالي عن الطاعة والتسليم أو الزيغ عن عمد وقصد ..ليس في شيء من هذا يكون حال المؤمن مع ربه وليس في شيء من هذا يطمع في عفوه أو سماحته ..إلا أن يتوب ويرجع إلى اللّه وينيب ..وقد استجاب اللّه لدعاء عباده المؤمنين في هذا،فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ،وَالنِّسْيَانَ،وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ.[12].

«رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا» ..وهو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله،ومعرفتهم – كما علمهم ربهم في هذا القرآن – بما كان من سلوك الأمم التي جاءتها الرسالات قبلهم وما حملهم اللّه من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم.فقد حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بعملهم.وفي آية الأنعام:«وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ،وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» « سورة الأنعام آية

[12] – صحيح ابن حبان – (١٦ / ٢٠٢) (٧٢١٩) صحيح.

١٤٦.» ..وكتب عليهم قتل أنفسهم تكفيرا عن عبادتهم للعجل كما سبق في أول هـذه السورة.وحرم عليهم «السَّبْتِ» أن يبتغوا فيه تجارة أو صيدا ..وهكذا فالمؤمنون يـدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالا كالتي حملها على الذين من قبلهم،وقد بعث اللّه النبي الأمـي يضع عن المؤمنين به من البشر كافة:«إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَـيْهِمْ» ..فجـاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة،هينة لينة،تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة،وقيل للرسـول – ﷺ – «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى ».على أن الإصر الأكبر الذي رفعه اللّـه عـن كاهـل الأمـة المسلمة،والذي حمله اللّه على عاتق الأمم التي استخلفها في الأرض قبلهم فنقضت عهـد الاستخلاف وحادت عنه ..هذا الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشـر.عبوديـة العبـد للعبد.ممثلة في تشريع العبد للعبد.وفي خضوع العبد للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه ..فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق اللّه عباده المؤمنين منه،فردهم إلى عبادته وحـده وطاعتـه وحده،وتلقي الشريعة منه وحده.وحرر بهذه العبودية للّه الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد! إن العبودية للّه وحده – متمثلـة في تلقـي الشـرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده – هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري.الانطـلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة،ومن سلطان السدنة والكهنة،ومن سلطان الأوهـام والخرافات،ومن سلطان العرف والعادة،ومن سلطان الهوى والشهوة.ومن كـل سـلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهـار.ودعـاء المؤمنين:«وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا»:يمثل شـعورهم بنعمـة الانطلاق والتحرر من العبودية للعبيد كما يمثل خوفهم من الارتـداد إلى ذلـك الـدرك السحيق.

«رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ» ..وهو دعاء يشي بحقيقة الاستسـلام.فـالمؤمنون لا ينوون نكولا عن تكليف اللّه أيا كان.ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجـين مـتطلعين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون.كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيـه ..وإلا فهـي الطاعة المطلقة والتسليم ..إنه طمع الصغير في رحمة الكبير.ورجاء العبد الضعيف في سماحة المالك المتصرف.وطلب ما هو من شأن اللّه في معاملته لعباده من كرم وبر وود وتيسير.ثم

الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير،الذي لا يمحو آثاره إلا فضـــل اللّــه العفو الغفور :«وَاعْفُ عَنَّا،وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا».فهذا هو الضـــمان الحقيقـــي لاجتيـــاز الامتحان،ونيل الرضوان.فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء.ومن رحمة اللّه به أن يعاملـــه بالعفو والمرحمة والغفران، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،قَالَ:مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنَجِّيـــهِ عَمَلُهُ،فقَالَ لَهُ رَجُلٌ:وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ:وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّـــهُ بِرَحْمَتِـــهِ وَلَكِنْ سَدِّدُوا.[13]

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ -ﷺ- أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ ».قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِىَ اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ ».[14]

وهذا هو قوام الأمر في حس المؤمن:عمل بكل ما في الوسع.وشعور مع ذلـــك بالتقصـــير والعجز ..ورجاء - بعد ذلك - في اللّه لا ينقطع.وتطلع إلى العفو والمغفرة والسماح.

وأخيرا يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن اللّه،وهم يهمون بالجهاد في سبيله،لإحقاق الحق الذي أراده،وتمكين دينه في الأرض ومنهجه،«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـــدِّينُ لِلَّـــهِ» ..يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن اللّه الركين ويرفعون رايته على رؤوسهم فينتســـبون إليه وحده.إذا انتسبت الجاهلية إلى شتى الشعارات والعنوانات ويطلبون نصره لأوليائه بما أنه هو مولاهم الوحيد وهم باسمه يقاتلون الكفار الخارجين:«أَنْتَ مَوْلانا،فَانْصُرْنا عَلَـــى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ» ..إنه الختام الذي يلخص السورة.ويلخص العقيـــدة.ويلخـــص تضـــور المؤمنين،وحالهم مع ربهم في كل حين..[15]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[13] - صحيح ابن حبان - (٢ / ٦٠) (٣٤٨) صحيح

[14] - صحيح مسلم- المكتر - (٧٣٠٠)

[15] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٥٩٨]

إنَّ مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام،وفي نشأة الجنس البشري،ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة،كان مصاحبا لخلقه. وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقيا في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. و لم يكن ترقيا في «وجود» الإنسان. من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان. كما تقول الداروينية.

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيبا زمنيا – بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء – هو مجرد نظرية «ظنية» وليست «يقينية» لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظنا! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها. وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها! على أنه – على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور – ليس هناك ما يمنع من وجود «أنواع» من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض بفعل الظروف السائدة في الأرض،ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها،ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة. ولكن هذا لا «يحتم» أن يكون بعضها «متطورا» من بعض .. وحفريات داروين وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا .. لا تستطيع أن تثبت – في يقين مقطوع به – أن هذا النوع تطور تطورا عضويا من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية – وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها – ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعا أرقى من النوع الذي قبله زمنيا .. وهذا يمكن تعليله كما قلنا .. بأن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع. فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ. ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشا من قبل في الظروف الأخرى فانقرض.

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة،في الزمن الذي علم اللّه أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع،وهذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية

في نشأة البشرية وتفرد «الإنسان» من الناحيـــة البيولوجيـــة والفســـيولوجية والعقليـــة والروحية. هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون – وفيهم الملحدون باللّه كليـــة – للاعتراف به،دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية،وعدم تداخلها مع الأنواع الأخـــرى في تطور عضوي [16]! على أية حال لقد أعلن اللّه بذاته العلية الجليلة ميلاد هذا الكـــائن الإنساني في حفل حافل من الملأ الأعلى:«ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ. فَسَجَدُوا. إِلَّـــا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» ..

والملائكة خلق آخر من خلق اللّه لهم خصائصهم ووظائفهم لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم – وقد أجملنا ما علمنا اللّه من أمرهم في موضع سابق من هذه الظـــلال [17] – وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائكة. لقوله تعالى:«إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَـــنْ أَمْرِ رَبِّهِ» .. والجن خلق غير الملائكة،لا نعلم عنه كذلك إلا ما نبأنا اللّه من أمره – وقـــد أجملنا ما أنبأنا اللّه به من أمرهم في موضع من هذا الجزء أيضا [18] – وســـيأتي في هـــذه السورة أن إبليس خلق من نار. فهو من غير الملائكة قطعا. وإن كان قد أمـــر بالســـجود لآدم في زمرة الملائكة.

في ذلك الحفل العظيم الذي أعلن فيه الملك الجليل،ميلاد هذا الكائن الفريد ..

فأما الملائكة – وهم الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – فقد ســـجدوا مطيعين منفذين لأمر اللّه،لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون في معصية لأي ســـبب ولأي تصور ولأي تفكير .. هذه طبيعتهم،وهذه خصائصهم:وهذه وظيفتهم .. وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على اللّه،كما تتمثل الطاعة المطلقـــة في ذلـــك الخلـــق المسمى بالملائكة من عباد اللّه.

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر اللّه – سبحانه – وعصاه. وسنعلم:ما الذي حـــاك في صدره،وما التصور الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربـــه. وهـــو يعـــرف أنـــه ربـــه

---

[16] – يراجع بتوسع فصل:«حقيقة الحياة» وفصل «حقيقة الإنسان» في القسم الثاني من:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

[17] – ص ١٠٤١ – ١٠٤٤ الجزء السابع

[18] – ص ١٢٠٨ – ١٢٠٩:الجزء الثامن

وخالقه،ومالك أمره وأمر الوجود كله لا يشك في شيء من هذا كله! وكذلك نجـد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق اللّه:نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق. ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت .. وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشـرية. وسـنعلم خصائصـها وصفاقما المزدوجة فيما سيجيء.

فأما الطبيعة الأولى فهي خالصة للّه،وقد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. وأما الطبيعتان الأخريان،فسنعرف كيف تتجهان.

«قالَ:ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قالَ:أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ،خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ،وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ».

لقد جعل إبليس له رأيا مع النص. وجعل لنفسه حقا في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هـو من سبب وعلة مع وجود الأمر .. وحين يوجد النص القاطع والأمـر الجـازم ينقطـع النظر،ويبطل التفكر وتتعين الطاعة،ويتحتم التنفيذ .. وهذا إبليس – لعنه اللّه – لم يكـن ينقصه أن يعلم أن اللّه هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شـيء إلا بإذنه وقدره .. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه .. بمنطـق مـن عنـد نفسه:«قالَ:أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ..

فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه:«قالَ:فَاهْبِطْ مِنْها فَمـا يَكُـونُ لَـكَ أَنْ تَتَكَبَّـرَ فِيها،فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» ..

إن علمه باللّه لم ينفعه،واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه .. وكذلك كل من يتلقى أمـر اللّه ثم يجعل لنفسه نظرا في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه وحاكمية في قضية قضى اللّه فيها من قبل يرد بها قضاء اللّه في هذه القضية .. إنه الكفـر إذن مـع العلـم ومـع الاعتقاد. فإبليس لم يكن ينقصه العلم،ولم يكن ينقصه الاعتقاد! لقد طرد من الجنة،وطرد من رحمة اللّه،وحقت عليه اللعنة،وكتب عليه الصغار.ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم.ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمحضت فيه:«قالَ:أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قالَ:إِنَّـكَ مِـنَ الْمُنْظَـرِينَ. قالَ:فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَـيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِـنْ خَلْفِهِمْ،وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ،وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» ..

فهو الإصرار المطلق على الشر،والتصميم المطلق على الغواية .. وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى .. شر ليس عارضا ولا وقتيا. إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد ..

ثم هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية،في مشاهد شاخصة حية:
لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث. وهو يعلم أن هذا الذي يطلبه لا يقع إلّا بإرادة اللّه وقدره.
ولقد أجابه اللّه إلى طلبه في الإنظار،ولكن إلى «يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» كما جاء في السورة الأخرى. وقد وردت الروايات:أنه يوم النفخة الأولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض – إلا من شاء اللّه – لا يوم يبعثون ..
وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث – وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل – أنه سيرد على تقدير اللّه له الغواية وإنزالها به،بسبب معصيته وتبجحه بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه اللّه،والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه:«... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ،وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ» ..
إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط اللّه المستقيم،يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه – والطريق إلى اللّه لا يمكن أن يكون حسا،فاللّه سبحانه جل عن التحيز،فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدي إلى رضى اللّه – وإنه سيأتي البشر من كل جهة:«مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ» .. للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة .. وهو مشهد حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم،فلا يعرفون اللّه ولا يشكرونه،اللهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب:«وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» ..
ويجيء ذكر الشكر،تنسيقا مع ما سبق في مطلع السورة:«قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» .. لبيان السبب في قلة الشكر وكشف الدافع الحقيقي الخفي،من حيلولة إبليس دونه،وقعوده على الطريق إليه! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدى وليأخذوا حذرهم

حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين! لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه. لأن مشيئة اللّه – سبحانه – اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر وبما وهبه من عقل مرجح وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدي الرسل ومن الضبط والتقويم بهذا الدين. كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية وأن يصطرع في كيانه الخير والشر وأن ينتهي إلى إحدى النهايتين،فتحق عليه سنة اللّه وتتحقق مشيئته بالابتلاء . سواء اهتدى أو ضل،فعلى سنة اللّه الجارية وفق مشيئته الطليقة،تحقق الهدى أو الضلال.

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص اللّه – سبحانه – لإبليس – عليه اللعنة – في إيعاده هذا الأخير،كما صرح بإجابته في إنظاره. إنما يسكت عنه،ويعلن طرد إبليس طردا لا معقب عليه. طرده مذموما مقهورا،وإبعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر ويضل معه:«قالَ:اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً. لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» ..

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته باللّه واعتقاده بألوهيته،ثم في رفض حاكمية اللّه وقضائه،وادعاء أن له الحق في إعادة النظر في أوامر اللّه،وفي تحكيم منطقه هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها .. كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى اللّه أصلا .. وهذا وذلك كلاهما اتباع للشيطان جزاؤه جهنم مع الشيطان! لقد جعل اللّه – سبحانه – لإبليس وقبيله فرصة الإغواء. وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقا للابتلاء،الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن وتجعله به خلقا متفردا في خصائصه،لا هو ملك ولا هو شيطان.لأن له دورا آخر في هذا الكون،ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان.[١٩]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٩] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٨٧]

وجوب خلع ألوهية المتألين

إن العقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة:أن لا إله إلا اللّه. وبهذه الشـــهادة يخلـــع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية للّه. ومن ثم يخلع الحاكمية عـــن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها للّه .. والتشريع للصغيرة هو مزاولـــة لحـــق الحاكميـــة كالتشريع للكبيرة. فهو من ثمّ مزاولة لحق الألوهية،يأباه المســـلم إلا اللّـــه .. والـــدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم - العملي - كما هو الأمـــر في العقيـــدة القلبيـــة - لألوهية واحدة هي ألوهية اللّه،ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير اللّـــه مـــن العبـــاد المتألهين! والتشريع هو مزاولة للألوهية،والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهيـــة .. ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا للّه وحده ويخلع ويرفض الدينونة لغير اللّه من العبـــاد المتألهين![٢٠]



[٢٠] -في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٣ /١٢١١]

المفسدون هم الذين لا يؤمنون. وما يقع الفساد في الأرض كما يقع بضلال النـــاس عـــن الإيمان بربهم والعبودية له وحده. وما نجم الفساد في الأرض إلا من الدينونة لغير اللّـــه،وما يتبع هذا من شر في حياة الناس في كل اتجاه. شر اتباع الهوى في النفس والغير وشر قيـــام أرباب أرضية تفسد كل شيء لتستبقي ربوبيتها المزيفة ..

تفسد أخلاق الناس وأرواحهم وأفكارهم وتصوراتهم .. ثم تفسد مصالحهم وأموالهم. في سبيل بقائها المصطنع الزائف. وتاريخ الجاهلية في القديم والحديث فائض بهذا الفساد الذي ينشئه المفسدون الذين لا يؤمنون.[٢١]

إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض وبـــين ذلـــك العمى عن الحق الذي جاء من عند اللّه لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير.فالـــذين لا يستجيبون لعهد اللّه على الفطرة،ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنـــه وحده الحق ..هم الذين يفسدون في الأرض كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويســـتجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض،وتزكو بهم الحياة:{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَـــافُونَ سُـــوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَـــدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِـــهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) } [الرعد:١٩ - ٢٥]..

[٢١] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٣ /١٧٩٤]

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد - ﷺ- هو الحق.ومن ثم يوفون بعهد اللّه على الفطرة،وبعهد اللّه على آدم وذريته،أن يعبدوه وحده،فيدينوا له وحده،ولا يتلقوا عن غيره،ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه.ومن ثم يصلون ما أمر اللّه به أن يوصل،ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ويخافون سوء الحساب،فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل خالجة وكل حركة ويصبرون على الاستقامة على عهد اللّه ذاك بكل تكاليف الاستقامة ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم اللّه سرا وعلانية ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان ..

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة التي تسير على هدى اللّه وحده والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه ..إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء،التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد - ﷺ- هو الحق وحده والتي تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير منهج اللّه الذي ارتضاه للصالحين من عباده ..إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية،كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية! ..

إنها كلها من مناهج العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد - ﷺ- هو وحده الحق،الذي لا يجوز العدول عنه،ولا التعديل فيه ..إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من مناهج العمي،الذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون اللّه،تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة،وتشرع للناس ما لم يأذن به اللّه وتعبدهم لما تشرع،فتجعل دينونتهم لغير اللّه ..

وآية هذا الذي نقوله - استمداد من النص القرآني - هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين.وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها ..سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية،وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية! ..وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية! ..

إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق ..لأنها كلها سواء من صنع العمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هو الحق وحده ولا تلتزم – من ثم – بعهد اللّه وشرعه ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه.

إن المسلم يرفض – بحكم إيمانه باللّه وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق – كل منهج للحياة غير منهج اللّه وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي وكل وضع كذلك سياسي،غير المنهج الوحيد،والمذهب الوحيد،والشرع الوحيد الذي سنه اللّه وارتضاه للصالحين من عباده.

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير اللّه،هو بذاته خروج من دائرة الإسلام للّه فالإسلام للّه هو توحيد الدينونة له دون سواه.

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي،فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه،ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض ..فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي! ..

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي،الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون.فلم تسعد قط ولم ترتفع «إنسانيتها» قط،ولم تكن في مستوى الخلافة عن اللّه في الأرض قط،إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم[٢٢] .

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٢٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧١٨] ويراجع بتوسع فصل:«تخبط واضطراب» في كتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة». «دار الشروق».

توحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام

إنَّ توحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف ، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الـذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية – وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية – فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة .

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ، يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة .

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ويستمتعوا بالكرامة الحقيقة التي أكرمهم بها الله ، إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور .

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ، على ألوهية الله – سبحانه – للكون ؛وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية:إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ، الذي يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس ، ويذلوهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله ، ويجعلوهم عبيدا لهم من دون الله.وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي.. الله سبحانه..

والله – سبحانه – غني عن العالمين.لا ينقص في ملكه شيئا عصيان العصاة وطغيان الطغاة.ولايزيد في ملكه شيئا طاعة الطائعين وعبادة العابدين.. ولكن البشر – هم أنفسهم – الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛وهم الذين يعزون

ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ، ويتحررون من العبودية للعبيد .. ولما كـــان اللّه – سبحانه – يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة اللّه وحده. وليخرجوهم من عبادة العبيد .. لخيرهم هم أنفسهم .. واللّه غني عـــن العالمين.

إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده اللّه للإنسان إلا بأن يعزم البشـــر أن يدينوا للّه وحده،وأن يخلعوا من رقاهم نير الدينونة لغير اللّه. ذلك النير المـــذل لكرامـــة الإنسان في أية صورة قد كان! والدينونة للّه وحده تتمثل في ربوبيتـــه للنـــاس وحـــده. والربوبية تعني القوامة على البشر،وتصريف حياهم بشرع وأمر من عند اللّه،لا من عنـــد أحد سواه. وهذا ما يقرر مطلع هذه الســـورة الكريمـــة أنـــه موضـــوع كتـــاب اللّـــه وفحواه:«كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ:أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» ..

وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب في لغتهم التي نزل هما كتاب اللّه الكريم.

والإقرار بالرسالة أساس للتصديق بهذه القضايا التي جاءت الرسالة لتقريرها.وكل شك في أن هذا من عند اللّه،كفيل بتحطيم احترامها الملزم في عالم الضمير.والذين يظنون أها مـــن عند محمد – مهما أقروا بعظمة محمد – لا يمكن أن تنال من نفوسهم الاحترام الملزم،الذي يتحرجون معه أن يتفلتوا منها في الكبير أو الصغير ..إن الشعور بأن هذه العقيدة من عند اللّه هو الذي يطارد ضمائر العصاة حتى يثوبوا في النهاية إلى اللّه،وهو الذي يمسك بضمائر الطائعين،فلا تتلجلج ولا تتردد ولا تحيد.

كما أن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطا لما يريده اللّه من البشر.كي يتلقـــى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة للّه من مصدر واحد،هو هذا المصدر.وكي لا يقوم كـــل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولا،ويشرع للناس شرعا،ثم يزعم أنه شرع اللّه وأمـــره! بينما هو يفتريه من عند نفسه! وفي كل جاهلية كان يقوم من يشرع الشرائع،ومن يقـــرر القيم والتقاليد والعادات ..ثم يقول:هذا من عند اللّه!!!

وما يحسم هذه الفوضى وهذا الاحتيال على الناس باسم اللّه،إلا أن يكون هناك مصـــدر واحد – هو الرسول – لقول اللّه.

والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه،وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة.

والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب،والأخذ في مقابله في أعمال الطاعـــة.ولا توبة بغير هذين الدليلين،فهما الترجمة العملية للتوبة،وبهما يتحقق وجودها الفعلي،الـــذي ترجى معه المغفرة والقبول ..

فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل في الإسلام،بينما هو لا يدين للّـــه وحــــده،ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكذبه واقع الدينونة لغير اللّه ..

والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة،وقوام التبليغ.وهما عنصرا الترغيـــب والترهيب،اللذان علم اللّه من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق! والاعتقـــاد بـــاليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة،وأن الخير الـــذي تـــدعو إليـــه الرسالات هو غاية الحياة ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه فإن لم يلقه في هذه الحيـــاة الـــدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر،الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها.أمـــا الذين يزيغون عن نهج اللّه وحكمته في الحياة فهـــؤلاء يرتكســـون وينتكســـون إلى درك العذاب ..وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف.فإن غلبتها شهوة أو اســـتبد بهـــا ضعف عادت تائبة،ولم تلج في العصيان.ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر.

وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير.فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقـــا للثـــواب في الآخرة فحسب – كما يعتقد بعض الناس – إنما هـــو الحـــافز علـــى الخـــير في الحيـــاة الدنيا.والحافز على إصلاحها وإنمائها.على أن يراعى في هذا النماء أنـــه لـــيس هـــدفا في ذاته،إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ اللّه فيه من روحه،وكرمه على كثير من خلقه،ورفعه عن درك الحيوان لتكون أهداف حياته أعلى من ضرورات الحيـــوان ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته.

ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمـــة المفصـــلة،بعد توحيـــد الدينونة للّه،وإثبات الرسالة من عنده ..الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة ..وهمـــا بدء الطريق للعمل الصالح.والعمل الصالح ليس مجرد طيبة في النفس وشـــعائر مفروضـــة

تقام.إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح،من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج.والجزاء المشروط:«يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» ..

والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا.أما في الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر.فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة.

إننا نشاهد كثيرا من الطيبين الصالحين،المستغفرين التائبين،العاملين في الحياة ..مضيقا عليهم في الرزق.فأين إذن هو المتاع الحسن؟

وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على ألسنة الكثيرين! ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع،وننظر إليها في محيطها الشامل العام،ولا نقتصر منها على مظهر عابر.

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح،قائم على الإيمان باللّه،والدينونة له وحده،وإفراده بالربوبية والقوامة،وقائم على العمل الطيب المنتج في الحياة ..إلا كان لها التقدم والرخاء والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة وإلا ساد فيها العدل بين الجهد والجزاء والرضى والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة.فإذا شاهدنا في جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم في الرزق والمتاع الطيب،فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان باللّه،القائم على العدل بين الجهد والجزاء.

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين في هذه الجماعة يمتعون متاعا حسنا،حتى لو ضيق عليهم في الرزق،وحتى لو كانت الجماعة تطاردهم وتؤذيهم،كما كان المشركون يؤذون القلة المؤمنة،وكما تؤذي الجاهليات القلة الداعية إلى اللّه.وليس هذا خيالا وليس ادعاء.فطمأنينة القلب إلى العاقبة،والاتصال باللّه،والرجاء في نصره وفي إحسانه وفضله ..عوض عن كثير ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحس المادي الغليظ.

ولا نقول هذا لندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاء عادلا على جهدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة.فالإسلام لا يرضى بهذا،والإيمان لا يسكت على مثل تلك الأوضاع.والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد،ليتحقق المتاع الحسن للطيبين

العاملين المنتجين.إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون باللّه،المضـــيق علـــيهم في الرزق،وهم مع هذا يعملون ويجاهدون لتحقيق الأوضاع التي تكفل المتاع الحسن لعباد اللّه المستغفرين التائبين العاملين بهدى اللّه.

«وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» ..خصصها بعض المفسرين بجزاء الآخرة.وأرى أنها عامة في الدنيا والآخرة،على النحو الذي فسرنا به المتاع الحسن في الدنيا وهو متحقـــق في جميـــع الأحوال.وذو الفضل يلقى جزاءه في اللحظة التي يبذل فيها الفضل.يجده رضـــى نفســـيا وارتياحا شعوريا،واتصالا باللّه وهو يبذل الفضل عملا أو مالا متجها به إلى اللّه.

أما جزاء اللّه له بعد ذلك فهو فضل من اللّه وسماحة فوق الجزاء.[٢٣]



[٢٣] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٤ /١٨٥١]

الذين يشركون بالله هم الظالمون

إن الذين يشركون باللّه – سبحانه – وهم الظالمون – إنما يريدون الحياة كلها عوجا حين يعدلون عن استقامة الإسلام. وما تنتج الدينونة لغير اللّه – سبحانه – إلا العوج في كل جانب من جوانب النفس،وفي كل جانب من جوانب الحياة.

إن عبودية الناس لغير اللّه سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد اللّه أن يقيمها على الكرامة. وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد اللّه أن يقيمها على القسط والعدل. وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية والطبل حولها والزمر،والنفخ فيها دائما لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي. ولما كانت هذه الأرباب في ذاتها صغيرة هزيلة لا يمكن أن تملأ فراغ الرب الحقيقي،فإن عبادها المساكين يظلون في نصب دائب،وهمّ مقعد مقيم ينفخون فيها ليل نهار،ويسلطون عليها الأضواء والأنظار،ويضربون حولها بالدفوف والمزامير والترانيم والتسابيح،حتى يستحيل الجهد البشري كله من الإنتاج المثمر للحياة إلى هذا الكد البائس النكد وإلى هذا الهم المقعد المقيم .. فهل وراء ذلك عوج وهل وراء ذلك التواء؟! «أولئك» ..البعداء المبعدون الملعونون

فقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر :«ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ» ..

«أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»..وهي أفدح الخسارة،فالذي يخسر نفسه لا يفيد شيئا مما كسب غيرها وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها في الدنيا، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التي تتمثل في الارتفاع عن الدينونة لغير اللّه من العبيد. كما تتمثل في الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع – مع المتاع بها – إلى ما هو أرقى وأسمى.[٢٤].



[٢٤] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٤ /١٨٦٧]

إن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية اللّه وحده لهم والدينونة للّه وحده من دون العباد ..

كانت هي قضية الحاكمية والاتباع .. كانت هي قضية:من الرب الـذي يـدينون لـه ويتبعون أمره؟ يتجلى هذا في قول اللّه تعالى:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِـمْ وَعَصَـوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة أمر الرسل – لأنه أمر اللّه – ومعصية أمر الجبارين. وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفـر والإيمان .. في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير اللّه والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحريـة،واتباع الجبـارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .. لقد خلق اللّه الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه،ولا يترلون عـن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم. فهذا مناط تكريمهم.

فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند اللّه ولا نجاة. وما يمكن لجماعة من البشـر أن تـدعي الكرامة،وتدعي الإنسانية،وهي تدين لغير اللّه من عباده. والذين يقبلون الدينونة لربوبيـة العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين. فهم كثرة والمتجبرون قلة. ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال.

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد .. هلكوا مشيعين باللعنة في الـدنيا وفي الآخرة:«وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال:«أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» ..

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد. كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا:.. «أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ»!!!

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة،قبل أن ننتقل منها إلى قصة صالح. ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون .. ليس فقط في ماضيها التاريخي،ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان. وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة. وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان .. وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد ودليلها في الحركة في كل حين.

ولقد أشرنا إشارات سريعة إلى اللمسات القرآنية التي سنعيد الحديث عنها كلها تقريبا. ولكنها مرت في مجال تفسير النصوص القرآنية مرورا عابرا لمتابعة السياق. وهي تحتاج إلى وقفات أمامها أطول في حدود الإجمال :

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة .. دعوة توحيد العبادة والعبودية للّه،المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول:«قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

ولقد كنا دائما نفسر «العبادة» للّه وحده بأنها «الدينونة الشاملة» للّه وحده. في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي .. فإن «عبد» معناها:دان وخضع وذلل. وطريق معبد طريق مذلل ممهد. وعبّده جعله عبدا أي خاضعا مذللا .. و لم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عند ما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة للّه وحده في أمره كله وخلع الدينونة لغير اللّه من عنقه في كل أمره .. ولقد فسر رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - «العبادة» نصا بأنها هي

«الاتباع» وليست هي الشعائر التعبدية. وهو يقول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا:«بلى. إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال. فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم» .. إنما أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورة من صور الدينونة للّه في شأن من الشؤون .. صورة لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! فلما بهت مدلول «الدين» ومدلول «العبادة» في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير اللّه التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير اللّه،كتقديمها للأصنام والأوثان مثلا! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح «مسلما» لا يجوز تكفيره! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ...إلى آخر حقوق المسلم على المسلم! وهذا وهم باطل،وانحسار وانكماش،بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ «العبادة» التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه – وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة للّه في كل شأن ورفض الدينونة لغير اللّه في كل شأن. وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة والذي نص عليه رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – نصا وهو يفسر قول اللّه تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» .. وليس بعد تفسير رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – لمصطلح من المصطلحات قول لقائل [25]

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيرا في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا اللّه لكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي [26] ..

---

[25] – يراجع البحث القيم الذي كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان : «المصطلحات الأربعة في القرآن» .. «الإله. الرب. الدين. العبادة».

[26] – كتاب : «معالم في الطريق» وكتاب : «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» وكتاب : «هذا الدين» وكتاب : «المستقبل لهذا الدين» وكتاب : «الإسلام ومشكلات الحضارة» وكتاب : «العدالة الاجتماعية» وكتاب : «السلام العالمي والإسلام». نشر «دار الشروق».

فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

إنه لم يكن يعني:يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير اللّه! كما يتصور الـذين انحسر مدلول «العبادة» في مفهوماتهم،وانزوى داخل اطار الشعائر التعبدية! إنما كـان يعني الدينونة للّه وحده في منهج الحياة كلها ونبذ الدينونة والطاعة لأحد مـن الطواغيت في شؤون الحياة كلها .. والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنـة في الـدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير اللّه .. فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة اللّه وحده – أي الدينونة له وحده – إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي:جحـودهم بآيـات ربهم،وعصيان رسله. واتباع أمر الجبارين من عبيده:«وَتِلْـكَ عـادٌ جَحَـدُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ،وَعَصَوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».كما يقول عنهم أصدق القائلين اللّه رب العالمين ..

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل،واتباع الجبارين .. فهو أمر واحد لا أمور متعددة ..

ومتى عصى قوم أوامر اللّه المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغـير اللّـه. ودانوا للطواغيت بدلا من الدينونة للّه فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وخرجـوا بذلك من الإسلام إلى الشرك – وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بـدأت به حياة البشر على الأرض فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض. إنما كان الناس يخرجـون مـن الإسلام إلى الجاهلية،حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام .. وهكذا إلى يومنا هذا ..

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما اسـتحقت كـل هـذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بـذلها

الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد. وردهم إلى الدينونة للّه وحده في كل أمر وفي كل شأن وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

إن توحيد الألوهية،وتوحيد الربوبية،وتوحيد القوامة،وتوحيد الحاكمية،وتوحيد مصدر الشريعة،وتوحيد منهج الحياة،وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة ... إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل،وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن اللّه سبحانه في حاجة إليه،فاللّه سبحانه غني عن العالمين.

ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها[٢٧].

إن الأمر في هذا الدين – الإسلام – بل في دين اللّه كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ ..إن الأمر في دين اللّه كله هو:لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس؟

وعلى الإجابة عن هذا السؤال في صيغتيه هاتين،يترتب كل شيء في أمر هذا الدين.وكل شيء في أمر الناس أجمعين! لمن الألوهية؟ ولمن الربوبية؟

للّه وحده – بلا شريك من خلقه – فهو الإيمان إذن،وهو الإسلام،وهو الدين.لشركاء من خلقه معه،أو لشركاء من خلقه دونه،فهو الشرك إذن أو الكفر المبين.

فأما إن تكن الألوهية والربوبية للّه وحده،فهي الدينونة من العباد للّه وحده.وهي العبودية من الناس للّه وحده.وهي الطاعة من البشر للّه وحده،وهي الاتباع لمنهج اللّه وحده بلا شريك ..فاللّه وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم.واللّه وحده هو الذي يسن للناس شرائعهم.واللّه وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم ..وليس لغيره – أفرادا أو جماعات – شيء من هذا الحق إلا بالارتكان إلى

---

[٢٧] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٤ /١٩٠١]

شريعة اللّه.لأن هذا الحق هو مقتضى الألوهية والربوبية.ومظهرها البارز المحدد لخصائصها المميزة.

وأما إن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق اللّه – شركة مع اللّه أو أصالة من دونه! – فهي الدينونة من العباد لغير اللّه.وهي العبودية من الناس لغير اللّه.وهي الطاعة من البشر لغير اللّه.وذلك بالاتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين،التي يضعها ناس من البشر،لا يستندون في وضعها إلى كتاب اللّه وسلطانه إنما يستندون إلى أسناد أخرى،يستمدون منها السلطان ..ومن ثم فلا دين،ولا إيمان،ولا إسلام.

إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان ..هذا هو الأمر في جملته وفي حقيقته ..ومن ثم يستوي أن يكون الخروج على حدود اللّه في أمر واحد،أو في الشريعة كلها ..لأن الأمر الواحد هو الدين – على ذلك المعنى – والشريعة كلها هي الدين ..فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس ..أهي إخلاص الألوهية والربوبية للّه – بكل خصائصها – أو إشراك أحد من خلقه معه.أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض.مهما ادعوا لأنفسهم من الدخول في الدين! ومهما رددت ألسنتهم – دون واقعهم – أنهم مسلمون! هذه هي الحقيقة الكبيرة،التي يشير إليها هذا التعقيب،الذي يربط بين توزيع أنصبة من التركة على الورثة،وبين طاعة اللّه ورسوله،أو معصية اللّه ورسوله.وبين جنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونار خالدة وعذاب مهين! وهذه هي الحقيقة الكبيرة،التي تتكئ عليها نصوص كثيرة،في هذه السورة،وتعرضها عرضا صريحا حاسما،لا يقبل المماحكة،ولا يقبل التأويل.

وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتبينها الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام في هذه الأرض ليروا أين هم من هذا الإسلام،وأين حياتهم من هذا الدين! ثم لا بد كذلك من إضافة كلمة مجملة عن نظام الإرث في الإسلام بعد ما ذكرناه عن هذا النظام عند ما تعرضنا للآية التي تقرر المبدأ العام:«لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ» ..وما ذكرناه كذلك عن مبدأ:«لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» ..

إن هذا النظام في التوريث هو النظام العادل المتناسق مع الفطرة ابتداء ومع واقعيات الحياة العائلية والإنسانية في كل حال.يبدو هذا واضحا حين نوازنه بأي نظام آخر،عرفته البشرية في جاهليتها القديمة،أو جاهليتها الحديثة،في أية بقعة من بقاع الأرض على الإطلاق.

إنه نظام يراعي معنى التكافل العائلي كاملا،ويوزع الأنصبة على قدر واجب كل فرد في الأسرة في هذا التكافل.فعصبة الميت هم أولى من يرثه – بعد أصحاب الفروض كالوالد والوالدة – لأنهم هم كذلك أقرب من يتكفل به،ومن يؤدي عنه في الديات والمغارم.فهو نظام متناسق،ومتكامل.

وهو نظام يراعي أصل تكوين الأسرة البشرية من نفس واحدة.فلا يحرم امرأة ولا صغيرا لمجرد أنه امرأة أو صغير.لأنه مع رعايته للمصالح العملية – كما بينا في الفقرة الأولى – يرعى كذلك مبدأ الوحدة في النفس الواحدة.فلا يميز جنسا على جنس إلا بقدر أعبائه في التكافل العائلي والاجتماعي .

وهو نظام يراعي طبيعة الفطرة الحية بصفة عامة،وفطرة الإنسان بصفة خاصة.فيقدم الذرية في الإرث على الأصول وعلى بقية القرابة.لأن الجيل الناشئ هو أداة الامتداد وحفظ النوع.فهو أولى بالرعاية – من وجهة نظر الفطرة الحية – ومع هذا فلم يحرم الأصول،و لم يحرم بقية القرابات.بل جعل لكل نصيبه.

مع مراعاة منطق الفطرة الأصيل.

وهو نظام يتمشى مع طبيعة الفطرة كذلك في تلبية رغبة الكائن الحي – وبخاصة الإنسان – في أن لا تنقطع صلته بنسله،وأن يمتد في هذا النسل.ومن ثم هذا النظام الذي يلبي هذه الرغبة،ويطمئن الإنسان الذي بذل جهده في ادخار شيء من ثمرة عمله،إلى أن نسله لن يحرم من ثمرة هذا العمل،وأن جهده سيرثه أهله من بعده.مما يدعوه إلى مضاعفة الجهد،ومما يضمن للأمة النفع والفائدة – في مجموعها – من هذا الجهد المضاعف.مع عدم الإخلال بمبدأ التكافل الاجتماعي العام الصريح القوي في هذا النظام.

وأخيرا فهو نظام يضمن تفتيت الثروة المتجمعة،على رأس كل جيل،وإعادة توزيعها من جديد.فلا يدع مجالا لتضخم الثروة وتكدسها في أيد قليلة ثابتة – كما يقع في الأنظمة

التي تجعل الميراث لأكبر ولد ذكر،أو تحصره في طبقات قليلة – وهو من هذه الناحيـــة أداة متجددة الفاعلية في إعادة التنظيم الاقتصادي في الجماعة،ورده إلى الاعتدال،دون تـــدخل مباشر من السلطات ..هذا التدخل الذي لا تستريح إليه النفس البشرية بطبيعة ما ركـــب فيها من الحرص والشح.فأما هذا التفتيت المستمر والتوزيع المتجدد فيـــتم والـــنفس بـــه راضية،لأنه يماشي فطرتها وحرصها وشحها! وهذا هو الفارق الأصيل بين تشريع اللّه لهذه النفس وتشريع الناس!!! [٢٨]



[٢٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٩٢٠] ويراجع بتوسع فصل:«سياسة المال» في كتاب:العدالة الاجتماعية في الإسلام.«دار الشروق».

التفرقة بين العبادات والمعاملات تفرقة نظرية وليست عملية

إن إطلاق مصطلح «العبادات» على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل،في مقابل إطلاق مصطلح:«المعاملات» على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل .. إن هذا جاء متأخرا عن عصر نزول القرآن الكريم و لم يكن هذا التقسيم معروفا في العهد الأول.

ولقد كتبنا من قبل في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» شيئا عن تاريخ هذه المسألة نقتطف منه هذه الفقرات:

«إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عن التأليف في مادة «الفقه». ومع أنه كان المقصود به – في أول الأمر – مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي،إلا أنه – مع الأسف – أنشأ فيما بعد آثارا سيئة في التصور،تبعها – بعد فترة – آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط،الذي يتناوله «فقه العبادات». بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط،الذي يتناوله «فقه المعاملات»! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه. فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي.

«ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى «العبادة» أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة،أولا وأخيرا.

« وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم،ونظام الاقتصاد،والتشريعات الجنائية،والتشريعات المدنية،وتشريعات الأسرة. وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج.

«ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى «العبادة» في حياة الإنسان .. والنشاط الإنساني لا يكون متصفا بهذا الوصف،محققا لهذه الغاية – التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني – إلا حين يتم هذه النشاط وفق المنهج الرباني فيتم بذلك إفراد اللّه – سبحانه –

بالألوهية والاعتراف له وحده بالعبودية .. وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عــن العبودية. أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها اللّه. أي خروج عن دين اللّه!

«وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم «العبادات» وخصوها بهذه الصفة – على غير مفهوم التصور الإسلامي – حين تراجع في مواضعها في القرآن،تتبين حقيقة بــارزة لا يمكن إغفالها. وهي أنها لم تجيء مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلــق عليها الفقهاء اسم «المعاملات» .. إنمــا جــاءت هــذه وتلــك مرتبطــة في الســياق القرآني،ومرتبطة في المنهج التوجيهي. باعتبار هذه كتلك شطرا من منهج «العبادة» الــتي هي غاية الوجود الإنساني،وتحقيقا لمعنى العبودية،ومعنى إفراد اللّه – سبحانه – بالألوهية.

«إن ذلك التقسيم – مع مرور الزمن – جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» – وفق أحكام الإسلام – بينما هم يزاولــون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر .. لا يتلقونه من اللّه ولكن من إله آخر ..! هــو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به اللّه! «وهذا وهم كبير. فالإسلام وحدة لا تنفصم. وكل من يفصمه إلى شطرين – على هذا النحو – فإنما يخرج من هذه الوحدة،أو بتعبير آخر:يخرج من هذا الدين.

« وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إســلامه ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني»[٢٩].

فالآن نضيف إلى هذه الفقرات ما قلناه من قبل في هذا الجزء من أن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة لم يكن يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشــعائر التعبدية .. بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عند ما يخاطب به أن المطلوب منه هو «الدينونة» للّه وحده في أمــره كله،وخلع الدينونة لغير اللّه من عنقه في أمره كله. ولقد فسر رسول اللّه – صــلى اللّــه عليه وسلم – «العبادة» نصا بأنها «الاتباع» وليست هي الشعائر التعبديــة،وهو يقــول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى،واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا:«بلى. إنهم أحلوا

---

[٢٩] – ص ١٢٩ – ص ١٣٠ من كتاب : «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» نشر «دار الشروق»

لهم الحرام،وحرموا عليهم الحلال،فاتبعوهم،فذلك عبادهم إياهم» .. إنما أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورة من صور الدينونة للّه في شأن من الشؤون. صورة لا تستغرق مدلول العبادة،بل إنها تجيء بالتبعية لا بالإصالة! ..

«إن الواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة المؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد،وردهم إلى الدينونة للّه وحده في كل أمر وفي كل شأن،وفي منهج حياهم كله للدنيا وللآخرة سواء.

« إن توحيد الألوهية،وتوحيد الربوبية،وتوحيد القوامة،وتوحيد الحاكمية،وتوحيد مصدر الشريعة،وتوحيد منهج الحياة،وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة .. إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل،وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود،وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن اللّه سبحانه في حاجة إليه. فاللّه سبحانه غني عن العالمين. ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح لائقة بالإنسان،إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء» ..

وقد وعدنا هناك أن نزيد هذا الأمر بيانا في هذا التعقيب الختامي الأخير.

فالآن نبين إجمالا قيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء:

ننظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد – على هذا النحو الشامل – في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي،وحاجته الفطرية،وتركيبه الإنساني .. أثرها في تصوره .. وأثر هذا التصور في كيانه:

«إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل – بكل معاني الشمول – يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها،وبكل أشواقها،وبكل حاجاها،وبكل اتجاهاها،ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها،جهة تطلب عندها كل شيء، وتتوجه إليها

بكل شيء. جهة واحدة ترجوها وتخشاها،وتتقي غضبها وتبتغي رضاها جهة واحدة تملك لها كل شيء، لأنها خالقة كل شيء، ومالكة كل شيء، ومدبرة كل شيء.

«كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد،تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها،وقيمهـا وموازينها،وشرائعها وقوانينها. وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجـه الكون والحياة والإنسان،بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام.

« عندئذ تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعورا وسلوكا،وتصورا واسـتجابة. في شـأن العقيدة والمنهج.

وشأن الاستمداد والتلقي. وشأن الحياة والموت. وشأن السعي والحركة. وشأن الصـحة والرزق. وشأن الدنيا والآخرة. فلا تتفرق مزقا ولا تتجه إلى شتى السـبل والآفـاق ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق! «والكينونة الإنسانية حـين تتجمـع علـى هـذا النحو،تصبح في خير حالاتها. لأنها تكون حينئذ في حالة «الوحدة» التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها .. فالوحدة هي حقيقة الخالق – سبحانه – والوحدة هي حقيقـة هـذا الكون – على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال – والوحدة هي حقيقة الحياة والأحيـاء – على تنوع الأنواع والأجناس – والوحدة هي حقيقة الإنسان – على تنـوع الأفـراد والاستعدادات – والوحدة هي غاية الوجود الإنساني – وهي العبادة – على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها – وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود ..

«وحين تكون الكينونة الإنسانية في الوضع الذي يطابق «الحقيقة» في كل مجالاتهـا،تكون في أوج قوتها الذاتية وفي أوج تناسقها – كذلك – مع «حقيقة» هذا الكون الذي تعيش فيه،وتتعامل معه ومع «حقيقة» كل شيء في هذا الوجود،مما تتأثر به وتؤثر فيه .. وهـذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار،وأن تؤدي أعظم الأدوار.

«وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل،صنع اللّه بها في الأرض أدوارا عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني،وفي كيان التاريخ الإنساني ..

«وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى – وهي لا بد كائنة بإذن اللّه – سيصنع اللّه بها الكثير،مهما يكن في طريقها من العراقيل. ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشىء قوة لا تقاوم لأنها من صميم قوة هذا الكون وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضا.

«... إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني. وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله – بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة،وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق. فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة للّه وحين يصبح كل نشاط فيها – صغر أم كبر – جزءا من هذه العبادة أو كل العبادة،متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه. وهو إفراد اللّه – سبحانه – بالألوهية والإقرار له وحده بالعبودية .. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه. وهو المقام الذي بلغه رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها. مقام تلقي الوحي من اللّه. ومقام الإسراء أيضا:«تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» ... (الفرقان:١).

«سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ. لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا،إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» ... (الإسراء:١) [٣٠]

وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة بمعنى الدينونة للّه وحده وآثارها في الحياة الإنسانية:

إن الدينونة للّه تحرر البشر من الدينونة لغيره وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده. وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية،هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر – غير النظام الإسلامي – يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية،في صورة من صورها الكثيرة ...سواء عبودية الاعتقاد،أو عبودية

---

[٣٠] – عن كتاب : «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». فصل : «الشمول» ص ١٢٦ – ص ١٣١ مقتطفات. نشر «دار الشروق».

الشعائر،أو عبودية الشرائع .. فكلها عبودية وبعضها مثل بعض تخضع الرقاب لغير اللّــه بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير اللّه.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين! لا بد للناس من دينونة. والذين لا يدينون للّــه وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير اللّه في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط. ومن ثم يفقــدون خاصــتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة :«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُــونَ وَيَــأْكُلُونَ كَمــا تَأْكُــلُ الْأَنْعامُ،وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» ... (محمد:١٢)

ولا يخسر الإنسان شيئا كأن يخسر آدميته،ويندرج في عالم البهيمة،وهذا هو الــذي يقــع حتما بمجرد التملص من الدينونة للّه وحده،والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة.ثم هــم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد .. يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم،لا ضابط لها ولا هدف إلا حمايــة مصــالح المشرعين أنفسهم – سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم،أو في طبقة حاكمــة،أو في جنس حاكم – فالنظرة على المستوي الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كــل حكم بشري لا يستمد من اللّه وحده،ولا يتقيد بشريعة اللّه لا يتعداها ..

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين .. فهــذه هي الصورة الصارخة،ولكنها ليست هي كل شيء! ..

إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة! ونضرب مثالا لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلا! أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جدا من البشر؟ .. كل الذين يسمونهم متحضرين ..!

إن الزي المفروض من آلهة الأزياء – سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المنــاظر أو الحفلات ... إلخ .. ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي ولا لجاهلية أن يفلت منــها أو يفكر في الخروج عنها! ولو دان الناس – في هذه الجاهلية «الحضارية!» للّه ببعــض مــا يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عبادا متبتلين! .. فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضــا؟!

وإن الإنسان ليبصر أحيانا بالمرأة المسكينة،وهي تلبس ما يكشف عـــن ســـوآتها،وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها،وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثـــارا للسخرية! ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها ردا،ولا تقوى على رفض الدينونة لها،لأن المجتمع كله من حولها يـــدين لهـــا. فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هي هذه؟ وكيف تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكـــن هي تلك؟! وليس هذا إلا مثلا واحدا للعبودية المذلة حين لا يدين الناس للّه وحده وحين يدينون لغيره من العبيد.

وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريهة المذلة لحاكميـــة البشـــر للبشر،ولعبودية البشر للبشر! وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونـــة في صـــيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم،التي تصبح كلها ولا عاصم لها عند مـــا يـــدين العبـــاد للعباد،في صورة من صور الدينونة .. سواء في صورة حاكميـــة التشـــريع،أو في صـــورة حاكمية الأعراف والتقاليد،أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور ..

إن الدينونة لغير اللّه في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهـــام والأســـاطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورا منها وتمثـــل أوهـــام العوام المختلفة صورا منها وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأمـــوال – وأحيانـــا مـــن الأولاد! – تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة،ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأربـــاب! ومـــن الســـحرة المتصلين بالجن والعفاريت! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار! ومن .. ومـــن .. من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء،حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم،وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء! وقد مثلنا لتكاليف الدينونـــة لغير اللّه في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات! فينبغي أن نعلم كم من الأمـــوال والجهود تضيع – إلى جانب الأعراض والأخلاق – في سبيل هذه الأرباب! إن البيـــت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعطور والأصباغ وعلى تصفيف الشعر وكيه وعلـــى الأقمشة التي تصنع منها الأزياء المتقلبة عاما بعد عام،وما يتبعها مـــن الأحذيـــة المناســـبة

والحلي المتناسقة مع الزي والشعر والحذاء! ... إلى آخر ما تقضي به تلك الأرباب النكدة .. إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده لملاحقة أهـــواء تلـــك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال. ومن ورائها اليهود أصـــحاب رؤوس الأمـــوال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب! ولا يملك الرجل ولا المرأة وهما في هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضـــيحات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء! وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية ..

وما من أضحية يقدمها عابد اللّه للّه،إلا ويقدم الذين يدينون لغير اللّه أضعافها للأربـــاب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض ..

وتقام أصنام من «الوطن» ومن «القوم» ومن «الجنس» ومن «الطبقة» ومن «الإنتـــاج» ... ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب ..وتدق عليها الطبول وتنصب لهـــا الرايـــات ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد. وإلا فالتردد هو الخيانة،وهو العار .. وحتى حين يتعارض العرض. مع متطلبات هذه الأصنام،فإن العرض هـــو الـــذي يضحى ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام،ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام! إن كل التضحيات التي يقتضـــيها الجهاد في سبيل اللّه ليعبد اللّه وحده في الأرض وليتحرر البشر مـــن عبـــادة الطواغيـــت والأصنام،ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده اللّه للإنسان .. إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل اللّه ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغـــير اللّـــه! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأمـــوال إذا هـــم جاهدوا في سبيل اللّه،عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير اللّه في الأنفس والأموال والأولاد،وفوقها الأخلاق والأعراض .. إن تكاليف الجهاد في سبيل اللّه في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير اللّه وفوق ذلك كله الـــذل والـــدنس والعار! وأخيرا فإن توحيد العبادة والدينونة للّه وحده،ورفض العبادة والدينونة لغيره مـــن

خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة. كـي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض،وترقيتها،وترقية الحياة فيها.

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء .. وهي أنه كلما قـام عبد من عبيد اللّه،ليقيم من نفسه طاغوتا يعبّد الناس لشخصه من دون اللّه .. احتاج هذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقـات أولا لحمايـة شخصه. وثانيا لتأليه ذاته. واحتاج إلى حواش وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده،وترتل ذكره،وتنفخ في صورته «العبدية» الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان «الألوهية» العظيمة! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة! وإطلاق الترانيم والتراتيـل حولها. وحشد الجموع – بشتى الوسائل – للتسبيح باسمها،وإقامة طقوس العبادة لها ...!

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا. لأن الصورة العبدية الهزيلة مـا تـني تـنكمش وتهـزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل. ومـا تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد! وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال – وأرواح أحيانا وأعراض! – لو أنفق بعضها في عمارة الأرض،والإنتاج المثمر،لترقية الحياة البشرية وإغنائها،لعاد على البشرية بالخير الوفير .. ولكن هذه الطاقات والأموال – والأرواح أحيانا والأعراض – لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون للّه وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتـاج من جراء تنكبها عن الدينونة للّه وحده وعبادة غيره من دونه .. وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض،والقيم والأخلاق. وفوق الذل والقهر والدنس والعار! وليس هـذا في نظام أرضي دون نظام،وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات.

« ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة للّه وحده،فأتاحوا لنفر منهم أن يحكمـوهم بغير شريعته،قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره. العبودية التي تأكـل إنسـانيتهم وكرامتهم وحريتهم،مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم،والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة.

«لقد هربت أوربا من اللّه – في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف [31]– وثارت على اللّه – سبحانه – في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم – ومصالحهم كذلك – في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية،والأوضاع النيابية البرلمانية،والحريات الصحفية،والضمانات القضائية والتشريعية،وحكم الأغلبية المنتخبة ... إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة .. ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان «الرأسمالية» ذلك الطغيان الذي أحال كل تلكالضمانات،وكل تلك التشكيلات،إلى مجرد لافتات،أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال،فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم،في معزل عن اللّه سبحانه!!! «ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها «رأس المال» و«الطبقة» إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة «الرأسماليين» الدينونة لطبقة «الصعاليك»! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين! «وفي كل حالة،وفي كل وضع،وفي كل نظام،دان البشر فيه للبشر،دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة. دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال.

«إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن للّه وحده تكن لغير اللّه .. والعبودية للّه وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء .. والعبودية لغير اللّه تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم. ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

«من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات اللّه – سبحانه – وفي كتبه ..وهذه السورة نموذج من تلك العناية .. فهي قضية لا تتعلق بعبدة

---

[31] – يراجع فصل : «الفصام النكد» في كتاب : «المستقبل لهذا الدين». نشر «دار الشروق».

الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة. ولكنها تتعلق بالإنسان كله،في كل زمان وفي كل مكان وتتعلق بالجاهليات كلها .. جاهليات ما قبل التاريخ،وجاهليات التـاريخ. وجاهلية القرن العشرين. وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد».

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية:أنه يتجلى بوضوح من التقريرات القرآنية بجملتها – وهذه السورة نموذج منها – أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية – التي يعـبر عنها في هذه السورة بالعبادة – هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام وليست قضـية فقـه أو سياسة أو نظام! إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم. وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد. وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق ..

ثم هي بعد – بعد ذلك لا قبله – قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شـريعة ونظـام وأحكام وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام. وتنفذ فيها الأحكام.

وكذلك فإن قضية «العبادة» ليست قضية شعائر وإنما هي قضية دينونة واتبـاع ونظـام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة .. وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين .. واسـتحقت كـل هـذه الرسـل والرسالات. واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات.

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية:

إنَّ الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم عليه السـلام أبي البشـر الأول،ثم على يدي نوح – عليه السلام – أبي البشر الثاني .. ثم بعد ذلك على يدي كـل رسول .. وأن الإسلام يعني توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر،وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضـوع:أي توحيـد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع.

ثم بينا كذلك أن الجاهلية – سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع – أو هما معا – كانت تطرؤ على البشـرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل – عليهم صلوات اللّه وسلامه – وكانـت تفسـد

عقائدهم وتصوراهم،كما تفسد حياهم وأوضاعهم بالدينونة لغير اللّه – سبحانه – سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب،أو روح أو أرواح شتى أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر:كاهن أم ساحر أم حـــاكم .. فكلـــها ســـواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك،والخروج من الإسلام إلى الجاهلية.

ومن هذا التتابع التاريخي – الذي يقصه اللّه سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه ..

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية،ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم – وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعـــون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ – ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح! – وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأســا في إحـــدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أخناتون مـــثلا في الديانـــة المصـــرية القديمة فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد – ولو على سبيل الاحتمال – وقد جـــاء أخناتون في مصر بعد عهد يوسف – عليه السلام – وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم – حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف –:« إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَـــوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ،مـــا كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ. يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ؟ ما تَعْبُـــدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْـــمُ إِلَّـــا لِلَّهِ،أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ... (يوسف:٣٧ – ٤٠)

وهم إنما يفعلون ذلك،لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنـــهج الديني،بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمي في كل صوره في فتـــرة مـــن

فترات التاريخ. فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها،للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها. ومن أجل هذا جاء منهجا منحرفا منذ البدء،لأنه يتعمد الوصول سلفا إلى نتائج معينة،قبل البدء في البحث! وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر في طريقه. لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه،والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس،حتى صارت من أصول المنهج!

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه. هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع ..

على أنه أيا كان المنهج وأيا كانت النتائج التي يصل إليها فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم .. وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول اللّه سبحانه في مسألة من المسائل فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه «مسلم» أن يأخذ بتلك النتائج.

ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية،وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري،وسبق التوحيد للتعدد والتثنية .. قاطعة،وغير قابلة للتأويل. فهي مما يقال عنه:إنه معلوم من الدين بالضرورة.

وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر،أن يختار بين قول اللّه سبحانه وقول علماء الأديان.أو بتعبير آخر:أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام! لأن قول اللّه في هذه القضية منطوق وصريح،وليس ضمنيا ولا مفهوما! وعلى أية حال فإن هذا ليس موضوعنا الذي نستهدفه في هذا التعقيب الأخير .. إنما نستهدف هنا رؤية الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري والإسلام والجاهلية يتعاوران البشرية والشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين لهذا المخلوق المزدوج الطبيعة والاتجاه،ويجتال الناس عن الإسلام بعد أن يعرفوه،إلى الجاهلية فإذا بلغت هذه الجاهلية مداها بعث اللّه للناس رسولا يردهم إلى الإسلام. ويخرجهم من الجاهلية. وأول ما يخرجهم منه هو

الدينونة لغير اللّه سبحانه من الأرباب المتفرقة .. وأول ما يردهم إليه هو الدينونـــة للّـــه وحده في أمرهم كله،لا في الشعائر التعبدية وحدها،ولا في الاعتقاد القلبي وحده.

إن هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم،وفي تحديد طبيعة الـــدعوة الإســـلامية كذلك ..

إن البشرية اليوم – بجملتها – تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منـــها آخـــر رسول – محمد صلى اللّه عليه وسلم – وهي جاهلية تتمثل في صور شتى:

بعضها يتمثل في إلحاد باللّـــه ســـبحانه،وإنكار لوجـــوده .. فهـــي جاهليـــة اعتقـــاد وتصور،كجاهلية الشيوعيين.

وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود اللّه سبحانه،وانحراف في الشـــعائر التعبديـــة وفي الدينونة والاتباع والطاعة،كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهـــم .. وكجاهليـــة اليهـــود والنصارى كذلك.وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود اللّه سبحانه،وأداء للشـــعائر التعبدية. مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه. ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة.وذلك كجاهلية مـــن يســـمون أنفســـهم «مسلمين» ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقـــه – بمجـــرد نطقهـــم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومـــع استســـلامهم ودينونتهم لغير اللّه من العبيد! وكلها جاهلية. وكلها كفر باللّه كالأولين. أو شرك باللّـــه كالآخرين [٣٢] ..

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح تؤكد لنا أن البشرية اليـــوم بجملتـــها قـــد ارتدت إلى جاهلية شاملة،وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإســـلام مرات متعددة،كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد صلى اللّه عليه وســـلم .. وهـــذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي،والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة.

[٣٢] – يراجع فصل : «لا إله إلا اللّه منهج حياة» في كتاب : «معالم في الطريق» نشر «دار الشروق»

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرى،والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها. على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي:وهو الاعتقاد بألوهية اللّه وحده،وتقديم الشعائر التعبدية للّه وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها للّه وحده .. وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك. وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعا،يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية،ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعا ..

إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام. فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذي يواجه الجاهلية،ليرد الناس إلى اللّه مرة أخرى،ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ..ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوي من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية .. فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي - وهي تحسبه مجتمعا مسلما - وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية،بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا،لا من حيث تزعم! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع .. بعيدة جدا ..[٣٣]



[٣٣] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٤ /١٩٣٧]

وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعا

إنَّ قصة يوسف عليه السلام تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعا واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة وقيامها على التوحيد الكامل للّه سبحانه،وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده،ودينونة البشر له وحده ..

كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة.وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه «علم الأديان المقارن» من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيرا جدا،بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة وأنها ترقت في معرفة العقيدة كما ترقت في معرفة العلوم والصناعات ..هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات[٣٤].

كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعا ..إنه ليس توحيد الألوهية فحسب.ولكنه كذلك توحيد الربوبية ..وتقرير أن الحكم للّه وحده في أمر الناس كله وأن هذا التقرير ناشيء من أمر اللّه سبحانه بألا يعبد إلا إياه.والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول «العبادة» تحديدا دقيقا.

فهي الحكم من جانب اللّه والدينونة من جانب البشر ..وهذا وحده هو «الدين القيم» فلا دين إذن للّه ما لم تكن دينونة الناس للّه وحده،وما لم يكن الحكم للّه وحده.ولا عبادة للّه إذن إذا دان الناس لغير اللّه في شأن واحد من شؤون الحياة.فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية.والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم للّه ..أو أن تكون العبادة للّه ..فهما مترادفان أو متلازمان.والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم اللّه دون سواه ..

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان مسلمين أو غير مسلمين،في الدين القيم أم في غير هذا الدين ..فهذا الاعتبار

---

[٣٤] - يراجع ما سبق تقريره عن هذه القضية في هذا الجزء ص ١٨٧٨ - ١٨٨٢.

يعد من المعلوم من الدين بالضرورة ..من دان لغير اللّه وحكّم في أي أمر من أمور حياته غير اللّه،فليس من المسلمين وليس في هذا الدين،ومن أفرد اللّه سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفي هذا الدين ..وكل ما وراء ذلك تمحّل لا يحاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون! ودين اللّه واضح.وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة.من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين![٣٥]



٣٥ – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٩٩]

هناك الشرك الواضح الظاهر،وهو الدينونة لغير اللّه في شأن من شؤون الحياة. الدينونة في شرع يتحاكم إليه – وهو نص في الشرك لا يجادل عليه – والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس و لم يشرعها اللّه. والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر اللّه به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة اللّه أن تستر ..

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعا ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد،وتركا للأمر الواضح الصادر من رب العبيد .. إنه عندئذ لا يكون ذنبا،ولكنه يكون شركا. لأنه يدل على الدينونة لغير اللّه فيما يخالف أمر اللّه .. وهو من هذه الناحية أمر خطير ..[٣٦]

أما الجيل الذي تربَّى في مدرسة القرآن الكريم ،فقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر،وحذيفة بن محصن،والمغيرة بن شعبة،جميعا لرستم قائد جيش الفرس في القادسية،وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية،قبل المعركة:ثم بعث إليه سعد رضي الله عنه رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر،فدخل عليه وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة،والزَّرابي الحرير،وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة،وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة،وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة،و لم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط،ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد،وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له:ضع سلاحك فقال:إني لم آتِكم وإنّم جئتكم حين دعوتموني،فإنما تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم:إئذنوا له،فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها،فقالوا له:ما جاء بكم؟ فقال:الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله،ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها،ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام،فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه،ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله،قالوا:وما

---

[٣٦] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع [٤ /٢٠٣٣]

موعودُ الله؟ قال:الجنة لمن مات على قتال من أبى،والظفر لمن بقي. فقال رستم:لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قـال:نعم،كـم أحـبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين،قال:لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال:ما سنَّ لنـا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث،فانظر في أمرك وأمرهم،واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال:

أسيِّدهم أنت؟ قال:لا،ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال:هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا:معاذ الله أن تميل إِلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال:ويلَكـم لا تنظروا إلى الثياب،وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة،إن العـرب يسـتخفُّون بالثيـاب والمأكل ويصونون الأحساب...[٣٧]



[٣٧] – – البداية والنهاية لابن كثير – موافقة للمطبوع [٧ /٤٦]

قال تعالى: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)} [آل عمران: ٢٦، ٢٧]..

نداء خاشع ..في تركيبه اللفظي إيقاع الدعاء.وفي ظلاله المعنوية روح الابتهال.وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر في رفق وإيناس.وفي جمعه بين تدبير اللّه وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة:حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفا من شأن الكون الكبير الذي يصرفه اللّه وأن الدينونة للّه وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف! «قُلِ:اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ.تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ.وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ» ..

إنها الحقيقة الناشئة من حقيقة الألوهية الواحدة ..إله واحد فهو المالك الواحد ..هو «مال الملك» بلا شريك ..ثم هو من جانبه يملك من يشاء ما يشاء من ملكه.يملكه إياه تمليك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عند ما يشاء.فليس لأحد ملكية أصيلة يتصرف فيها على هواه.إنما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي وتعليماته فإذا تصرف المستعير فيها تصرفا مخالفا لشرط المالك وقع هذا التصرف باطلا.وتحتم على المؤمنين رده في الدنيا.أما في الآخرة فهو محاسب على باطله ومخالفته لشرط المملك صاحب الملك الأصيل ..

وكذلك هو يعز من يشاء ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه،وبلا مجير عليه،وبلا راد لقضائه،فهو صاحب الأمر كله بما أنه – سبحانه – هو اللّه ..وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون اللّه.

وفي قوامة اللّه هذه الخير كل الخير ..فهو يتولاها سبحانه بالقسط والعدل.يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بالقسط والعدل.ويعز من يشاء ويذل مـــن يشـــاء بالقســـط والعدل.فهو الخير الحقيقي في جميع الحالات وهي المشيئة المطلقة والقدرة المطلقـــة علـــى تحقيق هذا الخير في كل حال:«بِيَدِكَ الْخَيْرُ» ..«إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..

وهذه القوامة على شؤون البشر،وهذا التدبير لأمرهم بالخير،ليس إلا طرفا مـــن القوامـــة الكبرى على شؤون الكون والحياة على الإطلاق:«تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِســـابٍ» ..

والتعبير التصويري لهذه الحقيقة الكبيرة،يملأ بها القلب والمشاعر والبصر والحـــواس:هـــذه الحركة الخفية المتداخلة.حركة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وإخراج الحـــي من الميت وإخراج الميت من الحي ..الحركة التي تدل على يد اللّه بلا شبهة ولا جدال،متى ألقى القلب إليها انتباهه،واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق.

وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول ..أو كان هو دخول هذا في هذا عنـــد دبيـــب الظلمـــة ودبيب الضياء في الأمساء والأصباح ..سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يـــد اللّه وهي تحرك الأفلاك،وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة،وتقلب مواضـــع الظلمة ومواضع الضياء ..شيئا فشيئا يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار.وشيئا فشـــيئا يتنفس الصبح في غيابة الظلام ..شيئا فشيئا يطول الليل وهو يأكل من النـــهار في مقـــدم الشتاء.وشيئا فشيئا يطول النهار وهو يسحب من الليل في مقدم الصيف ..وهذه أو تلك حركة لا يدعي الإنسان أنه هو الذي يمسك بخيوطها الخفية الدقيقة ولا يـــدعي كـــذلك عاقل أنها تمضي هكذا مصادفة بلا تدبير!

كذلك الحياة والموت،يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج.كل لحظة تمر علـــى الحـــي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة،ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب،وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل.وما ذهب منه ميتا يعـــود في دورة أخـــرى إلى

الحياة.وما نشأ فيه حيا يعود في دورة أخرى إلى الموت ..هذا في كيان الحي الواحـــد ..ثم تتسع الدائرة فيموت الحي كله،ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل في تركيب آخر ثم تدخل في جسم حي فتدب فيها الحياة ..وهكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ..ولا يدعي الإنسان أنه هو الذي يصنع من هذا كله شيئا.ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير! حركة في كيان الكون كلـــه وفي كيـــان كـــل حـــي كذلك.حركة خفية عميقة لطيفة هائلة.تبرزها هذه الإشارة القرآنيـــة القصـــيرة للقلـــب البشري والعقل البشري وهي تشي بيد القادر المبدع اللطيف المدبر ..فأنى يحاول البشر أن ينعزلوا بتدبير شأنهم عن اللطيف المدبر؟ وأنّى يختارون لأنفسهم أنظمة من صنع أهـــوائهم وهم قطاع من هذا الكون الذي ينظمه الحكيم الخـــبير؟ ثم أنى يتخـــذ بعضـــهم بعضـــا عبيدا،ويتخذ بعضهم بعضا أربابا،ورزق الجميع بيد اللّه وكلهم عليه عيال:«وَتَرْزُقُ مَـــنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» ..

إنها اللمسة التي ترد القلب البشري إلى الحقيقة الكبرى.حقيقة الألوهية الواحـــدة.حقيقـــة القوامة الواحدة.

وحقيقة الفاعلية الواحدة وحقيقة التدبير الواحد.وحقيقة المالكية الواحدة وحقيقة العطـــاء الواحد.ثم حقيقة أن الدينونة لا تكون إلا للّـــه القيوم،مالـــك الملـــك،المعز المـــذل،المحيي المميت،المانح المانع،المدبر لأمر الكون والناس بالقسط والخير على كل حال[٣٨].



[٣٨] -في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٦٤٥]

لقد جاءت هذه العناية مبكرة:فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة في المدينة،وسلطة تقوم على شريعة اللّه،وتتولاها بالتنفيذ.

فقد ورد النهي عن الزنا في سورة الإسراء المكية:«وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا» كما ورد في سورة المؤمنون:«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ» ...«وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ.إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» ..وكرر هذا القول في سورة المعارج.

ولكن الإسلام لم تكن له في مكة دولة،ولم تكن له فيها سلطة فلم يسن العقوبات لهذه الجريمة التي نهى عنها في مكة،إلا حين استقامت له الدولة والسلطة في المدينة،ولم يعتبر النواهي والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة،وصيانة المجتمع من التلوث.لأن الإسلام دين واقعي،يدرك أن النواهي والتوجيهات وحدها لا تكفي،ويدرك أن الدين لا يقوم بدون دولة وبدون سلطة.وأن الدين هو المنهج أو النظام الذي تقوم عليه حياة الناس العملية،وليس مجرد مشاعر وجدانية تعيش في الضمير.بلا سلطة وبلا تشريع،وبلا منهج محدد،ودستور معلوم! ومنذ أن استقرت العقيدة الإسلامية في بعض القلوب في مكة،أخذت هذه العقيدة تكافح الجاهلية في هذه القلوب،وتطهرها وتزكيها.فلما أن أصبحت للإسلام دولة في المدينة،وسلطة تقوم على شريعة معلومة.

وتحقق في الأرض منهج اللّه في صورة محددة،أخذ يزاول سلطته في صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب - إلى جانب التوجيه والموعظة - فالإسلام كما قلنا ليس مجرد اعتقاد وجداني في الضمير،إنما هو - إلى جانب ذلك - سلطان ينفذ في واقع الحياة ذلك الاعتقاد الوجداني،ولا يقوم أبدا على ساق واحدة.

وكذلك كان كل دين جاء من عند اللّه.على عكس ما رسخ خطأ في بعض الأذهان من أن هناك أديانا سماوية جاءت بغير شريعة،وبغير نظام،وبغير سلطان ..كلا! فالدين منهج للحياة.منهج واقعي عملي.

يدين الناس فيه للّه وحده،ويتلقون فيه من اللّه وحده.يتلقون التصور الاعتقـادي والقـيم الأخلاقية،كما يتلقون الشرائع التي تنظم حياتهم العملية.وتقوم على هذه الشرائع سـلطة تنفذها بقوة السلطان في حياة الناس،وتؤدب الخارجين عليها وتعاقبهم،وتحمي المجتمع من رجس الجاهلية.لتكون الدينونة للّه وحده،ويكون الدين كله للّه.أي لا تكون هناك آلهـة غيره – في صورة من الصور – آلهة تشرع للناس،وتضع لهم القـيم والموازين،والشـرائع والأنظمة.فالإله هو الذي يصنع هذا كله.وأيما مخلوق ادعى لنفسه الحق في شيء من هـذا فقد ادعى لنفسه الألوهية على الناس ..وما من دين من عند اللّه يسمح لبشر أن يكـون إلها،وأن يدعي لنفسه هذه الدعوى،ويباشرها ..ومن ثم فإنه ما من دين من عند اللّه يجيء اعتقادا وجدانيا صرفا،بلا شريعة عملية،وبلا سلطان ينفذ به هذه الشريعة!

وهكذا أخذ الإسلام في المدينة يزاول وجوده الحقيقي بتطهير المجتمع عن طريق التشـريع والتنفيذ،والعقوبة والتأديب.على نحو ما رأينا في هذه الأحكـام الـتي تضـمنتها هـذه السورة،والتي عدلت فيما بعد،ثم استقرت على ذلك التعديل.كما أرادها اللّه.

ولا عجب في هذه العناية الظاهرة بتطهير المجتمع من هذه الفاحشة والتشـدد الظـاهر في مكافحتها بكل وسيلة.فالسمة الأولى للجاهلية – في كل زمان – كما نرى في جاهليتنـا الحاضرة التي تعم وجه الأرض – هي الفوضى الجنسية،والانطلاق البهيمي،بلا ضابط من خلق أو قانون.واعتبار هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهرا من مظـاهر «الحريـة الشخصية» لا يقف في وجهها إلا متعنت! ولا يخرج عليها إلا متزمت! ولقـد يتسـامح الجاهليون في حرياتهم «الإنسانية» كلها،ولا يتسامحون في حريتهم «البهيمية» هذه! وقـد يتنازلون عن حرياتهم تلك كلها،ولكنهم يهبون في وجه من يريد أن ينظم لهم حريتـهم البهيمية ويطهرها! وفي المجتمعات الجاهلية تتعاون جميع الأجهزة على تحطـيم الحـواجز الأخلاقية،وعلى إفساد الضوابط الفطرية في النفس الإنسـانية،وعلى تـزيين الشـهوات البهيمية ووضع العناوين البريئة لها،وعلى إهاجة السعار الجنسي بشتى الوسـائل،ودفعه إلى الإفضاء العملي بلا ضابط،وعلى توهين ضـوابط الأسـرة ورقابتها،وضـوابط المجتمـع ورقابته،وعلى ترذيل المشاعر الفطرية السليمة التي تشمئز من الشـهوات العاريـة،وعلى

تمجيد هذه الشهوات وتمجيد العري العاطفي والجسدي والتعبيري! كل هذا مـــن سمـــات الجاهلية الهابطة التي جاء الإسلام ليطهر المشاعر البشرية والمجتمعات البشرية منها.
وهي هي بعينها سمة كل جاهلية ..والذي يراجع أشعار امرئ القيس في جاهلية العـــرب يجد لها نظائر في أشعار الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية ..كما يجد لهـــا نظـــائر في الآداب والفنون المعاصرة في جاهلية العرب والجاهليات الأخرى المعاصرة أيضا! كمـــا أن الذي يراجع تقاليد المجتمع،وتبذل المرأة،ومجون العشاق،وفوضـــى الاخـــتلاط في جميـــع الجاهليات قديمها وحديثها يجد بينها كلها شبها ورابطة،ويجدها تنبـــع مـــن تصـــورات واحدة،وتتخذ لها شعارات متقاربة!

ومع أن هذا الانطلاق البهيمي ينتهي دائما بتدمير الحضارة وتدمير الأمة التي يشيع فيها – كما وقع في الحضارة الإغريقية،والحضارة الرومانية،والحضارة الفارسية قديما – وكما يقع اليوم في الحضارة الأوربية وفي الحضارة الأمريكية كذلك،وقد أخذت تتهاوى على الرغم من جميع مظاهر التقدم الساحق في الحضارة الصناعية.الأمر الذي يفزع العقلاء هناك.وإن كانوا يشعرون – كما يبدو من أقوالهم – بأنهم أعجز من الوقوف في وجه التيار المدمر[٣٩]! مع أن هذه هي العاقبة،فإن الجاهليين – في كل زمان وفي كـــل مكـــان – ينـــدفعون إلى الهاوية،ويقبلون أن يفقدوا حرياتهم «الإنسانية» كلها أحيانا،ولا يقبلون أن يقف حـــاجز واحد في طريق حريتهم «البهيمية».ويرضون أن يستعبدوا استعباد العبيد،ولا يفقدوا حق الانطلاق الحيواني! وهو ليس انطلاقا،وليس حرية.إنما هـــي العبوديـــة للميـــل الحيـــواني والانتكاس إلى عالم البهيمة! بل هم أضل! فالحيوان محكوم – في هذا – بقانون الفطرة،التي تجعل للوظيفة الجنسية مواسم لا تتعداها في الحيوان،وتجعلها مقيدة دائما بحكمة الإخصاب والإنسال.فلا تقبل الأنثى الذكر إلا في موسم الإخصاب،ولا يهاجم الـــذكر الأنثـــى إلا وهي على استعداد! أما الإنسان فقد تركه اللّه لعقله وضبط عقله بعقيدته.فمتى انطلق من العقيدة،ضعف عقله أمام الضغط،ولم يصبح قادرا على كبح جمـــاح الـــنزوة المنطلقـــة في كيانه.ومن ثم يستحيل ضبط هذا الاندفاع وتطهير وجه المجتمع من هذا الرجس،إلا بعقيدة

[٣٩] – يراجع كتاب «الحجاب» للسيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

تمسك بالزمام،وسلطان يستمد من هذه العقيدة،وسلطة تأخـذ الخـارجين المتـبجحين بالتأديب والعقوبة.وترد الكائن البشري بل ترفعه من درك البهيمة إلى مقام «الإنسـان» الكريم على اللّه.

والجاهلية التي تعيش فيها البشرية،تعيش بلا عقيدة،كما تعيش بلا سلطة تقوم على هـذه العقيدة،ومن ثم يصرخ العقلاء في الجاهليات الغربية ولا يستجيب لهم أحد لأن أحـدا لا يستجيب لكلمات طائرة في الهواء ليس وراءها سلطة تنفيذية وعقوبات تأديبية.وتصـرخ الكنيسة ويصرخ رجال الدين ولا يستجيب لهم أحد لأن أحدا لا يستجيب لعقيدة ضائعة ليس وراءها سلطة تحميها،وتنفذ توجيهاتها وشرائعها! وتندفع البشرية إلى الهاويـة بغـير ضابط من الفطرة التي أودعها اللّه الحيوان! وبغير ضابط من العقيدة والشريعة التي أعطاها اللّه الإنسان! وتدمير هذه الحضارة هو العاقبة المؤكدة،التي توحي بها كل تجارب البشـرية السابقة.مهما بدا من متانة هذه الحضارة،وضخامة الأسس التي تقوم عليها.«فالإنسان» – بلا شك – هو أضخم هذه الأسس.ومتى دمر الإنسان،فلن تقوم الحضارة على المصـانع وحدها،ولا على الإنتاج! وحين ندرك عمق هذه الحقيقة،نـدرك جانبـا مـن عظمـة الإسلام،في تشديد عقوباته على الفاحشة لحماية «الإنسان» من التدمير كي تقوم الحيـاة الإنسانية على أساسها الإنساني الأصيل.كما ندرك جانبا من جريمة الأجهزة الـتي تـدمر أسس الحياة الإنسانية بتمجيد الفاحشة وتزيينـها،وإطلاق الشـهوات البهيميـة مـن عقالها،وتسمية ذلك أحيانا «بالفن» وأحيانا «بالحرية» وأحيانا «بالتقدمية» ..وكل وسيلة من وسائل تدمير «الإنسان» ينبغي تسميتها باسمها ..جريمة ..كما ينبغي الوقوف بالنصح والعقوبة في وجه هذه الجريمة! ..

وهذا ما يصنعه الإسلام.والإسلام وحده بمنهجه الكامل المتكامل القويم[٤٠].

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٤٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٩٢٧] ويراجع فصـل:«سـلام البيـت» في كتاب:«السلام العالمي والإسلام».«دار الشروق».

إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني ..لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ويواجه حالة واقعة كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده.وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية،وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية.

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة ومن ثم يواجهون أحوالا وملابسات وظروفا وأحداثا كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى – صلوات اللّه وسلامه عليه – والعصبة المسلمة معه ..من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة للّه وحده في كل شأن من شؤون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ..وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبتلى – في سبيل اللّه – به ..

إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى ..هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية ..وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه.على النحو الذي أسلفنا ..وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق،في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة! وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة.حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور،ومن الجاهلية إلى الإسلام ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد كما كانت

الحركة الأولى – على عهد محمد ﷺ– تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة قبل أن تقوم الدولة في المدينة وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض وعلى أمة من الناس.

نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله،وذلك لاختلاف بعض الظـــروف والملابســـات الخارجية ..

نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة ..ولكن مع اختلاف في الملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة ..وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي «اجتهادا» جديدا في «فقه الحركة» يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياهما المتغيرة قليلا أو كثيرا ..

هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة ..أما الفقـــه الخـــاص بأنظمة الدولة،وشرائع المجتمع المنظم المستقر،فهذا ليس أوانه ...إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم،قاعدة التعامل فيه هي شريعة اللّه والفقه الإسلامي! ..

هذا النوع من الفقه يأتي في حينه وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حـــين يوجـــد ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك!

إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستنبت بذوره في الهواء![41]



[41] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٦١]

إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة .. ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشــركة – بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته،وفي العوالم والعناصر التي يتعامــل معها .. وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك. فيهلــك من يهلك،ويحيا من يحيا. والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة. هــم الذين علموا أن لهم إلها واحدا،واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد. هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم:«يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره» .. فهي حقيقة واحدة يقــوم عليها دين اللّه كله،ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ .. فكل رسول يجيء إنمــا يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها،فنسوها وضلوا عنها،وأشركوا مــع اللّه آلهة أخرى – على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة – وعلى أساسها تــدور المعركة بين الحق والباطل .. وعلى أساسها يأخذ اللّه المكذبين بها وينجــي المــؤمنين .. والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل – صلوات اللّه علــيهم – مــع اختلاف لغاتهم .. يوحد حكاية ما قالوه،ويوحد ترجمته في نص واحد:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» .. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية – على مدار التاريخ – حتى في صورتها اللفظية! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقــة العقيــدة،ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويرا حسيا .. ولهذا كله دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة ..

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج «الأديان المقارنة» مع المنــهج القــرآني .. يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا «تطور» في مفهوم العقيدة الأساسي،الذي جاءت بــه الرسل كلها من عند اللّه،وأن الذين يتحدثون عن «تطور» المعتقدات وتدرجها ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج «والتطور» يقولون غير ما يقوله اللّه سبحانه! فهذه العقيدة – كما نرى في القرآن الكريم – جاءت دائما بحقيقة واحدة. وحكيت العبــارة عنــها في ألفاظ بعينها:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم

إليه هو «رب العالمين» .. الذي يحاسب الناس في يوم عظيم .. فلم يكن هنا لك رسول من عند اللّه دعا إلى رب قبيلة،أو رب أمة،أو رب جنس .. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند اللّه دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة .. وكذلك لم يكن هناك رسول من عند اللّه دعا إلى عبادة طوطمية،أو نجمية،أو «أرواحية!» أو صنمية! و لم يكن هناك دين من عند اللّه ليس فيه عالم آخر .. كما يزعم من يسمونهم «علماء الأديان» وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة،ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان،دون غيرها! لقد جاءت الرسل – رسولا بعد رسول – بالتوحيد الخالص،وبربوبية رب العالمين! وبالحساب في يوم الدين .. ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد،مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة،بفعل العوامل المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوالم التي يتعامل معها .. هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية .. هي هذه التي يدرسها «علماء الأديان!» ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات وتطورها! وعلى أية حال فهذا هو قول اللّه – سبحانه – وهو أحق أن يتبع،وبخاصة ممن يكتبون عن هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلامية،أو صدد الدفاع عنها! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن،فهم وما هم فيه ..

واللّه يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

إن كل رسول من الرسل – صلوات اللّه عليهم جميعا – قد جاء إلى قومه،بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه .. فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين – كما كانت عقيدة آدم وزوجه – ثم انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا – حتى إذا جاء نوح – عليه السلام – دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى. ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون. وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين – كما علمهم نوح – وبذراريهم. حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا ..

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه. فقال:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِــنْ إِلــهٍ غَيْرُهُ» .. وقال كل رسول لقومه:«إني لكم ناصح أمين»،معبرا عن ثقل التبعة وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ورغبته في هداية قومه،وهو منهم وهم منه .. وفي كل مرة وقف «الملأ» من عليه القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحق هــذه ورفضوا الاستسلام للّه رب العالمين. وأبوا أن تكون العبودية والدينونة للّه وحده – وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين اللّه كله – وهنا يصــدع كــل رسول بالحق في وجه الطاغوت .. ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصــلتين علــى أســاس العقيدة. وتنبتّ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية لتقوم وشيجة العقيدة وحــدها. وإذا «القوم» الواحد،أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة! .. وعندئذ يجيء الفــتح .. ويفصل اللّه بين الأمة المهتدية والأمة الضــالة،ويأخذ المكــذبين المســتكبرين،وينجي الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة اللّه قط بفتح ولا فصل قبــل أن ينقســم القــوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة،وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم للّه وحده. وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم. وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم .. وهذا مــا يشهد به تاريخ دعوة اللّه على مدار التاريخ.

إن التركيز في كل رسالة كان على أمر واحد:هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحــده – رب العالمين – ذلك أن هذه العبودية للّه الواحد،ونزع السلطان كله مــن الطواغيــت الــتي تدعيه،هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر. ولم يــذكر القــرآن إلا قليلا من التفصيلات بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعا. ذلــك أن كل تفصيل – بعد قاعدة العقيدة – في الدين،إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخرج عنــها. وأهمية هذه القاعدة في ميزان اللّه هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزهــا هكــذا،ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان بل في القرآن كله .. ولنذكر – كما قلنا في التعريف بسورة الأنعام [٤٢] أن هذا كان هو موضوع القرآن المكي كله كما كــان هــو موضــوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه.

[٤٢] – الجزء السابع:ص ١٠٠٤ – ١٠١٥

إن لهذا الدين «حقيقة» و«منهجا» لعرض هذه الحقيقة. «والمنهج» في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن «الحقيقة» فيه .. وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين. كما أن علينا أن نلتزم المنهج الذي عرض به هذه الحقيقة .. وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية .. ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة ..

إن هذا القصص يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر ويعرض نموذجا مكررا للقلوب المستعدة للإيمان،ونموذجا مكررا للقلوب المستعدة للكفر أيضا .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام للّه والطاعة لرسوله و لم يعجبوا أن يختار اللّه واحدا منهم ليبلغهم وينذرهم.

فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم،فاستكبروا أن يتزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم للّه صاحب الخلق والأمر،وأن يسمعوا لواحد منهم .. كانوا هم «الملأ» من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم .. ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين .. إنها عقدة الحاكمية والسلطان .. فالملأ كانوا يحسون دائما ما في قول رسولهم لهم:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ...« وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» .. كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعني – أول ما تعني – نزع السلطان المغتصب من أيديهم ورده إلى صاحبه الشرعي .. إلى اللّه رب العالمين .. وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين! وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر،وأن يسلك طريقه إلى الهلاك،كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! .. إن مصارع المكذبين – كما يعرضها هذا القصص – تجري على سنة لا تتبدل:نسيان لآيات اللّه وانحراف عن طريقه. إنذار من اللّه للغافلين على يد رسول. استكبار عن العبودية للّه وحده والخضوع لرب العالمين. اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب. طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين. ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة .. ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة اللّه على مدار التاريخ! وأخيرا فإن طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق .. وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل –

تاركا مصيرهما لفتح اللّه وقضائه – فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف. بل يتابع الحق وينازله ويطارده .. ولقد قال شعيب لقومه:«وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا،فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا،وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» .. ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة،ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش ولا رؤية جماعة تدين للّه وحده وتخرج من سلطان الطواغيت:«قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» .. وهنا صدع شعيب بالحق رافضا هذا الذي يعرضه عليهم الطواغيت:«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها ..»

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى اللّه أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضا،وأنه لا يجديهم فتيلا أن يتقوها ويتجنبوها. فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية،ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم اللّه منها. وقد نجاهم اللّه منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية للّه وحده ..فلا مفر من خوض المعركة،والصبر عليها،وانتظار فتح اللّه بعد المفاصلة فيها وأن يقولوا مع شعيب:«عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» .. ثم تجري سنة اللّه بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ ..

ونكتفي بهذه المعالم في طريق القصص القرآني،حتى نستعرض النصوص بالتفصيل :

إن موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته رسل اللّه الكرام،مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله. في الفقرة السابقة مباشرة:«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ،ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ،يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً،وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ،أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ،تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» ..

وإن الدينونة لهذا الإله،الذي خلق السماوات والأرض،والذي استوى على العرش،والذي يحرك الليل ليطلب النهار،والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره،والذي له الخلق والأمر.

إن الدينونة لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرسل كافة. هي التي يدعون إليها البشرية كلها،كلما قعد لها الشيطان على صراط اللّه فأضلها عنه وردها إلى الجاهلية التي تتبدى في صور شتى ولكنها كلها تتسم بإشراك غير اللّه معه في الربوبية.

والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون للّه،ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه والإسلام للّه الذي أسلم له الكون كله والذي يتحرك مسخرا بأمره. ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزا وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة فلا يكون هو وحده نشازا في نظام الوجود كله! إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود .. وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات،ولا يقودها الشيطان بعيدا عن حقيقتها الأصيلة ..[43]

إن قوم نوح - عليه السلام - هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم،ومدى إصرارهم على باطلهم،ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح - عليه السلام - إليهم،وخلاصتها:التوحيد الخالص الذي يفرد اللّه - سبحانه - بالدينونة والعبودية ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية ..

إن قوم نوح هؤلاء ..هم ذرية آدم ..وآدم - كما نعلم من قصته في سورة الأعراف من قبل - وفي سورة البقرة كذلك - قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها - وهي المهمة التي خلقه اللّه لها وروده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها - بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التي زلها،وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها.وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق - هو وزوجه وبنوه - أن «يتبع» ما يأتيه من هدى اللّه،ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين.

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلما للّه متبعا هداه ..وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض حيث لم تكن

---

[43] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٧٥٧]

معها عقيدة أخرى! فإذا نحن رأينا قوم نوح – وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا اللّه – قد صاروا إلى هذه الجاهلية – التي وصفتها القصة في هذه السورة – فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعا.وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية.تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو اللّه وعدو الناس،كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى اللّه،واتباعه وحده،وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة ..ولقد خلق اللّه الإنسان ومنحه قدرا من الاختيار – هو مناط الابتلاء – وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى اللّه وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه،كما يملك أن ينحرف – ولو قيد شعرة – عن هدى اللّه إلى تعاليم غيره فيجتاله الشيطان حتى يقذف به – بعد أشواط – إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم – النبي المسلم – بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا اللّه.

وهذه الحقيقة ..حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة للّه وحده ..تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم «علماء الأديان المقارنة» وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة.سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة.ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح،وتأليه الشموس والكواكب ..إلى آخر ما تخبط فيه هذه «البحوث» التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند اللّه وإثبات أن الأديان من صنع البشر وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان! ويتزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان – وفق ذلك المنهج الموجه! – من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم.حين يقرر أن آدم – عليه السلام – هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام.وأن نوحا – عليه السلام – واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام

إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه ..القائم على التوحيـد المطلـق ..وأن الـدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام ..القائم على التوحيد المطلق ..وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السـماوية في أصل الاعتقاد – إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة – وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة.إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يـد كـل رسـول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية – حتى بعد انحـراف الأجيـال عنـها – ترقـي عقائدهم الجاهلية ذاتها حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني.أما عقيدة التوحيـد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعا! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت،لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية إنما هي آتية لهم من عند اللّه سبحانه.فهي حق منذ اللحظة الأولى،وهي كاملة منذ اللحظة الأولى ..

هذا ما يقرره القرآن الكريم ويقوم عليه التصور الإسلامي.فلا مجـال – إذن – لباحـث مسلم – وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام! – أن يعدل عن هذا الذي يقـرره القـرآن الكريم في وضوح حاسم،إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علـم الأديـان المقارنـة.تلـك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا!

ومع أننا هنا – في ظلال القرآن – لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام – إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخـر مسـتقل – ..ولكننـا نلـم بنمـوذج واحد،نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القضية ..

كتب الأستاذ العقاد في كتابه:«اللّه» في فصل أصـل العقيـدة:..«ترقـى الإنسـان في العقائد.كما ترقى في العلوم والصناعات.

«فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى،وكذلك كانت علومه وصناعاته.فليسـت أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات،وليست عناصـر الحقيقـة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى.

«وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات.

« لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى.

«وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة،وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان،ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض،ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام.و لم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام.ولعلها لا تزال.

«فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين،ولا على أنها تبحث عن محال.وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر،وطورا بعد طور.وأسلوبا بعد أسلوب،كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى،بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان.

«وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول،ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية،أو بين أمم الحضارة العريقة.و لم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك،ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة.فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها.وليس في هذه النتيجة جديد يستغفر به العلماء،أو يبنون عليه جديدا في الحكم على جوهر الدين.فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء،إنما يبحث عن محال ...».

كذلك كتب في فصل:«أطوار العقيدة الإلهية» في الكتاب نفسه :

«يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب:وهي دور التعدد ودور التمييز والترجيح ودور الوحدانية «ففي دور

التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات،وقد تتجاوز العشرات إلى المئات.

ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده،أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور،وتقبل الصلوات والقرابين.

«وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقي الأرباب على كثرتها،ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها.إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة،وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش،وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة،كأن يكون رب المطر والإقليم في حاجة إليه،أو رب الزوابع والرياح وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية.

«وفي الدور الثالث تتوحد الأمة،فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة.ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها،ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلها،مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع،والحاشية للملك المطاع.

«ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلّا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة،ويتعذّر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية،فتصف اللّه بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة،وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة اللّه وحكمته العالية،وكثيرا ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة،وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية ...» إلخ.

وواضح سواء من رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية

والحضارية والسياسية.وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال ..

وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه:«موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية،منذ أن اتخذ الإنسان ربا،إلى أن عرف اللّه الأحد،واهتدى إلى نزاهة التوحيد» ..

والذي لا شك فيه أن اللّه سبحانه يقرر في كتابه الكريم،تقريرا واضحا جازما،شيئا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب:«اللّه» متأثرا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة ..وأن الذي يقرره اللّه – سبحانه – أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة،وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية،وعرف الدينونة للّه وحده باتباع ما يتلقى منه وحده.وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة،فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا،وإلا التوحيد عقيدة ..وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد ..ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد ..ودانت لشتى الأرباب الزائفة ...

حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد.وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعا و لم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون «نزاهة التوحيد» وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية!

ولنا أن نجزم أن أجيالا من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق.قبل أن يطول عليهم الأمد،ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد ..وأنه هكذا كان شأن كل رسول:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» ..

والذي لا شك فيه أن هذا شيء، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب:«اللّه» شيء آخر.وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها ..وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا،فهي ليست الكلمة النهاية حتى في مباحث البشر الفانين!

وما من شك أنه حين يقرر اللّه – سبحانه – أمرا يبينه في كتابه الكــريم هــذا البيــان القاطع،ويقرر غيره أمرا آخر مغايرا لــه تمــام المغايرة،فــإن قــول اللّــه يكــون أولى بالاتباع.وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنــه وعن أصل الدين جملة ..وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أن الــدين جاء وحيا من عند اللّه،ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم وأنه جاء بالتوحيد منــذ أقــدم العصور ولم يجئ بغير التوحيد في أية فترة من فترات التاريخ،ولا في أية رسالة.كما أنــه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هــؤلاء إنمــا يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين اللّه كله وهي أنــه وحــي مــن اللّه،وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور! وليس وقفا على ترقي العقل البشــري في العلم المادي والخبرة التجريبية! ولعل هذه اللمحة المختصرة تكشف لنــا عــن مــدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية – في أي جانب من جوانبها – عن مصــدر غــير إسلامي.كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراها في أذهان الــذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها.حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه ..«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» [٤٤]..



[٤٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٠٧]

قوم النبي شعيب عليه السلام والدينونة لغير الله تعالى

قال تعالى:{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) } [الأعراف:٨٥ - ٨٧]

وندرك من هذا النهي أن قوم شعيب،كانوا قوما مشركين لا يعبدون اللّه وحده،إنما يشركون معه عباده في سلطانه وأنهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع اللّه العادل إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل - ولعل شركهم إنما كان في هذه الخصلة - وأنهم - لذلك - كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء كما كانوا مفسدين في الأرض،يقطعون الطريق على سواهم. ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم،ويصدونهم عن سبيل اللّه المستقيم ويكرهون الاستقامة التي في سبيل اللّه ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة،لا تمضي على استقامتها كما هي في منهج اللّه.

ويبدأ شعيب - عليه السلام - بدعوتهم إلى عبادة اللّه وحده وإفراده سبحانه بالألوهية،وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله.

يبدأ شعيب - عليه السلام - في دعوتهم من هذه القاعدة التي يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل. ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة.

ويستصحب في دعوتهم إلى الدينونة للّه وحده،وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم،وترك الإفساد في الأرض بالهوى بعد ما أصلحها اللّه بالشريعة .. يستصحب في دعوتهم إلى هذا

كله بعض المؤثرات الموحية .. يذكرهم نعمة اللّه عليهم:«وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ».

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم:«وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» ..

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم اللّه إليه عن دينهم،ولا يقعدوا لهم بكل صراط،ولا يأخذوا عليهم كل سبيل،مهددين لهم موعدين. وأن ينتظروا حكم اللّه بين الفريقين. إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين:«وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا،فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا،وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» ..

لقد دعاهم إلى أعدل خطة. ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى،وترك كلّ وما اعتنق من دين،حتى يحكم اللّه وهو خير الحاكمين.ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت ..

إن وجود جماعة مسلمة في الأرض،لا تدين إلا اللّه،ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه،ولا تحكم في حياتها شرعا إلا شرعه،ولا تتبع في حياتها منهجا إلا منهجه .. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت - حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها،وتركت الطواغيت لحكم اللّه حين يأتي موعده.

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة - حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل .. إنها سنة اللّه لا بد أن تجري ..

«قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا،أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا».هكذا في تبجح سافر،وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش! إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .. لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة .. نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء وأن يدين للسلطان

الذي يشاء:في انتظار فتح اللّه وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة،تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت .. وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه .. فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هـذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم،صدع شعيب بالحق،مستمسكا بملتـه،كارها أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه اللّه منها،واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّـهِ كَـذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها. وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها – إِلَّا أَنْ يَشـاءَ اللَّـهُ رَبُّنا،وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً – عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ،وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» ..

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان،ومذاقه في نفوس أهله،كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه. كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائـع .. مشـهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه.«قالَ:أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ؟»

يستنكر تلك القولة الفاجرة:«لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» ..يقول لهم:أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي نجانا اللّه منها؟! «قَدِ افْتَرَيْنـا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها» ..

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية،التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة للّـه وحده،والتي يتخذ الناس فيها أربابا من دون اللّه يقرون لهم بسلطان اللّه .. إن الذي يعود إلى هذه الملة – بعد إذ قسم اللّه له الخير وكشف له الطريق،وهداه إلى الحق،وأنقذه مـن العبودية للعبيد – إنما يؤدي شهادة كاذبة على اللّه ودينه. شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة اللّه خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت! أو مؤداها – على الأقل – أن لملـة الطـاغوت حقا في الوجود،وشرعية في السلطان وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان باللّه. فهـو يعـود إليها ويعترف بها بعد أن آمن باللّه .. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى،ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء اغتصـاب سلطان اللّه في الحياة! وكذلك يستنكر شعيب – عليه السلام – ما يتهدده به الطغاة مـن

إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم اللّه منها:«وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيهــا» ..وما من شأننا أصلا وما ينبغي لنا قطعا أن نعود فيها .. يقولها وأمامه التهديــد الــذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة،التي تعلن خروجها عن سلطانه،ودينونته للّه وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة للّه وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشــة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكــاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه «الإنسانية» لا توجد،والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه لــه إنســان؟! .. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به،ورضاه أو غضبه عليــه؟! .. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟! على أن الأمــر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة .. إنه يهبط ويهبط حتى يكلــف النــاس - في حكــم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج. كما يكلفهــم أولادهــم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخــلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها،فيذبحهم علــى مــذبح هواه،ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهــم أعراضــهم في النهاية .. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت،ســواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التــاريخ - أو في صــورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهــن الدعارة والفجور تحت أي ستار .. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحيــاة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون اللّه.

إنما يعيش في وهم،أو يفقد الإحساس بالواقع! إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال .. ومهما تكن تكاليف العبودية للّه،فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة. فضلا على وزنها في ميزان اللّه ..

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب:الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية :

«...وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية،لا يخفى عليه أن المسألة – التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها. وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه،وأنه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعا أو كرها – إلى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرا،ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر،وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية،وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم،وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها،وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية،وإنشاء النظام الجماعي،وتحديد القيم الخلقية. فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون باللّه ويرجون حسابه .. فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح،وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم. وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها،وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو. إن لم تمحق وتنقرض آثارها. وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن اللّه ورسوله،واتبعوا الشهوات،وانغمسوا في الفجور والطغيان،فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء،ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها،وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ...»

والظاهر أن أول ما يطالب به دين اللّه عباده،أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين لــه الطاعة والانقياد،حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغــير اللّــه تعــالى. ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله اللّه تعالى،وجاء به الرسول الأمي الكريم - ﷺ- ثم إن الإسلام يطالبهم أن يتعدم من الأرض الفساد،وتستأصل شــأفة الســيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب اللّه تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشــر وتســيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ولا يكون من أمر أتبــاع الــدين الحــق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقــادوا لجبروتهم،يــذكرون اللّــه قــابعين في زواياهم،منقطعين عن الدنيا وشؤونها،مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة علــيهم مــن المسامحات والضمانات! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق مــن أهميــة خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه. والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضــى اللّــه تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .. ألم تروا مــا جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والســمع والطاعــة،حتى إن الإنســان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعرة - وإن صام وصلى وزعــم أنــه مسلم. وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامــة نظــام الحق،والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض. وكل ذلك يتوقف تحققه على القــوة الجماعية،والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها،يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد .. ثم انظروا إلى ما كســب «الجهاد» من المترلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين،حتى إن القرآن ليحكم «بالنفاق» على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض. ذلك أن «الجهاد» هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق،ليس غير. وهذا الجهاد هو الذي يجعله القــرآن ميزانــا يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين. وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن باللّه ورســوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل،أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظــام

الحق .. فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب،فاعلم أنـــه مدخول في إيمانه،مرتاب في أمره،فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟» ...

... «إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض اللّه لها أهمية جوهرية وخطورة بالغـــة في نظـــام الإسلام. فكل من يؤمن باللّه ورسوله ويدين دين الحق،لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهـــد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام،ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب،بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر مـــن أيـــدي الكـــافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون اللّه،ويرجون حســـابه،ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند اللّه الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شـــؤونها»[٤٥] ..

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كلـــه للّه،إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم .. إنه يكلفهم أعبـــاء المعركـــة مـــع الطاغوت – تحت رايته – بكل ما فيها من تضحيات ولكنه ينقذهم من تضحيات أكـــبر وأطول،كما أنها أذل وأحقر! .. إنه يدعوهم للكرامة،وللســـلامة،في آن ..لـــذلك قالهـــا شعيب عليه السلام مدوية حاسمة :«قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـــدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها،وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها ..» ..

ولكن شعيبا بقدر ما يرفع رأسه،وبقدر ما يرفع صوته،في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه .. بقدر ما يخفض هامته،ويســـلم وجهـــه في مواجهـــة ربـــه الجليل،الذي وسع كل شيء علما. فهو في مواجهة ربه،لا يتألى عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره،ويدع له قياده وزمامه،ويعلن خضوعه واستسلامه :«إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا،وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً» ..

---

[٤٥] – مقتطفات من مقدمات كتاب «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

إنه يفوض الأمر للّه ربه،في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه .. إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت،من العودة في ملتهم ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته .. ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة اللّه به وبهم .. فالأمر موكول إلى هذه المشيئة،وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون،وربهم وسع كل شيء علما. فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.إنه أدب ولي اللّه مع اللّه. الأدب الذي يلتزم به أمره،ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره. ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه.

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم،ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق،يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:«عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ. وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» ..وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر:مشهد تجلي حقيقة «الألوهية» في نفس ولي اللّه ونبيه

إنه يعرف مصدر القوة،وملجأ الأمان. ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان. ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه،والتي ليس منها مفر. إلا بفتح من ربه ونصر.عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم:«وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ:لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» ..

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير .. إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة.فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه،واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته،ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل .. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد،ثم بالبطش والعذاب .. إنهم لا يملكون حجة على باطلهم،ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم – وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل – ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان،الذي أخلصوا الدينونة للّه فأخلصوا له السلطان.

ولكنه من سنة اللّه الجارية أنه عند ما يتمحض الحق والباطل،ويقفان وجهــا لوجــه في مفاصلة كاملة تجري سنة اللّــه الــتي لا تتخلــف .. وهكــذا كــان ..«فَأَخَــذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ،فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» ..الرجفة والجثوم،جزاء التهديد والاستطالة،وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ..

ويرد السياق على قولتهم:«لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ» .. وهي الــتي قالوهــا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا،إنما كان من نصيب قوم آخرين :«الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَــمْ يَغْنَوْا فِيهَا. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ» ..

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين. لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار،وكأن لم يكن لهم فيها آثار! ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال،والمفارقــة والانفصال،من رسولهم الذي كان أخاهم،ثم افترق طريقه عن طريقهم،فافترق مصيره عن مصيرهم،حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم،وعلى ضيعتهم في الغــابرين :«فَتَــوَلَّى عَنْهُمْ،وَقالَ:يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ،فَكَيْفَ آســى عَلــى قَــوْمٍ كافِرِينَ؟» ..

إنه من ملة وهم من ملة. فهو أمة وهم أمة. أما صلة الأنساب والأقوام،فلا اعتبار لهــا في هذا الدين،ولا وزن لها في ميزان اللّه .. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين،والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل اللّه المتين .. [٤٦]



[٤٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٧٧٢]

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في «زاد المعاد»،في الفصل الذي عقده باسم:فَصْلٌ فِي تَرْتِيبِ سِيَاقِ هَدْيِهِ مَعَ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ حِينِ بُعِثَ إلَى حِينِ لَقِيَ اللّهَ عَزّ وَجَل :

" أَوّلَ مَا أَوْحَى إلَيْهِ رَبّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبّهِ الّذِي خَلَقَ وَذَلِكَ أَوّلَ نُبُوّتِهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْمُرْهُ إذْ ذَاكَ بِتَبْلِيغٍ ثُمّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ { يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } [الْمُدّثّرُ ١،٢] فَنَبّأَهُ بِقَوْلِهِ { اقْرَأْ } وَأَرْسَلَهُ ب { يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ } ثُمّ أَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ثُمّ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ثُمّ أَنْذَرَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ،ثُمّ أَنْذَرَ الْعَرَبَ قَاطِبَةً ثُمّ أَنْذَرَ الْعَالَمِينَ فَأَقَامَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بَعْدَ نُبُوّتِهِ يُنْذِرُ بِالدّعْوَةِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا جِزْيَةٍ وَيُؤْمَرُ بِالْكَفّ وَالصّبْرِ وَالصّفْحِ . ثُمّ أُذِنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ وَأُذِنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ ثُمّ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ وَيَكُفّ عَمّنْ اعْتَزَلَهُ وَلَمْ يُقَاتِلْهُ ثُمّ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتّى يَكُونَ الدّينُ كُلّهُ لِلّهِ ثُمّ كَانَ الْكُفّارُ مَعَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ أَهْلُ صُلْحٍ وَهُدْنَةٍ وَأَهْلُ حَرْبٍ وَأَهْلُ ذِمّةٍ فَأُمِرَ بِأَنْ يُتِمّ لِأَهْلِ الْعَهْدِ وَالصّلْحِ عَهْدَهُمْ وَأَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بِهِ مَا اسْتَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ فَإِنْ خَافَ مِنْهُمْ خِيَانَةً نَبَذَ إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُقَاتِلْهُمْ حَتّى يُعْلِمَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَأُمِرَ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ . وَلَمّا نَزَلَتْ (سُورَةُ بَرَاءَةٌ) نَزَلَتْ بِبَيَانِ حُكْمِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ كُلّهَا،فَأَمَرَهُ فِيهَا أَنْ " يُقَاتِلَ عَدُوّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأَمَرَهُ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ فَجَاهَدَ الْكُفّارَ بِالسّيْفِ وَالسّنَانِ وَالْمُنَافِقِينَ بِالْحُجّةِ وَاللّسَانِ .

وَأَمَرَهُ فِيهَا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ عُهُودِ الْكُفّارِ وَنَبْذِ عُهُودِهِمْ إلَيْهِمْ وَجَعَلَ أَهْلَ الْعَهْدِ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ قِسْمًا أَمَرَهُ بِقِتَالِهِمْ وَهُمْ الّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُ وَلَمْ يَسْتَقِيمُوا لَهُ فَحَارَبَهُمْ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ . وَقِسْمًا لَهُمْ عَهْدٌ مُؤَقّتٌ لَمْ يَنْقُضُوهُ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يُتِمّ لَهُمْ عَهْدَهُمْ إلَى مُدّتِهِمْ . وَقِسْمًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ وَلَمْ يُحَارِبُوهُ أَوْ كَانَ لَهُمْ عَهْدٌ مُطْلَقٌ فَأُمِرَ أَنْ يُؤَجّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِذَا انْسَلَخَتْ قَاتَلَهُمْ وَهِيَ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ { فَسِيحُوا فِي

الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التّوْبَةُ ٢] وَهِيَ الْحُرُمُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [التّوْبَةُ ٥] فَالْحُرُمُ هَا هُنَا:هِيَ أَشْهُرُ التّسْيِيرِ أَوّلُهَا يَوْمُ الْأَذَانِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ ذِي الْحِجّةِ وَهُوَ يَوْمُ الْحَجّ الْأَكْبَرِ الّذِي وَقَعَ فِيهِ التّأْذِينُ بِذَلِكَ وَآخِرُهَا الْعَاشِرُ مِنْ رَبِيعٍ الْآخَرِ وَلَيْسَتْ هِيَ الْأَرْبَعَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ { إِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } [التّوْبَةُ ٣٦] فَإِنّ تِلْكَ وَاحِدٌ فَرْدٌ وَثَلَاثَةٌ سَرْدٌ رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجّةِ وَالْمُحَرّمُ . وَلَمْ يُسَيّرْ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنّ هَذَا لَا يُمْكِنُ لِأَنّهَا غَيْرُ مُتَوَالِيَةٍ وَهُوَ إنّمَا أَجّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ثُمّ أَمَرَهُ بَعْدَ انْسِلَاخِهَا أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فَقَتَلَ النّاقِضَ لِعَهْدِهِ وَأَجّلَ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ أَوْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يُتِمّ لِلْمُوفِي بِعَهْدِهِ عَهْدَهُ إلَى مُدّتِهِ فَأَسْلَمَ هَؤُلَاءِ كُلّهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى كُفْرِهِمْ إلَى مُدّتِهِمْ وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِ الذّمّةِ الْجِزْيَةَ . فَاسْتَقَرّ أَمْرُ الْكُفّارِ مَعَهُ بَعْدَ نُزُولِ بَرَاءَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ مُحَارِبِينَ لَهُ وَأَهْلِ عَهْدٍ وَأَهْلِ ذِمّةٍ ثُمّ آلَتْ حَالُ أَهْلِ الْعَهْدِ وَالصّلْحِ إلَى الْإِسْلَامِ فَصَارُوا مَعَهُ قِسْمَيْنِ مُحَارِبِينَ وَأَهْلَ ذِمّةٍ وَالْمُحَارِبُونَ لَهُ خَائِفُونَ مِنْهُ فَصَارَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ بِهِ وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ . وَأَمّا سِيرَتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ فَإِنّهُ أُمِرَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَكِلَ سَرَائِرَهُمْ إلَى اللّهِ وَأَنْ يُجَاهِدَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْحُجّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ وَيُغْلِظَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُبَلّغَ بِالْقَوْلِ الْبَلِيغِ إلَى نُفُوسِهِمْ وَنَهَاهُ أَنْ يُصَلّيَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَقُومَ عَلَى قُبُورِهِمْ وَأَخْبَرَ أَنّهُ إنْ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ فَهَذِهِ سِيرَتُهُ فِي أَعْدَائِهِ مِنْ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ .

وَأَمّا سِيرَتُهُ فِي أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ،فَأَمَرَهُ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَأَلّا تَعْدُوَ عَيْنَاهُ عَنْهُمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَيُشَاوِرَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَأَنْ يُصَلّيَ عَلَيْهِمْ . وَأَمَرَهُ بِهَجْرِ مَنْ عَصَاهُ وَتَخَلّفَ عَنْهُ حَتّى يَتُوبَ وَيُرَاجِعَ طَاعَتَهُ كَمَا هَجَرَ الثّلَاثَةَ الّذِينَ.خُلّفُوا. وَأَمَرَهُ أَنْ يُقِيمَ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ أَتَى مُوجِبَاتِهَا مِنْهُمْ وَأَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ شَرِيفُهُمْ وَدَنِيئُهُمْ.وَأَمَرَهُ فِي دَفْعِ عَدُوّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ بِأَنْ يَدْفَعَ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَيُقَابِلَ إسَاءَةَ مَنْ أَسَاءَ إلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ وَجَهْلَهُ بِالْحِلْمِ وَظُلْمَهُ بِالْعَفْوِ وَقَطِيعَتَهُ بِالصّلَةِ وَأَخْبَرَهُ أَنّهُ إنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَادَ عَدُوّهُ كَأَنّهُ وَلِيّ حَمِيمٌ . وَأَمَرَهُ فِي دَفْعِهِ

عَدُوِّه مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنّ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاَللّه مِنْهُمْ وَجَمَعَ لَهُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ فِي (سُورَةِ الْأَعْرَافِ) و (الْمُؤْمِنُونَ) فَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمّا يَنْزَغَنّكَ مِنَ الشّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الْأَعْرَاف ١٩٩ - ٢٠٠] فَأَمَرَهُ بِاتّقَاءِ شَرّ الْجَاهِلِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَبِاتّقَاءِ شَرّ الشّيْطَانِ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ وَجَمَعَ لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَالشّيَمِ كُلّهَا،فَإِنّ وَلِيّ الْأَمْرِ لَهُ مَعَ الرّعِيّةِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ فَإِنّهُ لَا بُدّ لَهُ مِنْ حَقّ عَلَيْهِمْ يَلْزَمُهُمْ الْقِيَامُ بِهِ وَأَمْرٍ يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَلَا بُدّ مِنْ تَفْرِيطٍ وَعُدْوَانٍ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي حَقّهِ فَأُمِرَ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ الْحَقّ الّذِي عَلَيْهِمْ مَا طَوّعَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَسَمَحَتْ بِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَشُقّ وَهُوَ الْعَفْوُ الّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ بِبَذْلِهِ ضَرَرٌ وَلَا مَشَقّةٌ وَأُمِرَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْعُرْفِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الّذِي تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ السّلِيمَةُ وَالْفِطَرُ الْمُسْتَقِيمَةُ وَتُقِرّ بِحُسْنِهِ وَنَفْعِهِ وَإِذَا أَمَرَ بِهِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَيْضًا لَا بِالْعُنْفِ وَالْغِلْظَةِ . وَأَمَرَهُ أَنْ يُقَابِلَ جَهْلَ الْجَاهِلِينَ مِنْهُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ دُونَ أَنْ يُقَابِلَهُ بِمِثْلِهِ فَبِذَلِكَ يَكْتَفِي شَرّهُمْ . وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ { قُلْ رَبّ إِمّا تُرِيَنّي مَا يُوعَدُونَ رَبّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظّالِمِينَ وَإِنّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ السّيّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبّ أَنْ يَحْضُرُونِ } [الْمُؤْمِنُونَ ٩٣ - ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حم فُصّلَتْ { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السّيّئَةُ ادْفَعْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنّهُ وَلِيّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقّاهَا إِلّا الّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقّاهَا إِلّا ذُو حَظّ عَظِيمٍ وَإِمّا يَنْزَغَنّكَ مِنَ الشّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فُصّلَتْ ١٣٤] فَهَذِهِ سِيرَتُهُ مَعَ أَهْلِ الْأَرْضِ إنْسِهِمْ وَجِنّهِمْ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ .[٤٧]..

وقال أيضاً :" فَصْلٌ [الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ]

فَلَمّا اسْتَقَرّ رَسُولُ اللّهِ - ﷺ- بِالْمَدِينَةِ وَأَيّدَهُ اللّهُ بِنَصْرِهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَنْصَارِ وَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْإِحَنِ الّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَتْهُ أَنْصَارُ اللّهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ وَبَذَلُوا نُفُوسَهُمْ دُونَهُ وَقَدّمُوا مَحَبّتَهُ عَلَى مَحَبّةِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَزْوَاجِ

٤٧ - زاد المعاد - (ج ٣ / ص ١٤٣)

وَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ وَالْيَهُودُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَشَمَّرُوا لَهُمْ عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ وَالْمُحَارَبَةِ وَصَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ حَتَّى قَوِيَتْ الشَّوْكَةُ فَقَالَ تَعَالَى:{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الْحَجِّ ٣٩] . وَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ إنَّ هَذَا الْإِذْنَ كَانَ بِمَكَّةَ وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ وَهَذَا غَلَطٌ لِوُجُوهٍ أَحَدُهَا:أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْذَنْ بِمَكَّةَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ وَلَا كَانَ لَهُمْ شَوْكَةٌ يَتَمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ الْقِتَالِ بِمَكَّةَ . الثَّانِي:أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ وَإِخْرَاجُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ فَإِنَّهُ قَالَ { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } [الْحَجِّ ٤٠] وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُهَاجِرُونَ . الثَّالِثُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } [الْحَجِّ ١٩] نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ . الرَّابِعُ أَنَّهُ قَدْ خَاطَبَهُمْ فِي آخِرِهَا بِقَوْلِهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالْخِطَابُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مَدَنِيٌّ فَأَمَّا الْخِطَابُ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَمُشْتَرَكٌ . الْخَامِسُ أَنَّهُ أَمَرَ فِيهَا بِالْجِهَادِ الَّذِي يَعُمُّ الْجِهَادَ بِالْيَدِ وَغَيْرِهِ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ الْمُطْلَقِ إنَّمَا كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَأَمَّا جِهَادُ الْحُجَّةِ فَأَمَرَ بِهِ فِي مَكَّةَ بِقَوْلِهِ { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ } أَيْ بِالْقُرْآنِ { جِهَادًا كَبِيرًا } [الْفُرْقَانُ:٥٢] فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ وَالْجِهَادُ فِيهَا هُوَ التَّبْلِيغُ وَجِهَادُ الْحُجَّةِ .

وَأَمَّا الْجِهَادُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي (سُورَةِ الْحَجِّ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْجِهَادُ بِالسَّيْفِ

السَّادِسُ أَنَّ الْحَاكِمَ رَوَى فِي " مُسْتَدْرَكِهِ " عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَالَ:لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ – ﷺ– مِنْ مَكَّةَ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ:أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ،لَيَهْلِكُنَّ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} (٣٩) سورة الحج،قَالَ:وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ ". وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ " الصَّحِيحَيْنِ "[٤٨]

وَسِيَاقُ السُّورَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِيهَا الْمَكِّيَّ وَالْمَدَنِيَّ فَإِنَّ قِصَّةَ إلْقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَّةِ الرَّسُولِ مَكِّيَّةٌ[٤٩] وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

---

[٤٨] – المستدرك للحاكم (٢٩٦٨) صحيح

[٤٩] – هي قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (٥٢) سورة الحج

ثُمّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالَ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ قَاتَلَهُمْ دُونَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ فَقَالَ { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّه الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ } [الْبَقَرَةُ ١٩٠] .

ثُمّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ كَافّةً وَكَانَ مُحَرّمًا ثُمّ مَأْذُونًا بِهِ ثُمّ مَأْمُورًا بِهِ لِمَنْ بَدَأَهُمْ بِالْقِتَالِ ثُمّ مَأْمُورًا بِهِ لِجَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ إمّا فَرْضُ عَيْنٍ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ أَوْ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْمَشْهُورِ .

وَالتّحْقِيقُ أَنّ جِنْسَ الْجِهَادِ فَرْضُ عَيْنٍ إمّا بِالْقَلْبِ وَإِمّا بِاللّسَانِ وَإِمّا بِالْمَالِ وَإِمّا بِالْيَدِ فَعَلَى كُلّ مُسْلِمٍ أَنْ يُجَاهِدَ بِنَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ .

أَمّا الْجِهَادُ بِالنّفْسِ فَفَرْضُ كِفَايَةٍ وَأَمّا الْجِهَادُ بِالْمَالِ فَفِي وُجُوبِهِ قَوْلَانِ وَالصّحِيحُ وُجُوبُهُ لِأَنّ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ بِهِ وَبِالنّفْسِ فِي الْقُرْآنِ سَوَاءٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [التّوْبَةُ ٤١] وَعَلّقَ النّجَاةَ مِنْ النّارِ بِهِ وَمَغْفِرَةَ الذّنْبِ وَدُخُولَ الْجَنّةِ فَقَالَ { يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [الصّفّ ١٥]

وَأَخْبَرَ أَنّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَعْطَاهُمْ مَا يُحِبّونَ مِنْ النّصْرِ وَالْفَتْحِ الْقَرِيبِ فَقَالَ { وَأُخْرَى تُحِبّونَهَا } [الصّفّ ١٢] أَيْ وَلَكُمْ خَصْلَةٌ أُخْرَى تُحِبّونَهَا فِي الْجِهَادِ وَهِيَ { نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ } وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنّهُ { {.. اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة،وَأَعَاضَهُمْ عَلَيْهَا الْجَنّةَ وَأَنّ هَذَا الْعَقْدَ وَالْوَعْدَ قَدْ أَوْدَعَهُ أَفْضَلَ كُتُبِهِ الْمُنَزّلَةِ مِنْ السّمَاءِ وَهِيَ التّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ ثُمّ أَكّدَ ذَلِكَ بِإِعْلَامِهِمْ أَنّهُ لَا أَحَدَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثُمّ أَكّدَ ذَلِكَ بِأَنْ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِهِمْ الّذِي عَاقَدُوهُ عَلَيْهِ ثُمّ أَعْلَمَهُمْ أَنّ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. فَلْيَتَأَمّلْ الْعَاقِدُ مَعَ رَبّهِ عَقْدَ هَذَا التّبَايُعِ

مَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ وَأَجَلّهُ فَإِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ هُوَ الْمُشْتَرِي وَالثّمَنُ جَنّاتُ النّعِيمِ وَالْفَوْزُ بِرِضَاهُ وَالتّمَتّعُ بِرُؤْيَتِهِ هُنَاكَ. وَاَلّذِي جَرَى عَلَى يَدِهِ هَذَا الْعَقْدُ أَشْرَفُ رُسُلِهِ وَأَكْرَمُهُمْ. عَلَيْهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ.

وَإِنّ سِلْعَةً هَذَا شَأْنُهَا لَقَدْ هُيّئَتْ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ

قَدْ هَيّئُوك لِأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَه فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الْهَمَلِ

مَهْرُ الْمُحبّةِ وَالْجَنّةِ بَذْلُ النّفْسِ وَالْمَالِ لِمَالِكِهِمَا الّذِي اشْتَرَاهُمَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا لِلْجَبَانِ الْمُعْرِضِ الْمُفْلِسِ وَسَوْمِ هذه السّلْعَةِ بَاللّه مَا هَزَلَتْ فَيَسْتَامَهَا الْمُفْلِسُونَ وَلَا كَسَدَتْ فَيَبِيعَهَا بِالنّسيئَةِ الْمُعْسِرُونَ،لَقَدْ أُقِيمَتْ لِلْعَرْضِ فِي سُوق مَنْ يُرِيدُ فَلَمْ يَرْضَ رَبّهَا لَهَا بِثَمَنٍ دُونَ بَذْلِ النّفُوسِ فَتَأَخّرَ الْبَطّالُونَ،وَقَامَ الْمُحبّونَ يَنْتَظِرُونَ أَيّهُمْ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ نَفْسُهُ الثّمَنَ فَدَارَتِ السّلْعَةُ بَيْنَهُمْ وَوَقَعَتْ فِي يَدِ { أَذِلّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [الْمَائِدَةُ ٥٤] .

ولَمّا كَثُرَ الْمُدّعُونَ لِلْمَحَبّةِ طُولِبُوا بِإِقَامَةِ الْبَيّنَةِ عَلَى صِحّةِ الدّعْوَى فَلَوْ يُعْطَى النّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادّعَى الْخَلِيّ حرْفَةَ الشّجِيّ فَتَنَوّعَ الْمُدّعُونَ فِي الشّهُودِ فَقِيلَ لَا تَثْبُتُ هَذِهِ الدّعْوَى إلّا بِبَيّنَةٍ {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (٣١) سورة آل عمران،فَتَأَخّرَ الْخَلْقُ كُلّهُمْ وَثَبَتَ أَتْبَاعُ الرّسُولِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَقِيلَ لَا تُقْبَلُ الْعَدَالَةُ إلّا بِتَزْكِيَةِ { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } [الْمَائِدَةُ ٥٤] فَتَأَخّرَ أَكْثَرُ الْمُدّعِينَ لِلْمَحَبّةِ وَقَامَ الْمُجَاهِدُونَ فَقِيلَ لَهُمْ :إنّ نُفُوسَ الْمُحبّينَ وَأَمْوَالَهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ فَسَلّمُوا مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْعَقْدُ فَإِنّ { اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة.

وَعَقْدُ التّبَايُعِ يُوجِبُ التّسْلِيمَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَلَمّا رَأَى التّجّارُ عَظَمَةَ الْمُشْتَرِي وَقَدْرَ الثّمَنِ وَجَلَالَةَ قَدْرِ مَنْ جَرَى عَقْدُ التّبَايُعِ عَلَى يَدْيِه وَمِقْدَارَ الْكِتَابِ الّذِي أُثْبِتَ فِيهِ هَذَا الْعَقْدُ عَرَفُوا أَنّ لِلسّلْعَةِ قَدْرًا وَشَأْنًا لَيْسَ لِغَيْرِهَا مِنْ السّلَعِ فَرَأَوْا مِنَ الْخُسْرَانِ الْبَيّنِ وَالْغَبْنِ

الْفَاحِشِ أَنْ يَبِيعُوهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهَا وَشَهْوَتُهَا وَتَبْقَى تَبِعَتُهَا وَحَسْرَتُهَا فَإِنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ مَعْدُودٌ فِي جُمْلَةِ السُّفَهَاءِ فَعَقَدُوا مَعَ الْمُشْتَرِي بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ رِضًى وَاخْتِيَارًا مِنْ غَيْرِ ثُبُوتِ خِيَارٍ وَقَالُوا:وَاَللَّه لَا نَقِيلُكَ وَلَا نَسْتَقِيلُكَ [٥٠]

فَلَمَّا تَمَّ الْعَقْدُ وَسَلَّمُوا الْمَبِيعَ قِيلَ لَهُمْ قَدْ صَارَتْ أَنْفُسُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ لَنَا وَالْآنَ فَقَدْ رَدَدْنَاهَا عَلَيْكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ وَأَضْعَافَ أَمْوَالِكُمْ مَعَهَا { وَلَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ } [آلُ عِمْرَانَ ٦٩] لَمْ نَبْتَعْ مِنْكُمْ نُفُوسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ طَلَبًا لِلرّبْحِ عَلَيْكُمْ بَلْ لِيَظْهَرَ أَثَرُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ فِي قَبُولِ الْمَعِيبِ وَالْإِعْطَاءِ عَلَيْهِ أَجَلّ الْأَثْمَانِ ثُمّ جَمَعْنَا لَكُمْ بَيْنَ الثّمَنِ وَالْمُثَمّنِ .

تَأَمّلْ قِصّةَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ " وَقَدْ اشْتَرَى مِنْهُ - ﷺ- بَعِيرَهُ ثُمّ وَفّاهُ الثّمَنَ وَزَادَهُ وَرَدّ عَلَيْهِ الْبَعِيرَ وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ قُتِلَ مَعَ النّبِيّ - ﷺ- فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ فَذَكّرَهُ بِهَذَا الْفِعْلِ حَالَ أَبِيهِ مَعَ اللّهِ وَأَخْبَرَهُ أَنّ اللّهَ أَحْيَاهُ وَكَلّمَهُ كِفَاحًا [٥١]

وَقَالَ يَا عَبْدِي تَمَنّ عَلَيّ " [٥٢]

---

[٥٠] - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ:"نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ " { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة،فكَبَّرَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ثَانِيًا طَرَفَيْ رِدَائِهِ عَلَى أَحَدِ عَاتِقَيْهِ، فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؟ فَقَالَ:نَعَمْ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ:بَيْعٌ رَبِيحٌ، لا نَقِيلُ وَلا نَسْتَقِيلُ".تفسير ابن أبي حاتم - (٧ / ٤٢٣) (١٠٨٣٥) صحيح

[٥١] - عن طَلْحَةَ بْنَ خِرَاشٍ،قَالَ:سَمِعْتُ جَابِرًا،يَقُولُ:لَقِيَنِي النَّبِيُّ - ﷺ -،فَقَالَ لِي:يَا جَابِرُ،مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا ؟ فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللهِ،اسْتُشْهِدَ أَبِي،وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا،فَقَالَ:أَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ ؟ قُلْتُ:بَلَى،يَا رَسُولَ اللهِ،قَالَ:مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ،وَإِنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا،فَقَالَ:يَا عَبْدِي،تَمَنَّ أُعْطِكَ،قَالَ:تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ قَتْلَةً ثَانِيَةً،قَالَ اللَّهُ:إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ،وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} .صحيح ابن حبان - (١٥ / ٤٩٠) (٧٠٢٢) صحيح

[٥٢] - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ،سَمِعَ جَابِرًا،قَالَ:قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -:يَا جَابِرُ،عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ،فَقَالَ لَهُ:تَمَنَّ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ:أَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلُ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ:إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ "مسند أبي يعلى الموصلي(٢٠٠٢) صحيح لغيره

فَسُبْحَانَ مَنِ الْمَبِيعَ عَلَى عَيْبِهِ وَأَعَاضَ عَلَيْهِ أَجَلّ الْأَثْمَان وَاشْتَرَى عَبْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِمَالِهِ وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الثّمَنِ وَالْمُثَمّنِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِهَذَا الْعَقْدِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الّذِي وَفّقَهُ لَهُ وَشَاءَهُ مِنْهُ .

فَحَيّهَلَا إنْ كُنْتَ ذَا هِمّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشّوْقِ فَاطْوِ الْمَرَاحِلَا

وَقُلْ لِمُنَادِي حُبّهِمْ وَرِضَاهُمْ إذَا مَا دَعَا لَبّيْكَ أَلْفًا كَوَامِلَا

وَلَا تَنْظُرْ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ نَظَرْتَ إلَى الْأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلَا

وَلَا تَنْتَظِرْ بِالسّيْرِ رِفْقَةَ قَاعِدٍ وَدَعْهُ فَإِنّ الشّوْقَ يَكْفِيك حَامِلَا

وَخُذْ مِنْهُمْ زَادًا إلَيْهِمْ وَسِرْ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى وَالْحُبّ تُصْبِحْ وَاصِلًا

وَأَحْيِي بِذِكْرَاهُمْ شِرَاكَ إذَا دَنَتْ رِكَابُكَ فَالذّكْرَى تُعِيدُك عَامِلَا

وَأَمّا تَخَافَنّ الْكَلَالَ فَقُلْ لَهَا أَمَامَك وِرْدُ الْوَصْلِ فَابْغِي الْمَنَاهِلَا

وَخُذْ قَبَسًا مَنْ نُورِهِمْ ثُمّ سِرْ بِهِ فَنُورُهُمْ يَهْدِيكَ لَيْسَ الْمَشَاعِلَا

وَحَيّ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ فَقِلْ بِهِ عَسَاكَ تَرَاهُمْ ثَمّ إنْ كُنْتَ قَائِلَا

وَإِلّا فَفِي نَعْمَانَ عِنْدِي مُعَرّفُ الْ أَحِبّةِ فَاطْلُبْهُمْ إذَا كُنْتَ سَائِلَا

وَإِلّا فَفِي جَمْعٍ بِلَيْلَتِهِ فَإِنْ تَفُتْ فَمِنًى يَا وَيْحَ مَنْ كَانَ غَافِلًا

وَحَيّ عَلَى جَنّاتِ عَدْنٍ فَإِنّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى بِهَا كُنْتَ نَازِلَا

وَلَكِنْ سَبَاكَ الْكَاشِحُونَ لِأَجْلِ ذَا وَقَفْت عَلَى الْأَطْلَالِ تَبْكِي الْمَنَازِلَا

وَحَيّ عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ بِجَنّةِ الْ خُلُودِ فَجُدْ بِالنّفْسِ إنْ كُنْتَ بَاذِلَا

فَدَعْهَا رُسُومًا دَارِسَاتٍ فَمَا بِهَا مَقِيلٌ وَجَاوِزْهَا فَلَيْسَتْ مَنَازِلَا

رُسُومًا عَفَتْ يَنْتَابُهَا الْخَلْقُ كَمْ بِهَا قَتِيلٌ وَكَمْ فِيهَا لِذَا الْخَلْقِ قَاتِلَا

وَخُذْ يَمْنَةً عَنْهَا عَلَى الْمَنْهَجِ الّذِي عَلَيْهِ سَرَى وَفْدُ الْأَحِبّةِ آهِلَا

وَقُلْ سَاعِدِي يَا نَفْسُ بِالصّبْرِ سَاعَةً فَعِنْدَ اللّقَا ذَا الْكَدّ يُصْبِحُ زَائِلَا

فَمَا هِيَ إلّا سَاعَةٌ ثُمّ تَنْقَضِي وَيُصْبِحُ ذُو الْأَحْزَانِ فَرْحَانَ جَاذِلَا

لَقَدْ حَرّكَ الدّاعِي إلَى اللّهِ وَإِلَى دَارِ السّلَامِ النّفُوسَ الْأَبِيّةَ وَالْهِمَمَ الْعَالِيَةَ وَأَسْمَعَ مُنَادِي الْإِيمَانِ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ وَأَسْمَعَ اللّهُ مَنْ كَانَ حَيّا فَهَزّهُ السّمَاعُ إلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ

وَحْدًا بِهِ فِي طَرِيقِ سَيْرِهِ فَمَا حَطَّتْ بِهِ رِحَالُهُ إِلَّا بِدَارِ الْقَرَارِ فَقَالَ ﷺ:« انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَـــنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِى وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِـــنْ أَجْـــرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ،أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ،وَلَوَدِدْتُ أَنِّى أُقْتَـــلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا،ثُمَّ أُقْتَلُ »[٥٣] .

وَقَالَ ﷺ:« مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِى سَـــبِيلِهِ – كَمَثَـــلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ،وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ »[٥٤]

وَقَالَ ﷺ:« غَدْوَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا،وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ،لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا،وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا،وَلَنَصِيفُهَا – يَعْنِى الْخِمَارَ – خَيْرٌ مِـــنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »[٥٥] .

وَقَالَ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ:أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِدًا فِـــي سَبِيلِي،ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي،ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَـــةٍ،وَإِنْ قَبَضْـــتُهُ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ وَأَرْحَمَهُ،وَأُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. "[٥٦]

وَقَالَ ﷺ:جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنَجِّـــي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ."[٥٧]

وَقَالَ ﷺ:أَنَا زَعِيمٌ،وَالزَّعِيمُ الْحَمِيلُ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْـــلَمَ،وَهَاجَرَ بِبَيْـــتٍ فِـــي رَبَـــضِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِي وَأَسْلَمَ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِبَيْتٍ فِي

---

[٥٣] – صحيح البخارى– المكنز – (٣٦)

[٥٤] – صحيح البخارى– المكنز – (٢٧٨٧)

[٥٥] – صحيح البخارى– المكنز – (٦٥٦٧ و٦٥٦٨)

[٥٦] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٢ / ٤٩٤)(٥٩٧٧)– صحيح

[٥٧] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٧ / ٥٤٠)(٢٢٦٨٠) ٢٣٠٥٦– حسن لغيره

رَبَضِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ،وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ،فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَــدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا،وَلاَ مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا،يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ يَمُوتَ"[58].

وَقَالَ ﷺ:« مَنْ قَاتَلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ لَوْنُهَا الزَّعْفَرَانُ وَرِيحُهَا كَالْمِسْكِ »[59].

وَقَالَ ﷺ:" إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ بَيْنَ الــدَّرَجَتَيْنِ،كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ،فَهُوَ أَوْسَــطُ الْجَنَّــةِ،وَهُوَ أَعْلَــى الْجَنَّةِ،وَفَوْقَهُ الْعَرْشُ،وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ."[60]

وَقَالَ ﷺ لأَبِي سَعِيدٍ:« يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِىَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ». قَالَ فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ قَالَ أَعِدْهَا عَلَىَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَفَعَــلَ ثُــمَّ قَــالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِى الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَــيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ». قَالَ وَمَا هِىَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « الْجِهَادُ فِى سَــبِيلِ اللَّــهِ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ »[61].

وَقَالَ ﷺ:« مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ نُودِىَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ،هَذَا خَيْرٌ . فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ،وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِــىَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ – رضى الله عنه – بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللَّــهِ،مَا

---

[58] - صحيح ابن حبان - (10 / 480) (4619) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:الزَّعِيمُ لُغَةً:أَهْلُ الْمَدِينَةِ،وَالْحَمِيلُ لُغَةً:أَهْلُ مِصْرَ،وَالْكَفِيلُ لُغَةً:أَهْلُ الْعِرَاقِ،وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ اللَّفْظَــةُ الزَّعِيمُ الْحَمِيلُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ وَهْبٍ أُدْرِجَ فِي الْخَبَرِ.

[59] - سنن الترمذى- المكتر - (1758) وقال:هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.-الفواق:قدر ما بين الحلبتين من الراحة

[60] - صحيح ابن حبان - (10 / 471) (4611) وصحيح البخارى- المكتر - (2790)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:قَوْلُهُ ﷺ:فَهُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ يُرِيدُ بِهِ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ فِي وَسَطِ الْجِنَّانِ،فِي الْعَرْضِ،وَقَوْلُهُ وَهُوَ أَعْلَى الْجَنَّةِ يُرِيدُ بِهِ:فِي الارْتِفَاعِ.

[61] - سنن النسائي- المكتر - (3144) صحيح

عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ،فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا قَالَ « نَعَمْ . وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » [٦٢].

وَقَالَ ﷺ:« مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبِسَبْعِمِائَةٍ وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ مَازَ أَذًى فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا وَمَنِ ابْتَلاَهُ اللَّهُ بِبَلاَءٍ فِى جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ »[٦٣].

وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ « مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِى بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَقَ فِى وَجْهِ ذَلِكَ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ». ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ).[٦٤].

وَقَالَ ﷺ:" مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ،أَوْ غَارِمًا فِي عُسْرَتِهِ،أَوْ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ،أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ "[٦٥] .

وَقَالَ ﷺ:« مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » [٦٦].

وقَالَ أَبُو الْمُصَبِّحِ الْمَقْرَائِيُّ،قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ بِأَرْضِ الرُّومِ فِي طَائِفَةٍ عَلَيْهَا مَالِكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْخَثْعَمِيُّ إِذْ مَرَّ مَالِكٌ بِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَمْشِي يَقُودُ بَغْلاً لَهُ،فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ:أَيْ أَبَا عَبْدِ اللهِ ارْكَبْ فَقَدْ حَمَلَكَ اللَّهُ،فَقَالَ جَابِرٌ:أُصْلِحُ دَابَّتِي وَأَسْتَغْنِي عَنْ قَوْمِي،وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ،فَأَعْجَبَ مَالِكًا قَوْلُهُ فَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ حَيْثُ يُسْمِعُهُ الصَّوْتَ نَادَاهُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا

---

[٦٢] - صحيح البخارى- المكنز - (١٨٩٧) وصحيح مسلم- المكنز - (٢٤١٨)

الضرورة:الضرر أى لا يزاحم بعضهم بعضا -زوجين:أي:صنفين:والزوج:الصنف من الأشياء والنوع منها والزوج الذي معه آخر من جنسه مثله.- أي فل:منقوص من «فلان» كأنه قال:يافلان:قال الأزهري:ليس ترخيم «فلان» ولكنها كلمة على حدة ،فبنو أسد يوقعونها على الواحد والأثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد ،وغيرهم ،يثني ويجمع ويؤنث، وقال الجوهري:حذفت الألف والنون لغير ترخيم ،ولو كان ترخيما ،لقال:يا فلا.-التو:الهلاك.جامع الأصول في أحاديث الرسول - (٩ / ٥٢٣)

[٦٣] - مسند أحمد - المكنز - (١٧١٢) صحيح

الجنة:الوقاية -الحطة:أى تحط عنه خطاياه وذنوبه -ماز:نحى وأزال

[٦٤] - سنن ابن ماجه- المكنز - (٢٨٦٦) ضعيف

[٦٥] - شعب الإيمان - (٦ / ١٣٣) (٣٩٧٢) حسن

[٦٦] - صحيح البخارى- المكنز - (٩٠٧)

أَبَا عَبْدِ اللهِ ارْكَبْ،فَقَدْ حَمَلَكَ اللَّهُ،فَعَرَفَ جَابِرٌ الَّذِي أَرَادَ بِرَفْعِ صَوْتِهِ،وَقَالَ:أُصْلِحُ دَابَّتِي وَأَسْتَغْنِي عَنْ قَوْمِي،وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ،فَوَثَبَ النَّاسُ عَنْ دَوَابِّهِمْ،فَمَا رَأَيْنَا يَوْمًا أَكْثَرَ مَاشِيًا مِنْهُ."[٦٧]

وَقَالَ ﷺ:" لاَ يَجْتَمِعُ شحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ،وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي وَجْهِ عَبْدٍ."[٦٨]

وَفِي لَفْظٍ « لاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِى جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا وَلاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِى قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا »[٦٩].

وَفِي لَفْظٍ "لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ"[٧٠]

وَفِي لَفْظٍ " لَا يَبْكِي أَحَدٌ فَتَطْعَمَهُ النَّارُ،حَتَّى يُرَدَّ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ،وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَدًا "[٧١].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن أبي الْمُصَبِّحِ الأَوْزَاعِيَّ،قَالَ:بَيْنَا نَسِيرُ فِي دَرْبِ قَلَمْيَةَ إِذْ نَادَى الأَمِيرَ مَالِكَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْخَثْعَمِيَّ،رَجُلاً يَقُودُ فَرَسَهُ فِي عِرَاضِ الْجَبَلِ:يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَلاَ تَرْكَبُ ؟ قَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ،فَهُمَا حَرَامٌ عَلَى النَّارِ. "[٧٢]

وَذَكَرَ عَنْهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ،يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ فِي جَوْفِ رَجُلٍ غُبَارًا فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانَ جَهَنَّمَ،وَمَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ،حَرَّمَ اللَّهُ سَائِرَ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ،وَمَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ،بَاعَدَ اللَّهُ عَنْهُ النَّارَ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْتَعْجِلِ،وَمَنْ جُرِحَ جِرَاحَةً فِي سَبِيلِ اللهِ،خَتَمَ لَهُ بِخَاتَمِ الشُّهَدَاءِ،لَهُ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،لَوْنُهَا مِثْلُ لَوْنِ الزَّعْفَرَانِ،وَرِيحُهَا مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ،يَعْرِفُهُ بِهَا الأَوَّلُونَ

---

[٦٧] - صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٦٤) (٤٦٠٤) صحيح - الحديث زيادة من عندي

[٦٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٣ / ٣٠٢) (٨٥١٢) ٨٤٩٣- صحيح لغيره

[٦٩] - السنن الكبرى للبيهقي- المكنز - (٩ / ١٦١) (١٨٩٧٨) صحيح

[٧٠] - المعجم الكبير للطبراني - (١٩ / ١٨٦) (٤٥٧) وسنن النسائي- المكنز - (٣١٢٨) صحيح

[٧١] - شعب الإيمان - (٢ / ٢٣٥) (٧٨٠) وسنن النسائي- المكنز - (٣١٢٦) صحيح

[٧٢] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٣٣٥)(٢١٩٦٢) ٢٢٣٠٨- صحيح

وَالآخرُونَ،يَقُولُونَ:فُلاَنٌ عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ،وَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ." [73]

وَذَكَرَ أَحْمَدُ – رَحِمَهُ اللَّهُ – عَنْ عَائِشَةَ،أَنَّ مُكَاتَبًا لَهَا دَخَلَ عَلَيْهَا بِبَقِيَّةِ مُكَاتَبَتِهِ،فَقَالَتْ لَهُ:أَنْتَ غَيْرُ دَاخِلٍ عَلَيَّ غَيْرَ مَرَّتِكَ هَذِهِ،فَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ،فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:مَا خَالَطَ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ رَهَجٌ فِي سَبِيلِ اللهِ،إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ. " [74]

وعَنْ سَلْمَانَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ »[75].

وعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ،فَإِنَّهُ يَنْمُو عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ. "[76].

وعَنْ أَبِي صَالِحٍ،مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ،قَالَ:سَمِعْتُ عُثْمَانَ،يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ:أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كَتَمْتُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَرَاهِيَةَ تَفَرُّقِكُمْ عَنِّي،ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهُ لِيَخْتَارَ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ مَا بَدَا لَهُ،سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ."[77] وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ خَطَبَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ النَّاسَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى سَمِعْتُ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – لَمْ يَمْنَعْنِى أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ إِلاَّ الضِّنُّ بِكُمْ وَبِصَحَابَتِكُمْ فَلْيَخْتَرْ مُخْتَارٌ لِنَفْسِهِ أَوْ لِيَدَعْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ « مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِى سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا »[78].

---

[73] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٨ / ٨٨٥)(٢٧٥٠٣) ٢٨٠٥٢– فيه انقطاع

[74] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٨ / ١٣٢) (٢٤٥٤٨) ٢٥٠٥٥– صحيح

[75] – صحيح مسلم– المكنز – (٥٠٤٧)

[76] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٧ / ٩٣٢)(٢٣٩٥١) ٢٤٤٥٠– صحيح

[77] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (١ / ٢١٨) ٤٧٠– حسن

[78] – سنن ابن ماجه– المكنز – (٢٨٧١) حسن لغيره

(الضن) أي البخل .(من رابط) أي لازم الثغر للجهاد – (صيامها وقيامها) أي صيام أيامها وقيام لياليها بالجر بدل من ألف ليلة .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلاً،مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:مَرَّ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةُ مَاءٍ عَذْبٍ،فَأَعْجَبَهُ طِيبُهُ،فَقَالَ:لَوْ أَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ فَاعْتَزَلْتُ النَّاسَ،وَلاَ أَفْعَلُ حَتَّى أَسْتَأْمِرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:لاَ تَفْعَلْ،فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةِ سِتِّينَ عَامًا خَالِيًا،أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ،مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ،وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. ".[79]

وَذَكَرَ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ،تَرْفَعُ الْحَدِيثَ،قَالَتْ:مَنْ رَابَطَ فِي شَيْءٍ مِنْ سَوَاحِلِ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ،أَجْزَأَتْ عَنْهُ رِبَاطَ سَنَةٍ."[80]

وَذَكَرَ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ،قَالَ:قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ:وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ:إِنِّي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ إِلَّا الضَّنُّ بِكُمْ . سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" حَرْسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا "[81]

عن أبي رَيْحَانَةَ،قال:كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ،فَأَتَيْنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَى شَرَفٍ،فَبِتْنَا عَلَيْهِ،فَأَصَابَنَا بَرْدٌ شَدِيدٌ حَتَّى رَأَيْتُ مَنْ يَحْفِرُ فِي الأَرْضِ حُفْرَةً يَدْخُلُ فِيهَا،وَيُلْقِي عَلَيْهِ الْحَجَفَةَ،يَعْنِي التُّرْسَ،فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ النَّاسِ نَادَى:مَنْ يَحْرُسُنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ،وَأَدْعُو لَهُ بِدُعَاءٍ يَكُونُ فِيهِ فَضْلٌ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ:أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ،فَقَالَ:ادْنُهْ،فَدَنَا،فَقَالَ:مَنْ أَنْتَ ؟ فَتَسَمَّى لَهُ الأَنْصَارِيُّ،فَفَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالدُّعَاءِ،فَأَكْثَرَ مِنْهُ . قَالَ أَبُو رَيْحَانَةَ:فَلَمَّا سَمِعْتُ مَا دَعَا بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،فَقُلْتُ:أَنَا رَجُلٌ آخَرُ،فَقَالَ:ادْنُهْ فَدَنَوْتُ،فَقَالَ:مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ:فَقُلْتُ:أَنَا أَبُو رَيْحَانَةَ،فَدَعَا بِدُعَاءٍ هُوَ دُونَ مَا دَعَا لِلأَنْصَارِيِّ،ثُمَّ قَالَ:حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ،أَوْ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ،وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ." [82]

---

[79] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٣ / ٧٧٨)(١٠٧٨٦) ١٠٧٩٦- حسن

[80] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٨ / ٧٢٩)(٢٧٠٤٠) ٢٧٥٨٠- حسن لغيره

[81] - شعب الإيمان - (٦ / ٩٩)(٣٩٢٩) ومسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٢١٦)(٤٦٣- حسن

[82] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٨٦١)(١٧٢١٣) ١٧٣٤٥- حسن لغيره

وَذَكَرَ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذ،عَنْ أَبِيه،عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ:مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلمينَ في سَبِيلِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَطَوِّعًا،لاَ يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ،لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنَيْه،إِلاَّ تَحلَّةَ الْقَسَمِ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {وَإِنْ منْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا}."[٨٣]

وعَنْ زَيْد يَعْنِي ابْنَ سَلَّامٍ،أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّامٍ،قَالَ:حَدَّثَنَا السَّلُولِيُّ،أَنَّهُ حَدَّثَهُ سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّة " أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ حَتَّى كَانَ عَشيَّةً،فَحَضَرَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ عنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ،فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّه،إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْديكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا،فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَة آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ،وَنَعَمِهِمْ،وَشَائِهِمُ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ،فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ،وَقَالَ:" تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلمينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ "،ثُمَّ قَالَ:" مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ ؟ " قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَد الْغَنَوِيُّ:أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه،قَالَ:" فَارْكَبْ "،فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ،وَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ،وَلَا تُغَرَّنَّ مَنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ "،فَلَمَّا أَصْبَحْنَا،خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِلَى مُصَلَّاهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ:" هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟ " قَالُوا:يَا رَسُولَ اللَّه،مَا أَحْسَسْنَاهُ،فَثُوِّبَ بِالصَّلَاة،فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ،حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ،قَالَ:" أَبْشِرُوا،فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ "،فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى الشَّجَرَة فِي الشِّعْبِ،فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ،فَسَلَّمَ فَقَالَ:إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى هَذَا الشِّعْبِ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ،فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كِلَيْهِمَا فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ ؟ " قَالَ:لَا،إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيَ حَاجَةٍ،فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" قَدْ أَوْجَبْتَ،فَلَا عَلَيْكَ أَلَّا تَعْمَلَ بَعْدَهَا " [٨٤]

---

[٨٣] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٣٧١)(١٥٦١٢) ١٥٦٩٧- حسن

[٨٤] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٨٨٣) حسن

أطنبوا السير:بالغوا فيه وتبع بعض الإبل بعضا -الظعن:جمع ظعينة وهي المرأة،وقيل:المرأة في الهودج - النعم:الإبل والشاء،وقيل الإبل خاصة -التثويب:الدعاء إلى الصلاة،وإقامتها،وقول المؤذن وترديده في الفجر:الصلاة خير من النوم - الشعب:الطريق في الجبل أو الانفراج بين الجبلين

وعَنْ أَبِي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،قَالَ:حَاصَرْنَا قَصْرَ الطَّائِف،فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّـــه ﷺ،يَقُولُ:مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّه فَلَهُ عَدْلُ مُحَرَّرٍ،وَمَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّه فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّة فَبَلَغْتُ فِي يَوْمٍ سِتَّةَ عَشَرَ سَهْمًا " [85]

وعَنْ أَبِي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ،قَالَ:حَاصَرْنَا مَعَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ حِصْنَ الطَّائِف،فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّة قَالَ:فَبَلَغْتُ يَوْمَئِذ سِتَّةَ عَشَرَ سَهْمًا،فَسَـــمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ عِدْلُ مُحَرَّرٍ،وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَة،وَأَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلاً مُسْلِمًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامه عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِه مِنَ النَّار،وَأَيُّمَا امْـــرَأَة مُسْلِمَة أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً،فإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ وَفَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهَا مِنَ النَّار."[86]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:غَيْرَتَان:إِحْدَاهُمَا يُحِبُّهَا اللَّهُ،وَالأُخْرَى يُبْغِضُهَا اللَّهُ،وَمَخِيلَتَان:إِحْدَاهُمَا يُحِبُّهَا اللَّهُ،وَالأُخْرَى يُبْغِضُهَا اللَّهُ،الْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَة يُحِبُّهَـــا اللَّهُ،وَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِه يُبْغِضُهَا اللَّهُ،وَالْمَخِيلَةُ إِذَا تَصَدَّقَ الرَّجُلُ يُحِبُّهَا اللَّهُ،وَالْمَخِيلَـــةُ فِـــي الْكِبْرِ يُبْغِضُهَا اللَّهُ.

وَقَالَ:ثَلاَثٌ مُسْتَجَابٌ لَهُمْ دَعْوَتُهُمْ:الْمُسَافِرُ،وَالْوَالِدُ،وَالْمَظْلُومُ.

وَقَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ ثَلاَثَةً:صَانِعَهُ،وَالْمُمِدَّ بِهِ،وَالرَّامِيَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه عز وجل." رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ[87]

وَعِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ عَنِ الْمُغِيرَة بْنِ نَهِيك أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِىَّ يَقُـــولُ سَـــمِعْتُ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - يَقُولُ « مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْىَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ عَصَانِى »[88].

---

[85] - المستدرك للحاكم (٢٥٦٠) صحيح

[86] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٨٠٧)(١٧٠٢٢) ١٧١٤٧- صحيح

[87] - شرح السنة للبغوي - (٢٥٤٦) ومسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٩١١)(١٧٣٩٨) ١٧٥٣٣- والمســند الجامع - (١٣ / ٨٦) (٩٨٧٩) صحيح

[88] - سنن ابن ماجه- المكنز - (٢٩٢١) حسن

من علم الرمي أي رمي النشاب ثم تركه فليس منا أي من علم رمي السهم ثم تركه فليس مـــن المـــتخلقين بأخلاقنـــا والعاملين بسنتنا أو ليس متصلا بنا ولا داخلا في زمرتنا وهذا أشد ممن لم يتعلمه لأنه لم يدخل في زمرهم وهذا دخل ثم

وَذَكَرَ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ،أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ فَقَالَ:أَوْصِنِي . فَقَالَ:سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ،أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ،فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ،وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ،فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلاَمِ،وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ،فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ،وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ.".[89]

وَقَالَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ،أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلاَمِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. "[90]

وَقَالَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « ثَلاَثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُكَاتَبُ الَّذِى يُرِيدُ الأَدَاءَ وَالنَّاكِحُ الَّذِى يُرِيدُ الْعَفَافَ »[91].

وَقَالَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ »[92].

وَذَكَرَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ:« مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ ». قَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِى حَدِيثِهِ:« قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[93].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ،يَقُولُ:" إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ،وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ،وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَتَبَايَعُوا بِالْعِينِ،أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءَ،فَلَا يَرْفَعُهُ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ " [94].

خرج فكأنه استهزاء به وهو كفران لتلك النعمة الخطيرة فيكره ذلك كراهة شديدة لما في التهديد من التشديد وثم للتراخي في الرتبة يعني رتبة الترك متراخية عن رتبة التعلم فلا يقدر عليها لا للتراخي في الزمن للحوق الوعيد له وإن كان الترك عقب التعلم وهذا تشديد عظيم في نسيانه بعد تعلمه اهـ فيض القدير ج:٦ ص:١٨١

[89] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ٢٠٦)(١١٧٧٤) ١١٧٩٦- حسن

[90] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٣٥٩)(٢٢٠٥١) ٢٢٤٠١- حسن

[91] - سنن الترمذى- المكنز - (١٧٥٦) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

[92] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٤٠) ومسند أحمد (عالم الكتب) - (٣ / ٣٨٢) (٨٨٦٥) ٨٨٥٢-
وَالْمُرَاد أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ الْجِهَاد فِي هَذَا الْوَصْف،فَإِنَّ تَرْك الْجِهَاد أَحَد شُعَب النِّفَاق .وَفِي هَذَا الْحَدِيث:أَنَّ مَنْ نَوَى فِعْل عِبَادَة فَمَاتَ قَبْل فِعْلهَا لَا يَتَوَجَّه عَلَيْهِ مِنْ الذَّمّ مَا يُتَوَجَّه عَلَى مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَنْوِهَا .شرح النووي على مسلم - (٦ / ٣٩١)

[93] - سنن أبي داود - المكنز - (٢٥٠٥) حسن

[94] - شعب الإيمان - (٦ / ٩٢) (٣٩٢٠) صحيح

وَذَكَرَ ابْنُ مَاجَهْ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « مَنْ لَقِىَ اللَّهَ وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَقِىَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ »[95].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (١٩٥) سورة البقرة وَفَسّرَ أَبُو أَيّوبَ الْأَنْصَارِيّ الْإِلْقَاءَ بِالْيَدِ إِلَى التّهْلُكَةِ بِتَرْكِ الْجِهَادِ،فعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ،قَالَ:"غَزَوْنَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ،وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ،وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى الْعَدُوِّ،فَقَالَ النَّاسُ:مَهْ مَهْ،لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ،يُلْقِي بِيَدَيْهِ،فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ:إِنَّمَا تُأَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَكَذَا،إِنْ حَمَلَ رَجُلٌ يَلْتَمِسُ الشَّهَادَةَ أَوْ يُبْلَى مِنْ نَفْسِهِ،إِنَّمَا نَزَلَتِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ،إِنَّا لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ،وَأَظْهَرَ الإِسْلامَ،قُلْنَا بَيْنَنَا خَفِيًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:إِنَّا كُنَّا قَدْ تَرَكْنَا أَهْلَنَا وَأَمْوَالَنَا أَنْ نُقِيمَ فِيهَا وَنُصْلِحَهَا حَتَّى يَنْصُرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ،هَلْ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْخَبَرَ مِنَ السَّمَاءِ:" وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ "وَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ:أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ"،وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ:فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ[96]"

وَصَحّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ،قَالَ:سَمِعْتُ أَبِي،يَقُولُ وَهُوَ بِحِصْنِ الْعَدُوِّ أَوْ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ:قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ،فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ،فَقَالَ:يَا أَبَا مُوسَى أَنْتَ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُهُ ؟ قَالَ:نَعَمْ،قَالَ:فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ،فَقَالَ:أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلاَمَ،ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ،فَأَلْقَاهُ،ثُمَّ مَضَى بِسَيْفِهِ قُدُمًا،فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ.[97].

---

[95] – سنن ابن ماجه– المكنز – (٢٨٦٨) ضعيف

(وليس له أثر) أي عمل بأن غزا أو جهز غازيا أو خلفه بخير – (ثلمة) أي نقصان

[96] – تفسير ابن أبي حاتم – (٢ / ٤)(١٧٧٦) صحيح

[97] – صحيح مسلم– المكنز – (٥٠٢٥) وسنن الترمذى– المكنز – (١٧٦٠) صحيح ابن حبان – (١٠ / ٤٧٨) (٤٦١٧) –الجفن:الغمد –الرث:الخلق البالى

وعَنْ أَبِي مُوسَى،قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،فَقَالَ:الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ،وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ،فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ:" مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ أَعَلَى،فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ " [98].

وَصَحّ عَنْهُ إنّ النّارَ أَوّلُ مَا تُسَعّرُ بِالْعَالِمِ وَالْمُنَفِّقِ وَالْمَقْتُولِ فِي الْجِهَادِ إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقَالَ ،فعن عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ،حَدَّثَهُ أَنَّ شُفَيًّا الأَصْبَحِيَّ حَدَّثَهُ،أَنَّهُ دَخَلَ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ،فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَد اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ،فقَالَ:مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا:أَبُو هُرَيْرَةَ،قَالَ:فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ،وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ،فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلاَ،قُلْتُ لَهُ:أَنْشُدُكَ بِحَقِّي لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ. فقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَفْعَلُ،لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ،ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَثَ قَلِيلاً،ثُمَّ أَفَاقَ،فقَالَ:لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ،ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى،فَمَكَثَ كَذَلِكَ،ثُمَّ أَفَاقَ،فَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ،فقَالَ:أَفْعَلُ،لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ،وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ،ثُمَّ نَشَغَ نَشْغَةً شَدِيدَةً،ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ،وَاشْتَدَّ بِهِ طَوِيلاً،ثُمَّ أَفَاقَ،فقَالَ:حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ،يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ،وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ.فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ،وَرَجُلٌ،يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ،وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ،فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَارِئِ:أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ﷺ ؟ قَالَ:بَلَى يَا رَبِّ،قَالَ:فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ ؟ قَالَ:كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ،فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ:كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ:كَذَبْتَ،وَيَقُولُ اللَّهُ:بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:فُلاَنٌ قَارِئٌ،فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ ؟ قَالَ:بَلَى يَا رَبِّ،قَالَ:فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ ؟ قَالَ:كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:كَذَبْتَ،وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ لَهُ:كَذَبْتَ،وَيَقُولُ اللَّهُ:بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُ،قَالَ:فُلاَنٌ جَوَادٌ،فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ

---

[98] - شعب الإيمان - (٦ / ١٢٣) (٣٩٥٨) وصحيح البخارى- المكنز - (١٢٣) وصحيح مسلم- المكنز - (٥٠٢٨)

فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ:فِي مَاذَا قُتِلْتَ ؟ فَيَقُولُ:أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ،فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ،فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ:كَذَبْتَ،وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ:كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ:بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ:فُلاَنٌ جَرِئٌ،فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رُكْبَتِي،فقَالَ:يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي الْوَلِيدِ:فَأَخْبَرَنِي عُقْبَةُ أَنَّ شُفَيًّا هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا الْخَبَرِ.قَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْوَلِيدُ وَحَدَّثَنِي الْعَلاَءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ،أَنَّهُ كَانَ سَيَّافًا لِمُعَاوِيَةَ،قَالَ:فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ،فَحَدَّثَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،فقَالَ مُعَاوِيَةُ:قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلاَءِ مِثْلُ هَذَا،فَكَيْفَ بِمَ[99]نْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ ؟ "[100]

وَصَحّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،أَنَّ رَجُلًا قَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا،فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَا أَجْرَ لَهُ " . فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ،وَقَالُوا لِلرَّجُلِ:عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ،فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ،رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا،فَقَالَ:" لَا أَجْرَ لَهُ " . فَقَالُوا:لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ،فَقَالَ لَهُ:الثَّالِثَةَ . فَقَالَ لَهُ:" لَا أَجْرَ لَهُ "

وَصَحّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو[101]،قَالَ:قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو:يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَخْبِرْنِي عَنِ الْجِهَادِ وَالْغَزْوِ ؟ فَقَالَ:" يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،إِنْ قَاتَلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا،بَعَثَكَ اللَّهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا،وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا بَعَثَكَ اللَّهُ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا،يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو،عَلَى أَيِّ حَالٍ قَاتَلْتَ،أَوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ " .[102]

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين،جديرة بالوقوف أمامها طويلا. ولكننا في هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى:هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين ..

---

[99] - سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٢١٩٨) صحيح لغيره

[100] - صحيح ابن حبان - (٢ / ١٣٥) (٤٠٨) والمستدرك للحاكم(١٥٢٧) صحيح

[101] - سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٢٢٠٠) صحيح

[102] - زاد المعاد - (ج ٣ / ص ٦٢) بطوله،وقد اختصره الشهيد رحمه الله،فجئت به كاملاً

فهو حركة تواجه واقعا بشريا .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي .. إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية عملية تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل .. إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي. كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد .. وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده كما سيجيء ..

والسمة الثانية في منهج هذا الدين .. هي الواقعية الحركية.

فهو حركة ذات مراحل. كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية. وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها .. فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد،ولا يراعون هذه السمة فيه،ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج،وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها .. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا،ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية.

ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا يمثل القواعد النهائية في هذا الدين. ويقولون – وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان –:إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخلية عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا،وتعبيد الناس للّه وحده،وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته. ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة .. بعد

تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة،أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها ..

والسمة الثالثة:هي أن هذه الحركة الدائبة،والوسائل المتجددة،لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة،ولا عن أهدافه المرسومة.

فهو منذ اليوم الأول – سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين،أو يخاطب قريشا،أو يخاطب العرب أجمعين،أو يخاطب العالمين،إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد .. هو إخلاص العبودية للّه،والخروج من العبودية للعباد .. لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين.

ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد،في خطة مرسومة ذات مراحل محددة لكل مرحلة وسائلها المتجددة على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة.

والسمة الرابعة:هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى

على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن «زاد المعاد». وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام للّه هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي،أو قوة مادية. وأن تخلي بينه وبين كل فرد،يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته. ولكن لا يقاومه ولا يحاربه! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه! والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن «الجهاد في الإسلام» ليدفعوا عن الإسلام هذا «الاتهام!».

يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة،وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية للّه .. وهما أمر أن لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما .. ومن أجل هذا التخليط – وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! – يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم:«الحرب الدفاعية» .. والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم،ولا بواعثها،ولا تكييفها كذلك .. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي

تلمسها في طبيعة «الإسلام» ذاته،ودوره في هذه الأرض،وأهدافه العليا التي قررهـا اللّـه وذكر اللّه أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة،وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات ..

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبـاد – ومـن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية اللّه وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين .. إن إعلان ربوبية اللّه وحده للعالمين معناها:الثورة الشـاملة علـى حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كـل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور .. أو بتعبير آخر مرادف:

الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور .. ذلك أن الحكم الذي مـرد الأمـر فيـه إلى البشر،ومصدر السلطات فيه هم البشر،هو تأليه للبشر،يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون اللّه .. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان اللّه المغتصب ورده إلى اللّه وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم النـاس منهم مقام العبيد .. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة اللّه في الأرض ..

أو بالتعبير القرآني الكريم:«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ» ..

«إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ..» ..

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ:أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْـرِكَ بِـهِ شَيْئاً،وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا:اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

ومملكة اللّه في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم – هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة،ولا رجال ينطقون باسم الآلهة،كما كان الحال في ما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس!!! – ولكنها تقوم بأن تكـون شريعة اللّه هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى اللّه وفق ما قرره من شريعة مبينة.

وقيام مملكة اللّه في الأرض،وإزالة مملكة البشر. وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه مـن العباد ورده إلى اللّه وحده. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان.

لأن المتسلطين على رقاب العباد،المغتصبين لسلطان اللّه في الأرض،لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان. وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين اللّه في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال! إن هذا الإعلان العام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل سلطان غير سلطان اللّه،بإعلان ألوهية اللّه وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا .. إنما كان إعلانا حركيا واقعيا إيجابيا .. إعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة اللّه ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده بلا شريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل «الحركة» إلى جانب شكل «البيان» .. ذلك ليواجه «الواقع» البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

والواقع الإنساني،أمس واليوم وغدا،يواجه هذا الدين – بوصفه إعلانا عاما لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل سلطان غير سلطان اللّه – بعقبات اعتقادية تصورية. وعقبات مادية واقعية .. عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية،إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

وإذا كان «البيان» يواجه العقائد والتصورات،فإن «الحركة» تواجه العقبات المادية الأخرى – وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية،والعنصرية والطبقية،والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة .. وهما معا – البيان والحركة – يواجهان «الواقع البشري» بجملته،بوسائل مكافئة لكل مكوناته .. وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض .. «الإنسان» كله في «الأرض» كلها .. وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى! إن هذا الدين ليس إعلانا لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب! .. إن موضوعه هو «الإنسان» .. نوع «الإنسان» .. ومجاله هو «الأرض» .. كل الأرض. إن اللّه – سبحانه – ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم .. إن اللّه هو «رب العالمين» .. وهذا الدين يريد أن يرد «العالمين» إلى ربهم وأن ينتزعهم من

العبودية لغيره. والعبودية الكبرى – في نظر الإسلام – هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر .. وهذه هي «العبادة» التي يقرر أنها لا تكون إلا للّه. وأن من يتوجه بها لغير اللّه يخرج من دين اللّه مهما ادعى أنه في هذا الدين. ولقد نص رسول اللّه – ﷺ– على أن «الاتباع» في الشريعة والحكم هو «العبادة» التي صار بها اليهود والنصارى «مشركين» مخالفين لما أمروا به من «عبادة» اللّه وحده ..

أخرج الترمذي عَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ –ﷺ– وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ « يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ »[١٠٣] ....

وعَنْ حُذَيْفَةَ ، فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ } [التوبة:٣١] ، قَالَ:" أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي الْمَعَاصِي "[١٠٤].

وقال أَبُو الْبَخْتَرِيِّ الطَّائِيُّ:قَالَ لِي حُذَيْفَةُ:" أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ:" أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يُصَلُّوا لَهُمْ،وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَا أَحَلُّوا لَهُمْ مِنْ حَرَامٍ اسْتَحَلُّوهُ،وَمَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَرَامِ حَرَّمُوهُ فَتِلْكَ رُبُوبِيَّتُهُمْ "[١٠٥] ....

وتفسير رسول اللّه – ﷺ– لقول اللّه سبحانه،نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين،وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابا لبعض .. الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه،ويعلن تحرير «الإنسان»،في «الأرض» من العبودية لغير اللّه .. ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في «الأرض» لإزالة «الواقع» المخالف لذلك الإعلان العام .. بالبيان وبالحركة مجتمعين .. وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي

---

[١٠٣] – سنن الترمذى- المكنز – (٣٣٧٨) وشعب الإيمان – (١٢ / ٢٢) (٨٩٤٨) حسن لغيره

[١٠٤] – شعب الإيمان – (١٢ / ٢٢) (٨٩٤٨) ومصنف ابن أبي شيبة – (١٣ / ٤٢٢)(٣٦٠٨٤) والتفسير من سنن سعيد بن منصور – (٣ / ٣١٣) (٩٥٩) صحيح

[١٠٥] – التفسير من سنن سعيد بن منصور – (٣ / ٣١٣) (٩٥٩) والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي – (٢ / ٣٤٨) (٧٤٩) صحيح

تعبد الناس لغير اللّه – أي تحكمهم بغير شريعة اللّه وسلطانه – والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى «البيان» واعتناق «العقيدة» بحرية لا يتعرض لها السلطان.

ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي – بعد إزالة القوة المسيطرة – سواء كانت سياسية بحتة،أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد! إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته .. ولكن الإسلام ليس مجرد «عقيدة» ..

إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد. فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان .. ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا – بالفعل – في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم – بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم – ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدا للعباد! وأن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه! .. إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية للّه وحده وذلك بتلقي الشرائع منه وحده. ثم ليعتنق كل فرد – في ظل هذا النظام العام – ما يعتنقه من عقيدة! وبهذا يكون «الدين» كله للّه. أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها للّه .. إن مدلول «الدين» أشمل من مدلول «العقيدة» .. إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة. ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة .. وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية للّه وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام ..

والذي يدرك طبيعة هذا الدين – على النحو المتقدم – يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان – ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية – بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح «الحرب الدفاعية» – كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام – إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير «الإنسان»

في «الأرض» .. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري وفي مراحل محـــددة لكـــل مرحلة منها وسائلها المتجددة.

وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية،فلا بد أن نغير مفهوم كلمة «دفاع».

ونعتبره «دفاعا عن الإنسان» ذاته،ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتعوق تحرره .. هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات كما تتمثل في الأنظمة السياسية،القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية،التي كانت سائدة في الأرض كلـــها يـــوم جـــاء الإسلام والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هـــذا الزمـــان! وبهـــذا التوسع في مفهوم كلمة «الدفاع» نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في «الأرض» بالجهاد ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها،وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان مـــن العبودية للعباد،وتقرير ألوهية اللّه وحده وربوبيته للعالمين وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض،وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان ..

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صـــد العدوان من القوى المجاورة على «الوطن الإسلامي!» – وهو في عرف بعضـــهم جزيـــرة العرب – فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين،ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض. كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشـــراقي الماكر على الجهاد الإسلامي! ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان – رضي اللّه عنـــهم – قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد،وأمام الدعوة تلك العقبات المادية – مـــن أنظمة الدولة السياسية وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية،والاقتصادية الناشئة من الاعتبـــار ات العنصرية والطبقية،والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟! إنها سذاجة أن يتصـــور الإنسان دعوة تعلن تحرير «الإنسان» .. نوع الإنسان .. في «الأرض» .. كل الأرض .. ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان! .. إنها تجاهد باللسان والبيان حينمـــا

يخلى بينها وبين الأفراد،تخاطبهم بحرية،وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات .. فهنا «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ»

أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية،فلا بد من إزالتها أولا بالقوة،للتمكن مـــن مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من هذه الأغلال! إن الجهاد ضرورة للـــدعوة. إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئـــة له في كل جوانبه ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي! سواء كان الوطن الإسلامي – وبالتعبير الإسلامي الصحيح:دار الإسلام – آمنا أم مهددا من جيرانه. فالإسلام حـــين يسعى إلى السلم،لا يقصد تلك السلم الرخيصة وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية. إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كلـــه للّـــه. أي تكون عبودية الناس كلهم فيها للّه والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه. والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام – بأمر من اللّه – لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها .. ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمـــام ابـــن القيم:«فاستقر أمر الكفار معه – بعد نزول براءة – على ثلاثة أقسام:محـــاربين لـــه،وأهل عهد،وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصـــلح إلى الإســـلام .. فصـــاروا معـــه قسمين:محاربين،وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه ..

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:مسلم مؤمن به. ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب» .. وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هـــذا الدين وأهدافه. لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر،وأمام هجـــوم المستشـــرقين الماكر!

ولقد كف اللّه المسلمين عن القتال في مكة وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينـــة .. وقيـــل للمسلمين:«كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ» .. ثم أذن لهم فيه،فقيل لهم:«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا،وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ،الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْـــرِ حَقٍّ – إِلَّا أَنْ يَقُولُوا:رَبُّنَا اللَّهُ. وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَـــعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً،وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ،إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ،وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» .. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ» .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم:«وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» .. وقيل لهم:«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ،حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ» ..

فكان القتال – كما يقول الإمام ابن القيم – «محرما،ثم مأذونا به،ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال،ثم مأمورا به لجميع المشركين» ..

إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام،وعلى مدى طويل من تاريخه .. إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي! ومن ذا الذي يسمع قول اللّه سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله – ﷺ- ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ثم يظنه شأنا عارضا مقيدا بملابسات تذهب وتجيء ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود؟! لقد بين اللّه للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض،لدفع الفساد عن الأرض:«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا،وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ. وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» .. وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة. الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض. وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية اللّه للعالمين،وتحرير الإنسان من العبودية للعباد،رماه المغتصبون لسلطان اللّه في الأرض ولم يسالموه قط وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن «الإنسان» في «الأرض» ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله للّه.

إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة. كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة.

والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة .. هذا هدف أولي لا بد منه .. ولكنه ليس الهدف الأخير .. إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ويؤمن قاعدة الانطلاق ..

الانطلاق لتحرير «الإنسان»،ولإزالة العقبات التي تمنع «الإنسان» ذاته من الانطلاق! وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم. لأنه كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ ..

كان صاحبها - ﷺ- يملك بحماية سيوف بني هاشم،أن يصدع بالدعوة ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ويواجه بها الأفراد .. لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة،أو تمنع الأفراد من سماعه! فلا ضرورة - في هذه المرحلة - لاستخدام القوة. وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة[١٠٦].



[١٠٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٩١٣]

إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أصل الجهاد في الإسلام يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد،وردهم جميعا إلى عبادة اللّه وحده وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير اللّه،والخضوع لسلطان غير سلطانه،والتحاكم إلى شرع غير شرعه ..

ومن ثم نراهم يقولون مثلا:إن اللّه سبحانه يقول:«وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» ..

ويقول:«لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ» ..

ويقول:«وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» ...ويقول عن أهل الكتاب:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) } [آل عمران:٦٤،]..

فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين.وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها! ومعنى ذلك – في تصورهم المهزوم – أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض.ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون اللّه.ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه في الأرض كلها ما دام هو آمنا داخل حدوده الإقليمية! وهو سوء ظن بالإسلام وسوء ظن باللّه – سبحانه! – تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم،وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة! وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوى لا يحيلون

هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من بعدهم عن الإسلام أصلا! ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين اللّه القوي المتين! إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا.وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة.وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام.ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين ..إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها،حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة،والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية.

إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين:« بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ،وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ.وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ،فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ،وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ.إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً،وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً،فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ،فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ،ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ»..

وتقول في شأن أهل الكتاب:«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ،حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ» ..

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم – اللحظة وموقتا – غير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها – ولهم في الأحكام المرحلية سعة

يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عند ما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها ..ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية.وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين اللّه القوي المتين.وعليهم أن يتقوا اللّه في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام! إنه دين السلم والسلام فعلا،ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير اللّه،وإدخال البشرية كافة في السلم كافة ..إنه منهج اللّه هذا الذي يراد البشر على الارتفاع إليه،والاستمتاع بخيره وليس منهج عبد من العبيد ولا مذهب مفكر من البشر حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله لإطلاق الحرية للناس أفرادا في اختياره ..

إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا.فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا،ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين،ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر! فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية،ووضع العبودية فيه للّه وحده وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد ..فإن الأمر يختلف من أساسه.ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ويحرر البشر من العبودية للعباد ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة للّه وحده.

والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى ليحرر البشر في الأرض كلها من العبودية لغير اللّه.ينسون هذه الحقيقة الكبرى ..

وهي أن هناك منهجا ربانيا العبودية فيه للّه وحده يواجه مناهج بشرية العبودية فيها للعبيد!!!

إن للجهاد المطلق في هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهي فليراجعها المهزومون الذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين[107].

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول،على حين أن اللّه سبحانه يقول:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..

ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام - وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب:«الجهاد في سبيل اللّه» للأستاذ أبي الأعلى المودودي،ما يكفي للبيان الواضح .. إلا أننا نزيد الأمر إيضاحا،وذلك لكثرة ما لبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين! إن الذي يعنيه هذا النص:«ويكون الدين كله للّه» .. هو إزالة الحواجز المادية،المتمثلة في سلطان الطواغيت،وفي الأوضاع القاهرة للأفراد،فلا يكون هناك - حينئذ - سلطان في الأرض لغير اللّه،ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان اللّه .. فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفرادا يختارون عقيدتهم أحرارا من كل ضغط. على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين،ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى،ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان اللّه .. إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم،على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفرادا،فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد. فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد.

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها اللّه،ولن يتحرر «الإنسان» في «الأرض»،إلا حين يكون الدين كله للّه،فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه.

ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة:«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» ..

فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له،قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه،و لم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره،وتركوا هذا للّه:«فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان اللّه قاتله المسلمون معتمدين على نصرة اللّه:«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ. نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» ..

---

[107] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢١٣٥] ويراجع في تقديم سورة الأنفال ما ورد عن مبررات الجهاد الإسلامي ص ١٤٣١ - ١٤٥٢ من الجزء التاسع.

هذه تكاليف هذا الدين وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاتـه في عالم الواقع ولتقرير ألوهية اللّه وحده في دنيا الناس ..

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة! وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى! كما أنه ليس مجـرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه! إن هذا الدين إعـلان عـام لتحريـر الإنسان .. وهو منهج حركي واقعي،يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة ..

يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان .. ويواجه حواجز الأوضـاع والسـلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان اللّه ..

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري. والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صـراع نظري يقابل

بنظرية! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة،ولا بد - كي يقابلـها هـذا الـدين بوسائل مكافئة - أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة. ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكـون الدين كله للّه،فلا تكون هناك دينونة لسواه.

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين .. لا ما يقوله المهزومون والمخـدوعون .. ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من «المسلمين»،ولكن تغـيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين![١٠٨] ..

وقال تعالى:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَـا حَـرَّمَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُـمْ صَاغِرُونَ } [التوبة:٢٩]

هذه الآية - والآيات التالية لها في السياق - كانت تمهيدا لغزوة تبوك ومواجهـة الـروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين العرب ..وذلك يلهم أن الأوصاف الواردة فيهـا هـي صفات قائمة بالقوم الموجهة إليهم الغزوة وأنها إثبات حالة واقعة بصفاتها القائمة.وهذا ما يلهمه السياق القرآني في مثل هذه المواضع ..فهذه الصفات القائمة لم تذكر هنا على أنهـا

---

[١٠٨] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٤٢]

شروط لقتال أهل الكتاب إنما ذكرت على أنها أمور واقعة في عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم.ومثلهم في هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم ..

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة:

أولا:أنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر.

ثانيا:أنهم لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله.

ثالثا:أنهم لا يدينون دين الحق.

ثم بين في الآيات التالية كيف أنهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر،ولا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحق.وذلك بأنهم:

أولا:قالت اليهود عزير ابن اللّه وقالت النصارى المسيح ابن اللّه وأن هذا القول يضاهئ قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين.فهم مثلهم في هذا الاعتقاد الذي لا يعد صاحبه مؤمنا باللّه ولا باليوم الآخر.

(وسنين بالضبط كيف أنه لا يؤمن باليوم الآخر)،ثانيا:اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه،والمسيح ابن مريم.وأن هذا مخالف لدين الحق ..وهو الدينونة للّه وحده بلا شركاء ..فهم بهذا مشركون لا يدينون دين الحق ..

ثالثا:يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم.فهم محاربون لدين اللّه.ولا يحارب دين اللّه مؤمن باللّه واليوم الآخر يدين دين الحق أبدا.

رابعا:يأكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل.فهم إذن لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله (سواء كان المقصود برسوله رسولهم أو محمد ﷺ):

وهذه الصفات كلها كانت واقعة بالقياس إلى نصارى الشام والروم.كما أنها واقعة بالقياس إلى غيرهم منذ أن حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام وقالت ببنوة عيسى عليه السلام،وبتثليث الأقانيم - على كل ما بين المذاهب والفرق من خلاف يلتقي كله على التثليث! - على مدار التاريخ حتى الآن! وإذن فهو أمر عام،يقرر قاعدة مطلقة في التعامل مع أهل الكتاب،الذين تنطبق عليهم هذه الصفات التي كانت قائمة في نصارى

العرب ونصارى الروم ..ولا يمنع من هذا العموم أن الأوامـــر النبويـــة اســـتثنت أفـــرادا وطوائف بأعيانها لتترك بلا قتال كالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبـــان الـــذين حبسوا أنفسهم في الأديرة ...بوصفهم غير محاربين – فقد منع الإسلام أن يقاتـــل غـــير المحاربين من أية ملة – وهؤلاء لم تستثنهم الأوامر النبوية لأنهم لم يقع منهم اعتداء بالفعل على المسلمين.ولكن لأنه ليس من شأنهم أصلا أن يقع منهم الاعتداء .فلا محل لتقييد هذا الأمر العام بأن المقصود به هم الذين وقع منهم اعتداء فعلا – كما يقول المهزومون الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام الاتهام! – فالاعتداء قائم ابتداء.الاعتداء على ألوهية اللّه! والاعتداء على العباد بتعبيدهم لغير اللّه! والإسلام حين ينطلق للدفاع عن ألوهية اللّـــه – سبحانه – والدفاع عن كرامة الإنسان في الأرض،لا بد أن تواجهه الجاهليـــة بالمقاومـــة والحرب والعداء ..ولا مفر من مواجهة طبائع الأشياء!

إن هذه الآية تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» ..والذي يقول ببنوة عزير للّه أو بنوة المسيح للّه لا يمكن أن يقـــال عنـــه:إنـــه يـــؤمن باللّه.وكذلك الذي يقول:إن اللّه هو المسيح ابن مريم.أو إن اللّه ثالث ثلاثـــة.أو إن اللّـــه تجسد في المسيح ...إلى آخر التصورات الكنسية التي صاغتها المجامع المقدسة على كل مـــا بينها من خلاف! ..والذين يقولون:إنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهم أبناء اللّه وأحباؤه وشعب اللّه المختار،والذين يقولون:إن كل معصـــية تغفر بالاتحاد بالمسيح وتناول العشاء المقدس وأنه لا مغفرة إلا عن هذا الطريـــق! هـــؤلاء وهؤلاء لا يقال:إنهم يؤمنون باليوم الآخر ..

وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم «لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».وســـواء كان المقصود بكلمة «رسوله» هو رسولهم الذي أرسل إلـــيهم،أو هـــو الـــنبي – ﷺ– فالفحوى واحدة.ذلك أن الآيات التالية فسرت هـــذا بـــأنهم يـــأكلون أمـــوال النـــاس بالباطل.وأكل أموال الناس بالباطل محرم في كل رسالة وعلى يد كل رســـول ..وأقـــرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطل هو المعاملات الربوية.وهو ما يأخذه رجال الكنيســـة مقابل «صك الغفران»! وهو الصد عن دين اللّه والوقوف في وجهه بالقوة وفتنة المؤمنين

عن دينهم.وهو تعبيد العباد لغير اللّه وإخضاعهم لأحكام وشرائع لم يترلها اللّه ..فهذا كله ينطبق عليه:«وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» ..وهذا كله قائم في أهل الكتاب،كما كان قائما يومذاك! كذلك تصفهم الآية بأهم «لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» ..وهذا واضح مما سبق بيانه.فليس بدين الحق أي اعتقاد بربوبية أحد مع اللّه.كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة اللّه،وتلقي الأحكام من غير اللّه،والدينونة لسلطان غير سلطان اللّه.وهذا كله قائم في أهل الكتاب،كما كان قائما فيهم يومذاك ..

والشرط الذي يشترطه النص للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا ..فلا إكراه في الدين.ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ..فما حكمة هذا الشرط،ولماذا كانت هذه هي الغاية التي ينتهي عندها القتال؟

إن أهل الكتاب بصفاقم تلك حرب على دين اللّه اعتقادا وسلوكا كما أهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج اللّه ومنهج الجاهلية الممثلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم – وفق ما تصوره هذه الآيات – كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم وعدم إمكان التعايش بين المنهجين وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين اللّه فعلا،وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لترول هذه الآية (وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا!).

والإسلام – بوصفه دين الحق الوحيد القائم في الأرض – لا بد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار،بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك.

وإذن فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية،وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه،هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا.

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا،بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع.فإن لم يقتنع بقي على عقيدته،وأعطى الجزية.لتحقيق عدة أهداف:

أولها:أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين اللّه الحق.

وثانيها:أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة (الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم) ويدفع عنها مـــن يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها:المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عــاجز عـــن العمل،بما في ذلك أهل الذمة،بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة.

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم.ولا عن مقادير هذه الجزية.ولا عن طريق ربطها ومواضع هذا الربط ..ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم،كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الـــذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها.[١٠٩]

إنها قضية تعتبر اليوم «تاريخية» وليست «واقعية» ..إن المسلمين اليوم لا يجاهدون! ..ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون! ..

إن قضية «وجود» الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى عــلاج! والمنـــهج الإسلامي – كما قلنا من قبل مرارا – منهج واقعي جاد يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق في عالم الواقع – لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة اللّه،ويصرّف حياته الفقه الإسلامي – ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث في أقضية لا وجود لهـــا بالفعـــل ويســـميهم «الأرأيتيين» الذين يقولون:«أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم؟» إن نقطة البـــدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام ..أن يوجد في بقعة من الأرض نـــاس يدينون دين الحق فيشهدوا أن لا إله إلا اللّه،وأن محمدا رسول اللّه ..ومن ثم يدينون للّـــه وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة ..ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان ..ويومئذ – ويومئذ فقط – سيكون هنـــاك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المســـلم وغيره من المجتمعات ..ويومئذ – ويومئذ فقط – يجـــوز الـــدخول في تلـــك المباحـــث

---

[١٠٩] – انظر التفاصيل في كتابي الخلاصة في أحكام أهل الذمة

الفقهية،والاشتغال بصياغة الأحكام،والتقنين للحالات الواقعة الـتي يواجهها الإسلام بالفعل،لا في عالم النظريات! وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية – من ناحية الأصل والمبدأ – فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامي.وعند هذا الحد نقف،فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احتراما لجدية المنهج الإسلامي وواقعيته وترفعه على هذا الهزال![110]



[110] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٢٠٣]

قال تعالى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } [التوبة: ٦]..

إن هذا يعني أن الإسلام حريص على كل قلب بشري أن يهتدي وأن يثوب وان المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان في دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان ذلك أنه في هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب ..وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب اللّه لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم!!!

ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم في دار الإسلام ..ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة وراء قمة ..وهذه منها ..هذه الحراسة للمشرك،عدو الإسلام والمسلمين ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين ..هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام! ..إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة،حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام للإسلام ..

والذين يتحدثون عن الجهاد في الإسلام فيصمونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد! والذين يهولهم هذا الاتهام ممن يقفون بالدين موقف الدفاع فيروحون يدفعون هذه التهمة بأن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعا عن أهله في حدوده الإقليمية! هؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى أن يتطلعوا إلى تلك القمة العالية التي يمثلها هذا التوجيه الكريم:«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ،ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ،ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ» ..

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون،وإجارة لمن يستجيرون،حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه ..ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التي تحول بين الأفراد وسماع كلام اللّه وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل اللّه فتحول بينهم وبين الهدى،كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد وتلجئهم إلى عبادة غير اللّه ..ومتى

حطم هذه القوى،وأزال هذه العقبات،فالأفراد – على عقيدتهم – آمنون في كنفه يعلمهم ولا يرهبهم ويجيرهم ولا يقتلهم ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم ..هذا كله وهم يرفضون منهج اللّه! وفي الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان! ثم يقف ناس يرون هذا في واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج اللّه بتشويه هذا المنهج وإحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام في وجه السيف والمدفع في هذا الزمان وفي كل زمان![111]



[111] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٦٨]

قال تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) }التوبة:٧ — ١١

إن المشركين لا يدينون للّه بالعبودية خالصة،وهم كذلك لا يعترفون برسالة رسوله.فكيف يجوز أن يكون لهؤلاء عهد عند اللّه وعند رسوله؟ إنهم لا يواجهون بالإنكار والجحود عبدا مثلهم،ولا منهجا من مناهج العبيد من أمثالهم.إنما هم يواجهون بالجحود خالقهم ورازقهم وهم يحادون اللّه ورسوله بهذا الجحود ابتداء ..فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند اللّه وعند رسوله؟

هذه هي القضية التي يثيرها هذا السؤال الاستنكاري ..وهي قضية تنصب على مبدأ التعاهد ذاته لا على حالة معينة من حالاته ..

وقد يستشكل على هذا بأنه كانت للمشركين عهود فعلا وبعض هذه العهود أمر اللّه بالوفاء بها.وأنه قد وقعت عهود سابقة منذ قيام الدولة المسلمة في المدينة.عهود مع اليهود وعهود مع المشركين.وأنه وقع عهد الحديبية في السنة السادسة للهجرة.وأن النصوص القرآنية في سور سابقة كانت تجيز هذه العهود وإن كانت تجيز نبذها عند خوف الخيانة ..فإذا كان مبدأ التعاهد مع المشركين هو الذي يرد عليه الإنكار هنا،فكيف إذن أبيحت تلك العهود وقامت حتى نزل هذا الاستنكار الأخير لمبدأ التعاهد؟! وهذا الاستشكال لا معنى له في ظل الفهم الصحيح لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي الذي أسلفنا الحديث عنه في مطالع هذه السورة وفي مطالع سورة الأنفال قبلها ..لقد كانت تلك المعاهدات

مواجهة للواقع في حينه بوسائل مكافئة له أما الحكم النهائي فهو أنه لا ينبغي أن يكـــون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله ..

كانت أحكاما مرحلية في طريق الحركة الإسلامية التي تســـتهدف ابتـــداء ألا يكـــون في الأرض شرك باللّه وأن تكون الدينونة للّه وحده ..ولقد أعلن الإسلام هدفه هذا منذ أول يوم و لم يخدع عنه أحدا.فإذا كانت الظروف الواقعية تقضي بأن يدع من يسالمونه ابتـــداء من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه وأن يوادع مـــن يريـــدون موادعتـــه في فتـــرة مـــن الفترات.وأن يعاهد من يريدون معاهدته في مرحلة من المراحل.فإنه لا يغفل لحظـــة عـــن هدفه النهائي الأخير كما أنه لا يغفل عن أن هذه الموادعات والمعاهدات من جانب بعض المشركين موقوتة من جانبهم هم أنفسهم.وأنهم لا بد مهاجموه ومحاربوه ذات يوم وأنهـــم لن يتركوه وهم يستيقنون من هدفه ولن يأمنوه على أنفسهم إلا ريثمـــا يســـتعدون لـــه ويستديرون لمواجهته ..ولقد قال اللّه للمسلمين منذ أول الأمر:«وَلا يَزالُونَ يُقـــاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ..وهي قولة الأبد التي لا تتخصـــص بـــزمن ولا بيئة! وقولة الحق التي لا تتعلق بظرف ولا حالة! ومع استنكار الأصـــل،فقد أذن اللّـــه – سبحانه – بإتمام عهود ذوي العهود الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا و لم يظاهروا علـــيهم أحدا إلى مدتها،مع اشتراط أن تكون الاستقامة على العهد – في هذه المدة – من المسلمين مقيدة باستقامة ذوي العهود عليها:«إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ،فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» ..

وهؤلاء الذين تشير الآية إلى معاهدتهم عند المسجد الحرام ليسوا طائفة أخرى غير التي ورد ذكرها من قبل في قوله تعالى:«إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» ..كما فهم بعض المفسرين المحدثين ..فهي طائفة واحدة ذكرت أول مرة بمناســـبة عمـــوم الـــبراءة وإطلاقها،لاستثنائها من هذا العموم.وذكرت مرة ثانية بمناسبة استنكار مبدأ التعاهد ذاتـــه مع المشركين مخافة أن يظن أن هذا الحكم المطلق فيه نســـخ للحكـــم الأول ..وذكـــرت التقوى وحب اللّه للمتقين هنا وهناك بنصها للدلالة على أن الموضوع واحـــد.كمـــا أن

النص الثاني مكمل للشروط المذكورة في النص الأول.ففي الأول اشتراط اســتقامتهم في الماضي،وفي الثاني اشتراط استقامتهم في المستقبل.وهي دقة بالغة في صياغة النصــوص – كما أسلفنا – لا تلحظ إلا بضم النصين الواردين في الموضوع الواحد،كما هــو ظـاهر ومتعين.

ثم يعود لاستنكار مبدأ التعاهد بأسبابه التاريخية والواقعية بعد استنكاره بأســبابه العقديــة والإيمانية ويجمع بين هذه وتلك في الآيات التالية:«كَيْفَ؟ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُــوا فيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ.اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّــهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ،إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.لا يَرْقُبُونَ فِــي مُــؤْمِنٍ إِلًّــا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» ..

كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه وعند رسوله وهــم لا يعاهــدونكم إلا في حــال عجزهم عن التغلب عليكم.ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيــل في غــير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم،وفي غير ذمة يرعونها لكم أو في غير تحرج ولا تذمم مــن فعل يأتونه معكم! فهم لا يرعون عهدا،ولا يقفون كذلك عند حد في التنكيل بكــم ولا حتى الحدود المتعارف عليها في البيئة والتي يذمون لو تجاوزوها.فهم لشدة ما يكنونه لكــم من البغضاء يتجاوزون كل حد في التنكيل بكم،لو أنهم قدروا عليكم.مهما يكن بيــنكم وبينهم من عهود قائمة.فليس الذي يمنعهم من أي فعل شائن معكم أن تكــون بيــنكم وبينهم عهود إنما يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم! ..وإذا كانوا اليوم – وأنتم أقوياء – يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد.فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد وتأبى أن تقيم على العهد فما بهم من وفاء لكم ولا ود! «وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ.اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ.إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» ..

وهذا هو الســبب الأصــيل لهــذا الحقــد الــدفين عليكم،وإضــمار عــدم الوفــاء بعهودكم،والانطلاق في التنكيل بكم – لو قدروا – من كل تحرج ومن كل تذمم ..إنــه الفسوق عن دين اللّه،والخروج عن هداه.فلقد آثروا على آيات اللّه التي جاءتهم ثمنا قلــيلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته.وقد كانوا يخــافون أن يضــيع

عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم! فصدوا عن سبيل اللّه بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات اللّه.صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم (فسيجيء أنهم أئمة الكفر) ..أما فعلهم هذا فهو الفعل السيئ الذي يقرر اللّه سوءه الأصيل:
«إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ!» ..

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم ..إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم ..إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها ..للإيمان ذاته ..كما هو المعهود في كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين،على مدار التاريخ والقرون ..فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل:«وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا» ..وكذلك قال رسول اللّه – ﷺ– لأهل الكتاب بتوجيه من ربه:«قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا باللّه؟» وقال سبحانه عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين:«وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».فالإيمان هو سبب النقمة،ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن،ولا يراعون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر:«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ». فصفة الاعتداء أصيلة فيهم ..تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه وتنتهي بالوقوف في وجهه وتربصهم بالمؤمنين وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة،إذا هم ظهروا عليهم وأمنوا بأسهم وقوتهم.وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم،ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم ..وهم آمنون ..!

ثم يبين اللّه كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين:«فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ،وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ».

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك.لا يقعدهم عهد معقود،ولا ذمة مرعية،ولا تحرج من مذمة،ولا إبقاء على صلة ..ووراء هذا التقرير تاريخ طويل،يشهد كله بأن هذا هو

الخط الأصيل الذي لا ينحرف إلا لطارئ زائل،ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم! هذا التاريخ الطويل من الواقع العملي بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج اللّه الذي يخــرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة اللّه وحده،وبين مناهج الجاهلية التي تعبد الناس للعبيد ..يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيــه مــن اللّــه ســبحانه،بهذا الحســم الصريح:«فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ..«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّــةَ الْكُفْــرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» ..

فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون،وتوبة عما مضى من الشرك والاعتــداء .وعندئــذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين وتقوم الوشــيجة على أساس العقيدة ويصبح المسلمون الجدد إخوانا للمسلمين القــدامى ويســقط ذلــك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب! «وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ..

فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون وهم المؤمنون.

وإما نكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه،وطعن في دين المسلمين.فهــم إذن أئمة في الكفر،لا أيمان لهم ولا عهود.وعندئذ يكون القتال لهم لعلهم حينئذ أن يثوبــوا إلى الهدى ..كما سبق أن قلنا:

إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهاد قد ترد قلوبا كثيرة إلى الصواب وتــريهم الحــق الغالب فيعرفونه ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق ولأن وراءه قوة اللّه وأن رسول اللّــه – ﷺ– صادق فيما أبلغهم من أن اللّه غالب هو ورسله.فيقودهم هــذا كلــه إلى التوبــة والهدى.لا كرها وقهرا،ولكن اقتناعا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب.كما وقــع وكما يقع في كثير من الأحايين.

وبعد ..فما المدى الذي تعمل فيه هذه النصوص؟ ما المدى التاريخي والبيئي؟ أهي خاصــة بأهل الجزيرة العربية في ذلك الزمان المحدد؟ أم إن لها أبعادا أخرى في الزمان والمكان؟

إن هذه النصوص كانت تواجه الواقع في الجزيرة العربيــة بــين المعســكر الإســلامي ومعسكرات المشركين.

وما من شك أن الأحكام الواردة بها مقصود بها هذا الواقع.وأن المشركين المعنيين فيها هم مشركو الجزيرة ..

هذا حق في ذاته ..ولكن ترى هذا هو المدى النهائي لهذه النصوص؟

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين – على مدى التاريخ – من المؤمنين.ليتكشف لنا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ:

فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة.ولعل في هذا الجزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة.

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائما هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة:« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً! يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ،وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ.اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ،إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» ..

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين.فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ ..

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد – ﷺ- إنما ختم بهذه الرسالة.وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين اللّه على الإطلاق فإن أبعاد المعركة تترامى ويتجلى الموقف على حقيقته كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة،على مدار التاريخ البشري كله بلا استثناء! ماذا صنع المشركون مع نوح،وهود،وصالح،وإبراهيم،وشعيب،وموسى،وعيسى،عليهم صلوات اللّه وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد – ﷺ- والمؤمنين به كذلك؟ ..إنهم لم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم ..

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار؟ ثم مـــا يصـــنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين في كل مكان؟ ..إنهم لا يرقبون فيهم إلّا ولا ذمة،كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد ..

عند ما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية الـــتي ســـجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ «البداية والنهاية» لابـــن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ ه:ثمّ دخلت سنة ستّ وخمســـين وســـتّمائة.فيهـــا أخذت التّتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتّى الخليفة،وانقضت دولة بني العبّاس منها.

استهلّت هذه السّنة وجنود التّتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللّذين علـــى مقدّمـــة عساكر سلطان التّتار،هولاكو خان،وجاءت إليهم أمدد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه،وكلّ ذلك خوفا على نفسه مـــن التّتار،ومصـــانعة لهـــم- قبّحهم اللّه تعالى-،وقد سترت بغداد ونصبت المجانيق والعرّادات وغيرها من آلات الممانعة الّتي لا تردّ من قدر اللّه- سبحانه وتعالى- شيئا،كما ورد في الأثر (لن يغني حـــذر عـــن قدر)،وكما قال تعالى:إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ (نوح/ ٤)،وقال تعالى إِنَّ اللّٰهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (الرعد/ ١١)،وأحاطت التّتار بدار الخلافة يرشقونها بالنّبال من كلّ جانـــب حتّـــى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه،وكانت من جملة حظاياه،وكانت مولّدة تسمّى عرفة،جاءها سهم من بعض الشّبابيك فقتلها وهـــي تـــرقص بـــين يـــدي الخليفة،فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعا شديدا،وأحضر السّهم الّذي أصابها بين يديـــه فإذا عليه مكتوب،إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرّجال والنّســـاء والولـــدان والمشـــايخ والكهول والشّبّان،ودخل كثير من النّاس في الآبار وأماكن الحشوش،وقنى الوسخ،وكمنوا كذلك أيّاما لا يظهرون،وكان الجماعة من النّاس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون علـــيهم الأبواب فتفتحها التّتار إمّا بالكسر وإمّا بالنّار،ثمّ يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعـــالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة،حتّى تجري الميازيب من الدّماء في الأزقّة،فإنّا للّه وإنّـــا إليـــه

راجعون.وكذلك المساجد والجوامع والرّبط،و لم ينج منهم أحد سوى أهل الذّمّـــة مـــن اليهود والنّصارى[112] ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقميّ الرّافضيّ وطائفة مـــن التّجّار أخذوا لهم أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتّى سلموا وسلمت أمـــوالهم.وعـــادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلّها كأنّها خراب ليس فيها إلّا القليل من النّاس،وهم في خوف وجوع وذلّة وقلّة،وكان الوزير العلقميّ قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط أسهمهم من الدّيوان،فكانت العساكر في آخر أيّام المستنصر قريبا من مائة ألـــف مقاتل،منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر،فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف،ثمّ كاتب التّتار وأطمعهـــم في أخـــذ البلاد،وســـهّل علـــيهم ذلك،وحكى لهم حقيقة الحال،وكشف لهم ضعف الرّجال،وذلك كلّه طمعا منه أن يزيل السّنّة بالكلّيّة،وأن يظهر البدعة الرّافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميّين،وأن يبيد العلمـــاء والمفتين،واللّه غالب على أمره،وقد ردّ كيده في نحره،وأذلّه بعد العـــزّة القعســـاء،وجعله (حوشكاشا) للتّتار بعد ما كان وزيرا للخلفاء،واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرّجـــال والنّساء والأطفال،فالحكم للّه العليّ الكبير،ربّ الأرض والسّماء.

وقد جرى على بني إسرائيل ببيت المقدس قريب ممّا جرى على أهل بغداد كما قصّ اللّـــه تعالى علينا ذلك في كتابه العزيز،حيث يقول:وَقَضَيْنا إلى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً* فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِـــي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا (الإسراء/ ٤– ٥) الآيات.وقد قتـــل من بني إسرائيل خلق من الصّلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء،وخرّب بيـــت المقـــدس بعدما كان معمورا بالعبّاد والزّهّاد والأحبار والأنبياء،فصار خاويا على عروشـــه واهـــي البناء.

[112] – ذلك أن اليهود والنصارى (من أهل الذمة!) كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها وممن دلّوا على عورات المدينة،وشاركوا مشاركة فعلية في هذه الكارثـــة واســـتقبلوا التتـــار الـــوثنيين بالترحاب،ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية.

وقد اختلف النّاس في كمّيّة من قتل ببغداد من المسلمين في هـــذه الوقعـــة،فقيل ثمانمائـــة ألف،وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف،وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس،فإنّا للّه وإنّـــا إليـــه راجعون،ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرّم،وما زال السّيف يقتل أهلها أربعين يوما،وكـــان قتل الخليفة المستعصم باللّه أمير المؤمنين يوم الأربعاء،رابع عشر صفر وعفّي قبره،وكـــان عمره يومئذ ستّا وأربعين سنة وأربعة أشهر،ومدّة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشـــهر وأيّام،وقتل معه ولده الأكبر أبو العبّاس أحمد،وله خمس وعشرون ســـنة،ثمّ قتـــل ولـــده الأوسط أبو الفضل عبد الرّحمن وله ثـــلاث وعشـــرون سنة،وأســـر ولـــده الأصـــغر مبارك،وأسرت أخواته الثّلاث:فاطمة وخديجة ومريم،وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل،واللّه أعلم،فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشّيخ محيي الدّين يوسف ابن الشّيخ أبي الفرج ابن الجوزيّ،وكان عدوّ الوزير،وقتل أولاده الثّلاثة:عبد اللّه،وعبد الرّحمن،وعبد الكريم،وأكابر الدّولة واحـــدا بعد واحد،منهم الدّيودار الصّغير مجاهد الدّين أيبك،وشهاب الدّين سليمان شـــاه،وجماعة من أمراء السّنّة وأكابر البلد.وكان الرّجل يستدعى به من دار الخلافة من بـــني العبّـــاس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال،تجاه المنظـــرة فيـــذبح كمـــا تـــذبح الشّاة،ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.وقتل شيخ الشّيوخ مؤدّب الخليفة صدر الدّين عليّ بن النّيّار،وقتل الخطباء والأئمّة،وحملة القرآن،وتعطّلت المساجد والجمعات والمدارس والرّبط مدّة شهور ببغداد،وأراد الوزير ابن العلقميّ قبّحه اللّه– ولعنه،أن يعطّل المســـاجد والمدارس والرّبط ببغداد،ويستمرّ بالمشاهد ومحالّ الرّفض،وأن يبني للرّافضة مدرسة هائلـــة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها،فلم يقدره اللّه تعالى على ذلك بل أزال نعمتـــه عنـــه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة،وأتبعه بولده فاجتمعا– واللّـــه أعلـــم– بالدّرك الأسفل من النّار.

ولّما انقضى الأمر المقدّر وانقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلّا الشّاذّ من النّاس،والقتلى كأنّها التّلول،وقد سقط عليهم المطر فتغيّرت صـــورهم

وأنتنت من جيفهم البلد،وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباء الشّديد حتّى تعدّى وسـرى في الهواء إلى بلاد الشّام،فمات خلق كثير من تغيّر الجوّ وفساد الرّيح،فاجتمع علـى النّـاس الغلاء والوباء والفناء والطّعن والطّاعون،ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم،وقد أنكـر بعضـهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه،وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمـن سبقهم من القتلى،واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى،الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى."[113]إلخ إلخ.

هذه صورة من الواقع التاريخي،حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إلّـا ولا ذمة.فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات،اختص بها التتـار في ذلك الزمان؟

كلا! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة! ..

إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد ..إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهنـد – ممـن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقـد قضوا بالطريق ..طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية،فذبحتهم كـالخراف علـى طـول الطريق،وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش،بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة،لا تقل – إن لم تزد – على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد! ..

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان،حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجـرة مـن المـوظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف ..ودخل

[113] – نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم [١١ /٥٧٢١] والبداية والنهاية لابن كثير – موافقة للمطبـوع [١٣ /٢٣٥]

قلت:وما فعله أعداء الإسلام اليوم في العراق وغيرهما من بلدان المسلمين أدهى وأمر أيضا

القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى (ممر خيبر) ..وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار! ..لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة،القطار في النفق.ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء! ..وصدق قول اللّه سبحانه:«كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة» ..وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟ ..لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا ..بمعدل مليون في السنة ..وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق ..ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان.وفي هذا العام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار ..لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين،فحفرت له حفرة في الطريق العام.وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب،أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام!!!) فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته ..وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات! كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها.حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي – التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء في «مفارم» اللحوم التي تصنع لحوم (البولوبيف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء – ماضية إلى الآن!!! وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية ..الآن ..في هذا الزمان ..ويصدق قول اللّه سبحانه:«كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً؟».«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً،وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» ..

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية.ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد ..إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية للّه وحده ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير اللّه.في كل زمان وفي كل مكان.

ومن ثم فإن تلك النصوص – وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة،وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة – إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان.لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما في كل زمان وفي كل مكان.والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية،ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان ..[١١٤]



[١١٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٧٠]

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها

أولا:في تقريرات اللّه – سبحانه – عنها،باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وباعتبار أن هذه التقريرات – بسبب كونها ربانية – لا تتعرض لمثل ما تتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء ..

وثانيا:في المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات اللّه سبحانه!

إن اللّه سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم ..وهو تارة يتحدث عنهم – سبحانه – وحدهم،وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين باعتبار أن هنالك وحدة هدف – تجاه الإسلام والمسلمين – تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين.

وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين ..والنصوص التي تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق ..وهذه نماذج منها ..

«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» ...(البقرة:١٠٥).

«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ،مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ...(البقرة:١٠٩).

«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ...(البقرة:١٢٠).

«وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» ...(آل عمران:٦٩).

«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» ...(آل عمران:٧٢ – ٧٣).

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ» ...(آل عمران:١٠٠) ...

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ أُوتُوا نَصيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ،وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ ...»...(النساء:٤٤ - ٤٥).

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ،وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا:هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» ...(النساء:٥١).

وفي هذه النماذج وحدها ما يكفي لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين ...فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.وهم يحددون موقفهم النهائي من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى،ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف،فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا.وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين! ...إلخ.

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها اللّه - سبحانه - في قوله تعالى:

«وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ...(البقرة:٢١٧).

«وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً» ...(النساء:١٠٢).

«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» ...(الممتحنة:٢).

«وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:٨).

«لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً» ...(التوبة:١٠).

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين،وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين،هي بعينها - وتكاد تكون بألفاظها - هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك ..مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية،تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة،لا على وصف حالة مؤقتة،كقوله تعالى في شأن المشركين:« وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا» ..
وقوله تعالى في شأن أهل الكتاب:«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» ..
إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أي تأويل للنصوص،أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة! فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات،متمثلة في مواقف أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - من الإسلام وأهله،على مدار التاريخ،تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة،و لم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.
إننا إذا استثنينا حالات فردية - أو حالات جماعات قليلة - من التي تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخي بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين والاقتناع بصدق رسول اللّه - ﷺ- وصدق هذا الدين.ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين ..وهي الحالات التي أشرنا إليها فيما تقدم ..فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة،إلا تاريخا من العداء العنيد،والكيد الناصب،والحرب الدائبة،التي لم تفتر على مدار التاريخ ..
فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة! وليست هذه الظلال مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل.ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ ..
لقد استقبل اليهود رسول اللّه - ﷺ- ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولا يعرفون صدقه،ودينا يعرفون أنه الحق ..

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقوها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود ..شككوا في رسالة رسول اللّــه – ﷺ- وهـــم يعرفونه واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشــبهات الــتي ينشــروها في الجـــو وبالتـــهم والأكاذيب.وما فعلوه في حادث تحويل القبلة،وما فعلوه في حادث الإفك،وما فعلـــوه في كل مناسبة،ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم ..وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتترل القرآن الكريم.وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحـــزاب والتوبـــة وغيرهـــا تضمنت من هذا الكثير [١١٥]:«وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَــدِّقٌ لِمــا مَعَهُــمْ – وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا – فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ،فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ.بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ – بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِـــنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ – فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ،وَلِلْكافِرِينَ عَــذابٌ مُهِــينٌ» ...(البقرة:٨٩ – ٩٠).

«وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتــابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ...(البقرة:١٠١).

« سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ:ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها.قُــلْ:لِلَّــهِ الْمَشْــرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ...(البقرة:١٤٢).

«يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَــقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟» ...(آل عمران:٧٠ – ٧١).

«وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ:آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُــرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ...(آل عمران:٧٢).

«وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِـــنَ الْكِتــابِ وَمــا هُــوَ مِـــنَ الْكِتابِ،وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ،وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُــمْ يَعْلَمُونَ».(آل عمران:٧٨).

[١١٥] – تراجع مقدمات سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في هذه الطبعة المنقحة من الظلال.

«قُلْ:يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ؟ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» ...(آل عمران:٩٨ – ٩٩).

{ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا } [النساء:١٥٣]

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة:٣٢].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة وتحرشهم بالمسلمين،مما أدى إلى وقائع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر.كما شهد تأليب اليهود للمشركين في الأحزاب،مما هو معروف مشهور .

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ .. كانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وانتشر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير ..

وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي – رضي اللّه عنه – ومعاوية ..وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير ..وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية ..

فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي وهم حماة كل وضع من الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي! ذلك شأن اليهود،فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب،فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شأن اليهود! لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون ..ولكن ما إن ظهر الإسلام في الجزيرة وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «المسيحية» وهو ركام من الوثنيات القديمة،والأضاليل الكنسية،متلبسا ببقايا من

كلمات المسيح – عليه السلام – وتاريخه [116] ..حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة وعداوات وثارات عميقة،ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا على هذا الدين.وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول اللّه – ﷺ- إلى عامل بصرى من قبل الروم – وكان المسلمون يؤمنون الرسل ولكن النصارى غدروا برسول النبي ﷺوقتلوه – مما جعل رسول اللّه – ﷺ- يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة:زيد بن حارثة،وجعفر بن أبي طالب،وعبد اللّه بن رواحة في غزوة «مؤتة» فوجدوا تجمعا للروم تقول الروايات عنه:إنه مائة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية النصرانية مائة ألف أخرى وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل.وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة تبوك التي يدور عليها معظم هذه السورة (وسيجيء تفصيل القول فيها في موضعه إن شاء اللّه تعالى).ثم كان جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول اللّه – ﷺ- قبيل وفاته ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر – رضي اللّه عنه – إلى أطراف الشام لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هذا الدين! ثم اشتعل مرجل الحقد الصليبي منذ موقعة اليرموك الظافرة،التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام ومصر وشمال إفريقية وجزر البحر الأبيض.ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم في التاريخ،لم تكن هي وحدها التي شنتها الكنيسة على الإسلام ..لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير ..لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد ..

منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس وأخذ النصارى يعينون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة.

---

[116] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين».«دار الشروق».

ثم بعد ذلك في «مؤتة».ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة ..ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عند ما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة،وارتكبت من الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيرا من قبل ..وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة التي لا تتحرج ولا تتذمم ولا تراعي في المسلمين إلّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون – وهو فرنسي مسيحي –:

« كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين،ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه،بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم.ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب،مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل،الذي رحم نصارى القدس،فلم يمسهم بأذى،والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد،أثناء مرضهما »[١١٧].

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا) [١١٨]يقول:«ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع،فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها.وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون،ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء! أما صلاح الدين،فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين،ووفى لهم بجميع عهوده،وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم،حتى أن الملك العادل،شقيق السلطان،أطلق ألف رقيق من الأسرى،ومنّ على جميع الأرمن،وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة،وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال في الظلال لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية – على مدار التاريخ – ولكن يكفي أن نقول:إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية.ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثا.حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم،فقتل منهم اثنا عشر ألفا وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة!

---

[١١٧] – نقلا عن كتاب:«الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للأستاذ علي علي منصور.

[١١٨] – نقلا عن كتاب:«الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام» للأستاذ علي علي منصور.

ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص،حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا جوعا وعطشا،فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد! ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في اريترية وفي قلب الحبشة،وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي،ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال! ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي! ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه.

«لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة.ولكننا بعد اختبار، لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ..لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودي،والخطر الأصفر،وبالخطر البلشفي.إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه.إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا،وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا.أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها.ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام،وفي قوته على التوسع والإخضاع،وفي حيويته ..إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي[١١٩]».

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال ..وقد تحدثنا من قبل مرارا في أجزاء الظلال السابقة – بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة – عن طبيعة هذه المعركة،الطويلة،ومسائلها وأشكالها.فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة [١٢٠]

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع – بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان،وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة التي تحمل هذا الإعلان العام وتنطلق به في الأرض كلها – أن هذه الأحكام الأخيرة

---

[١١٩] – من كتاب جورج براون نقلا عن كتاب:«التبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتور مصطفى خالدي،والدكتور عمر فروخ.

[١٢٠] – يراجع كتاب:«الاستعمار والتبشير» للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ.وكتاب:«الغارة على العالم الإسلامي» للاستاذين اليافي ومحب الدين الخطيب.وكتاب:«الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين.وكتاب:«هل نحن مسلمون» لمحمد قطب.«دار الشروق».

الواردة في هذه السورة،هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة وأنها ليست أحكاما محددة بزمان،ولا مقيدة بحالة.وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابسات التي تنزلت فيها.فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلامي الحركية،التي تواجه الواقع البشري مواجهة واقعية،بوسائل متجددة،في المراحل المتعددة.

وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها في الجزيرة وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة المتمثلة في غزوة تبوك،لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله – وهي الغزوة التي يقوم عليها محور السورة – ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية معينة.إنما كان وليد حقيقة دائمة مستقرة كما أن حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخية معينة.فهي ما تزال معلنة ولن تزال ..إلا أن يرتد المسلمون عن دينهم تماما! .. وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد،بشتى الوسائل على مدار التاريخ! ومن ثم فهذه الأحكام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمان ولا مقيدة بمكان ..ولكن العمل بالأحكام إنما يتم في اطار المنهج الحركي الإسلامي،الذي يجب أن يتم الفقه به،قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها.

وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وضعفهم وانكسارهم على دين اللّه القوي المتين! إن الأحكام الفقهية في الإسلام كانت – وستظل دائما – وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامي.والنصوص لا يمكن فهمها إلا باستصحاب هذه الحقيقة ..وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ والنصوص في صورتها الحركية وفق المنهج الإسلامي.ولا بد من هذا القيد:«الحركة وفق المنهج الإسلامي» فليست هي الحركة المطلقة خارج المنهج بحيث نعتبر «الواقع البشري» هو الأصل أيا كانت الحركة التي أنشأته،ولكن «الواقع البشري» يصبح عنصرا أساسيا في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته.

وفي ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية في العلاقات بين أهـــل الكتـــاب والمجتمع المسلم وهي تتحرك الحركة الحية في مجالها الواقعي وفق ذلك المنـــهج الحركـــي الواقعي الإيجابي الشامل.[١٢١]



[١٢١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢١٩٧]

قال تعالى:{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) } [التوبة:٣٠، ٣١]

وفي هذه الآية استمرار في وجهة السياق في هذا المقطع من السورة.من إزالة الشبهة في أن هؤلاء أهل كتاب ..فهم إذن على دين اللّه ..فهي تقرر أنهم لم يعودوا على دين اللّه،بشهادة واقعهم – بعد شهادة اعتقادهم – وأنهم أمروا بأن يعبدوا اللّه وحده،فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه – كما اتخذوا المسيح ابن مريم ربا – وأن هذا منهم شرك باللّه ..تعالى اللّه عن شركهم ..فهم إذن ليسوا مؤمنين باللّه اعتقادا وتصورا كما أنهم لا يدينون دين الحق واقعا وعملا.

وقبل أن نقول:كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا،نحب أن نعرض الروايات الصحيحة التي تضمنت تفسير رسول اللّه – ﷺ– للآية.وهو فصل الخطاب.

الأحبار:جمع حبر أو حبر بفتح الحاء أو بكسرها،وهو العالم من أهل الكتاب وكثر إطلاقه على علماء اليهود ..والرهبان:جمع راهب،وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة وهو عادة لا يتزوج،ولا يزاول الكسب،ولا يتكلف للمعاش.

وفي «الدر المنثور» ..روى عَنْ حُذَيْفَةَ،أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ:اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ ؟ قَالَ:" لَا،كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ،وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ "

وعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ،قَالَ:قِيلَ لِأَبِي حُذَيْفَةَ فَذَكَرَ نَحْوَهُ،غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ:وَلَكِنْ كَانُوا يُحِلُّونَ لَهُمُ الْحَرَامَ فَيَسْتَحِلُّونَهُ،وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَيُحَرِّمُونَهُ " .[١٢٢].

---

[١٢٢] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ >> سُورَةُ التَّوْبَةِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ >>(١٥٢٧٨) صحيح لغيره

وعَنْ عَدِيٍّ بن حَاتِمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺوَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ،فَقَالَ:"يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ"،فَطَرَحْتُهُ،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ،فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:"اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ"حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا،فَقُلْتُ:إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ،فَقَالَ:"أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ،فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟"قُلْتُ:بَلَى،قَالَ:"فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ"،[123]

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير – من طرق – عَنْ عَدِيٍّ بن حَاتِمٍ،قَالَ:أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ،فَقَالَ:"يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ"،فَطَرَحْتُهُ،فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ،فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:"اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ"[ص آية ٣١] حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا،فَقُلْتُ:إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ،فَقَالَ:"أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ،فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟"قُلْتُ:بَلَى،قَالَ:"فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ" [124]

وقال السدي:استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم.ولهذا قال تعالى:«وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً» أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام،وما حلله فهو الحلال،وما شرعه اتبع،وما حكم به نفذ.[125]

وقال الألوسي في التفسير:" وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً بيان لحال المشركين بعد بيان الدلائل الدالة على توحيده تعالى،و«من» دون اللّه حال من ضمير «يتخذ» و– الأنداد – الأمثال والمراد بها الأصنام كما هو الشائع في القرآن،والمروي عن قتادة ومجاهد وأكثر المفسرين،وقيل :الرؤساء الذين يطيعونهم طاعة الأرباب من الرجال " [126] ..

---

[123] – المعجم الكبير للطبراني [١٢ /٧](١٣٦٧٣) و

سنن الترمذى– المكنز [١١ /٣٥٤](٣٣٧٨) صحيح لغيره

[124] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة [١٤ /٢١٠](١٦٦٣٢) وسنن الترمذى– المكنز [١١ /٣٥٤] (٣٣٧٨) والمعجم الكبير للطبراني [١٢ /٧](١٣٦٧٣) صحيح لغيره

الوثن:ما يعبد من دون الله تعالى، وأراد به ها هنا الصليب.=أحبارهم:الأحبار:جمع حَبْر، وهو العالم.

[125] – تفسير ابن كثير – دار طيبة [٤ /١٣٥]

[126] – روح المعاني ـــ نسخة محققة [١ /٤٣٢]

ومن النص القرآني الواضح الدلالة ومن تفسير رسول اللّه – ﷺ– وهو فصل الخطـــاب،ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين،تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار:

أن العبادة هي الاتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رســـول اللّـــه – ﷺ– فـــاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشـــعائر التعبدية إليهم ..ومع هذا فقد حكم اللّه – سبحانه – عليهم بالشرك في هـــذه الآيـــة – وبالكفر في آية تالية في السياق – لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها ..فهذا وحده – دون الاعتقاد والشعائر – يكفي لاعتبار من يفعله مشركا باللّه،الشرك الـــذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

أن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون اللّه،بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه،وبين النصارى الذين قالوا بألوهيـــة المســـيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر في العبادة.فهذه كتلك سواء في اعتبـــار فاعلـــها مشـــركا باللّه،الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين ..

أن الشرك باللّه يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير اللّه من عباده ولو لم يصحبه شـــرك في الاعتقاد بألوهيته ولا تقديم الشعائر التعبدية له ..كما هو واضح من الفقـــرة الســـابقة ..ولكنا إنما نزيدها هنا بيانا! وهذه الحقائق – وإن كان المقصود الأول بها في السياق هو مواجهة الملابسات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم،وجلاء شبهة أنهم مؤمنون باللّه لأنهم أهل كتاب – هي كذلك حقائق مطلقـــة تفيدنا في تقرير «حقيقة الدين» عامة ..

إن دين الحق الذي لا يقبل اللّه من الناس كلهم دينا غيره هو «الإسلام» ..والإســـلام لا يقوم إلا باتباع اللّه وحده في الشريعة – بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقـــديم الشـــعائر التعبدية له وحده – فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة اللّه صح فيهم ما صـــح في اليهـــود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون باللّه – مهما كانت دعـــواهم في الإيمـــان – لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون اللّه،بغير إنكار منهم يثبت

منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم،لا طاقة لهم بدفعه،وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على اللّه ..

إن مصطلح «الدين» قد انحسر في نفوس الناس اليوم،حتى باتوا يحسبونه عقيدة في الضمير،وشعائر تعبدية تقام وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم – ويقرر تفسير رسول اللّه ﷺ– أنهم لم يكونوا يؤمنون باللّه،وأنهم أشركوا به،وأنهم خالفوا عن أمره بألا يعبدوا إلا إلها واحدا،وأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا من دون اللّه.

إن المعنى الأول للدين هو الدينونة – أي الخضوع والاستسلام والاتباع – وهذا يتجلى في اتباع الشرائع كما يتجلى في تقديم الشعائر.والأمر جد لا يقبل هذا التميع في اعتبار من يتبعون شرائع غير اللّه – دون إنكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتئات على سلطان اللّه – مؤمنين باللّه،مسلمين،لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية اللّه سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر ..وهذا التميع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين في هذه الحقبة من التاريخ وهو أفتك الأسلحة التي يحاربه بها أعداؤه الذين يحرصون على تثبيت لافتة «الإسلام» على أوضاع،وعلى أشخاص،يقرر اللّه سبحانه في أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق،وأنهم يتخذون أربابا من دون اللّه ..وإذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص فواجب حماة هذا الدين أن يترعوا هذه اللافتات الخادعة وأن يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون اللّه ..«وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ...

ثم يمضي السياق خطوة أخرى في تحريض المؤمنين على القتال:«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ،وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ.هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» ..

إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق،وعبادة أرباب من دون اللّه.وعدم الإيمان باللّه واليوم الآخر – وفق المفهوم الصحيح للإيمان باللّه واليوم الآخر – إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ويريدون إطفاء نور اللّه في الأرض المتمثل في

هذا الدين،وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض،وفي المنهج الذي يصوغ على وفقه حياة البشر ..

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ» ..فهم محاربون لنور اللّه.سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله،والوقوف سدا في وجهه - كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

وهذا التقرير - وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك - هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور اللّه المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور اللّه.

«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» ..وهو الوعد الحق من اللّه،الدال على سنته التي لا تتبدل،في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون ..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة واللأواء في الطريق وعلى الكيد والحرب من الكافرين (والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم) ..كما أنه يتضمن في ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان! ويزيد السياق هذا الوعيد وذلك الوعد توكيدا:«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» ..

وفي هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذي سبق في قوله تعالى:«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ» ..هو هذا الدين الذي أرسل اللّه به رسوله الأخير.وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ..

وهذا صحيح على أي وجه أوّلنا الآية.فالمقصود إجمالا بدين الحق هو الدينونة للّه وحده في الاعتقاد والشعائر والشرائع - وهذه هي قاعدة دين اللّه كله،وهو الدين الممثل أخيرا فيما جاء به محمد ﷺ- فأيما شخص أو قوم لم يدينوا للّه وحده في الاعتقاد والشعائر

والشرائع مجتمعة انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق،ودخلوا في مدلول آية القتال ..مع مراعاة طبيعة المنهج الحركي للإسلام،ومراحله المتعددة،ووسائله المتجددة كما قلنا مرارا.

«هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» ..

وهذا توكيد لوعد اللّه الأول:«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» ..ولكن في صورة أكثر تحديدا.فنور اللّه الذي قرر سبحانه أن يتمه،هو دين الحق الذي أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله.

ودين الحق - كما أسلفنا - هو الدينونة للّه وحده في الاعتقاد والعبادة والتشريع مجتمعة.وهو متمثل في كل دين سماوي جاء به رسول من قبل ..ولا يدخل فيه طبعا تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات في الاعتقاد التي عليها اليهود والنصارى اليوم.كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التي ترفع لافتة الدين،وهي تقيم في الأرض أربابا يعبدها الناس من دون اللّه،في صورة الاتباع للشرائع التي لم ينزلها اللّه.

واللّه سبحانه يقول:إنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ..ويجب أن نفهم «الدين» بمدلوله الواسع الذي بيناه،لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهي ومداه ..

إن «الدين» هو «الدينونة» ..فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء ..

واللّه سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على «الدين» كله بهذا المدلول الشامل العام! إن الدينونة ستكون للّه وحده.والظهور سيكون للمنهج الذي تتمثل فيه الدينونة للّه وحده.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول اللّه - ﷺ- وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان.وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة للّه تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى،المنوعة الأساليب،التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف ..إن وعد اللّه قائم،ينتظر العصبة المسلمة،التي تحمل الراية وتمضي،مبتدئة من نقطة البدء،التي بدأت منها خطوات رسول اللّه - ﷺ- وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور اللّه ..

ثم يخطو السياق الخطوة الأخيرة في هذا المقطع من السورة،مصورا كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله،بعد ما أشار إلى هذه الحقيقة في قوله:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» التي فسرها رسول اللّه - ﷺ- بأنهم «أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال،فاتبعوهم» ..

فبين أنهم إذن لا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله،إنما يحرمون ما حرمه عليهم الأحبار والرهبان! يخطو السياق الخطوة الأخيرة في بيان هذه الحقيقة مخاطبا بها الذين آمنوا كاشفا لهم في هذا الخطاب عن حقيقة أهل الكتاب:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا،إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ،وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ.يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ،فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ.هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ،فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» ..

وفي الآية الأولى استطراد في بيان دور الأحبار والرهبان الذين اتخذهم أهل الكتاب أربابا من دون اللّه،فاتبعوهم فيما يشرعون لهم من المعاملات ومن العبادات سواء.فهؤلاء الأحبار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابا تتبع وتطاع وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل اللّه.

وأكل أموال الناس كان يتمثل في صور شتى وما يزال:

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان.ومنها ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا وغفرانه - بالسلطان المخول للكنيسة في زعمهم - لتلك الخطايا! ومنها الربا - وهو أوسع أبوابها وأبشعها - وغيرها كثير.

كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق وقد كان الرهبان والأساقفة والكرادلة والبابوات يجمعون مئات الملايين في الحروب الصليبية،وما يزالـــون يجمعونهـــا للتبشـــير والاستشراق للصد عن سبيل اللّه.

ولا بد أن نلحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهي في قول اللّه تعالى في ذلك.

«إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ ..».للاحتراز من الحكم على القليل منها الذي لا يـــزاول هذه الخطيئة.ولا بد من أفراد في أية جماعة من الناس فيهم بقية خير ..ولا يظلم ربك أحدا ..

والكثير من الأحبار والرهبان يكترون هذه الأموال التي يأكلونها بالباطل.وقد شهد تـــاريخ هؤلاء الناس أموالا ضخمة تنتهي إلى أيدي رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة.وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاة! والسياق القرآني يصور عذابهم في الآخرة بما كتروا،وعذاب كل من يكتر الذهب والفضة ولا ينفقهـــا في سبيل اللّه،في مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروعة:«وَالَّـــذِينَ يَكْنِـــزُونَ الـــذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ.يَوْمَ يُحْمـــى عَلَيْهـــا فـــي نـــارِ جَهَنَّمَ،فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ،هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْـــتُمْ تَكْنِزُونَ» ..

إن رسم المشهد هكذا في تفصيل وعرض مشهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتهـــا الأخيرة،ليطيل المشهد في الخيال والحس ..وهي إطالة مقصودة:«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الـــذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» ..ويسكت السياق:وتنتهي الآية على هذا الإجمال والإبهام في العذاب ..

ثم يأخذ في التفصيل بعد الإجمال:«يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ».

وينتظر السامع عملية الإحماء! ثم ها هي ذي حميت واحمـــرت.وهـــا هـــي ذي معـــدة مهيأة.فليبدأ العذاب الأليم ...ها هي ذي الجباه تكوى ...لقد انتهت عمليـــة الكـــي في الجباه،فليداروا على الجنوب ...ها هي ذي الجنوب تكوى ...لقد انتهت هذه فليـــداروا

على الظهور ...ها هي ذي الظهور تكوى ...لقد انتهى هذا اللون من العذاب فليتبعه الترذيل والتأنيب:«هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ» ..

هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة،فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب! «فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ»! ذوقوه بذاته،فهو هو الذي تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه! ألا إنه لمشهد مفزع مروع،يعرض في تفصيل وتطويل وأناة! وهو يعرض أولا لتصوير مصائر الكثير من الأحبار والرهبان ..ثم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها في سبيل اللّه ..والسياق يمهد لغزوة العسرة كذلك حينذاك!

إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيء من دين اللّه،ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين في شركهم،الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم ..ذلك أن نفوس المسلمين لا تنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلا حين يتجلى لها تماما وجه الجاهلية! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب (ومن يزعمون أنهم على شيء من دين اللّه من أمثالهم،كالشأن في الغالبية العظمى ممن يدعون أنفسهم اليوم «مسلمين») ولقد احتاج الانطلاق الكامل لمواجهة المشركين كثيرا من البيان في هذه السورة،نظرا للملابسات التي شرحناها في التقديم لهذه السورة وفي التقديم للمقطع الأول منها كذلك.حيث قال اللّه - سبحانه - للمؤمنين:« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِه.إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ،فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ،إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ.اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِه،إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

«أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ،وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ،وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ،وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ،وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ،وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ،وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ..

«ما كانَ لِلْمُشْرِكينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ،أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ».

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ،وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»....إلخ ...إلخ ...

وإذا كان الانطلاق لمجاهدة المشركين قد اقتضى كل هذه الحملة – وأمرهم ظاهر – نظرا لتلك الملابسات التي كانت قائمة في التكوين العضوي للمجتمع المسلم في تلك الفترة ..فقد كان الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب في حاجة إلى حملة أشد وأعمق.تستهدف – أول ما تستهدف – تعرية أهل الكتاب هؤلاء من تلك «اللافتة» الشكلية التي لم تعد وراءها حقيقة وتظهرهم على حقيقتهم الواقعية ..مشركين كالمشركين ..كفارا كالكفار ..محاربين للّه ولدينه الحق كأمثالهم من المشركين الكافرين ..ضلالا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل اللّه ..في مثل هذه النصوص القاطعة الصريحة:« قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ،وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ،وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ،حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ.وَقالَتِ الْيَهُودُ:عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ،وَقالَتِ النَّصارى:الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ.ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ.قاتَلَهُمُ اللَّهُ! أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟ اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ،سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ.وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ.هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ..يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...إلخ» ..

وذلك بالإضافة إلى التقريرات القرآنية الحاسمة – في السور المكية والمدنية على السواء – عن حقيقة ما انتهى إليه أمر أهل الكتاب من الشرك والكفر والخروج من دين اللّه الذي جاءهم به أنبياؤهم من قبل فضلا على وقفتهم من رسالة اللّه الأخيرة،التي على أساس موقفهم منها يتحدد وصفهم بالكفر أو بالإيمان.

فلقد سبق أن ووجه أهل الكتاب بأهم ليسوا على شيء من دين اللّــه أصــلا في قولــه تعالى:« قُلْ:يا أَهْلَ الْكتاب لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجيلَ ..وَمــا أُنْــزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ.وَلَيَزيدَنَّ كَثيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَــى الْقَوْمِ الْكافِرينَ».(المائدة:٦٨).

كذلك سبق وصفهم بالكفر،وضمهم إلى المشركين في هذه الصفة ..يهودا ونصارى ..أو مجتمعين في صفة «أهل الكتاب» في مثل قوله تعالى:«وَقالَت الْيَهُودُ:يَدُ اللَّه مَغْلُولَةٌ! غُلَّتْ أَيْديهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا.بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ.وَلَيَزيدَنَّ كَثيراً مِنْهُمْ ما أُنْــزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً ...» ...(المائدة:٦٤).

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذينَ قالُوا:إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...» ...(المائدة:٧٢) «لَقَــدْ كَفَــرَ الَّذينَ قالُوا:إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَة ...» ...(المائدة:٧٣) «لَمْ يَكُنِ الَّذينَ كَفَرُوا مِــنْ أَهْــلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» ..«البينة:١».

وغيرها كثير،أثبتنا بعضه فيما تقدم،والقرآن الكريم – مكيّه ومدنيّه – حافل بمثــل هــذه التقريرات.

وإذا كانت الأحكام القرآنية قد جعلت لأهل الكتاب بعض الامتيازات في التعامــل عــن المشركين.وذلك كإحلال طعامهم للمسلمين،وإجازة التزوج بالمحصنات (أي العفيفــات) من نسائهم ..فإن ذلك لم يكن مبنيا على أساس أهم على شيء من دين اللّه الحق ولكــن كان مراعى فيه – واللّه أعلم – أن لهم أصلا من دين وكتاب – وإن كانوا لا يقيمونه – فمن الممكن محاكمتهم إلى هذا الأصل الذي يدعون أهم عليه! فهم في هذا يفترقون عــن المشركين الوثنيين الذين لا كتاب لهم لأنه ليس لهم من أصل يردون إليه ويمكن محاكمتهم له ..أما تقريرات القرآن عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقيدة ودين،فهــي صــريحة وحاسمة في أهم ليسوا على شيء من دين اللّه بعد ما تركوا كتبهم ودينهم إلى ذلك الذي صنعه لهم أحبارهم ورهبانهم ومجامعهم وكنائسهم! وفي قول اللّه – ســبحانه – فصــل الخطاب في هذا الموضوع! والمهم الآن أن نبرز دلالة هذا البيان الرباني لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من العقيدة والدين ..

إن هذه «اللافتة» المضللة التي ليس وراءها شيء من الحقيقة،تحول دون الانطلاق الإسلامي الكامل لمواجهة «الجاهلية».فتتحتم – إذن – إزالة هذه اللافتة وتعريتهم من ظلها الخادع وكشفهم على حقيقتهم الواقعة ..ولا نغفل الملابسات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك – والتي أشرنا إليها من قبل – سواء منها ما يختص بالتكوين العضوي لهذا المجتمع يومها،وما يختص بظروف الغزوة ذاتها في الحر والعسرة! وما يختص كذلك بالتهيب من لقاء الروم بسبب ما كان لهم في نفوس العرب – قبل الإسلام – من هيبة وسمعة ومخافة! ..ولكن الأعمق من هذا كله هو ما يحيك في النفس المسلمة،عند الأمر بقتال أهل الكتاب على هذا النحو الشامل ..وهم أهل كتاب!!!

وأعداء هذا الدين،الراصدون لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية،وبتاريخ الحركة الإسلامية،على السواء ..وهم من أجل ذلك حريصون – كل الحرص – على رفع «لافتة إسلامية» على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يعدونها ويقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعا.ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقي لمواجهة «الجاهلية» الحقيقة القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة! لقد أخطأوا – مضطرين – مرة أو مرات في إعلان حقيقة بعض الأوضاع والحركات وفي الكشف عن الوجه الكالح للجاهلية المنقضة على الإسلام فيها ..وأقرب مثال لذلك حركة «أتاتورك» اللاإسلامية الكافرة في تركيا ..وكان وجه الاضطرار فيها هو حاجتهم الملحة إلى إلغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامي تحت راية العقيدة.ذلك المظهر الذي كان يتمثل في قيام «الخلافة» ..وهو – وإن كان مجرد مظهر – كان آخر عروة تنقض قبل نقض عروة الصلاة!

فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ،قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً،فَكُلَّمَا انْتُقِضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا،فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا:الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ[١٢٧].

[١٢٧] - صحيح ابن حبان [١٥ /١١١](٦٧١٥) صحيح

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْفِلَسْطِينِيِّ،قَالَ:سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ،يَقُولُ:لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً ، وَلَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، لَا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ ، وَلَا يُخْطَأُ بِكُمْ ، حَتَّى يَكُونَ أَوَّلَ نَقْضِكُمْ مِنْ عُرَى الْإِيمَانِ الْأَمَانَةُ ، وَآخِرَهَا الصَّلَاةُ وَحَتَّى يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ:وَاللَّهِ مَا أَصْبَحَ فِينَا مُنَافِقٌ وَلَا كَافِرٌ ، وَإِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ حَقًّا حَقًّا ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ، حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُلْحِقَهُمْ بِهِ "[١٢٨]

ولكن أولئك الأعداء الواعين – من أهل الكتاب والملحدين الذين لا يجتمعون إلا حين تكون المعركة مع هذا الدين! – لم يكادوا يتجاوزون منطقة الاضطرار في الكشف عن الوجهة اللاإسلامية الكافرة في حركة «أتاتورك» حتى عادوا يحرصون بشدة على ستر الأوضاع التالية المماثلة لحركة «أتاتورك» في وجهتها الدينية،بستار الإسلام ويحرصون على رفع تلك اللافتة الخادعة على تلك الأوضاع – وهي أشد خطرا على الإسلام من حركة أتاتورك السافرة – ويفتنون افتنانا في ستر حقيقة هذه الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها اقتصاديا وسياسيا وفكريا ويهيئون لها أسباب الحماية بأقلام مخابراتهم وبأدوات إعلامهم العالمية وبكل ما يملكونه من قوة وحيلة وخبرة ويتعاون أهل الكتاب والملحدون على تقديم المعونات المتنوعة لها لتؤدي لهم هذه المهمة التي لم تنته منها الحروب الصليبية قديما ولا حديثا يوم كانت هذه الحروب الصليبية معركة سافرة بين الإسلام وأعدائه المكشوفين الظاهرين! والسذج ممن يدعون أنفسهم «مسلمين» يخدعون في هذه اللافتة ..ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض! فيتحرجون من إنزالها عن «الجاهلية» القائمة تحتها،ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة ..صفة الشرك والكفر الصريحة ..

[١٢٨] – السُّنَنُ الْوَارِدَةُ فِي الْفِتَنِ لِلدَّانِي >> بَابُ مَا جَاءَ فِي فَقْدِ الْأَمَانَةِ وَالصَّلَاةِ >>(٢٧٤)وتهذيب الآثار للطبري [٧ /٧١](٢٠٠٢و٢٠٠٣) حسن لغيره

العروة:ما يُستمسك به ويُعتصم من الدين وأحكامه وشرائعه =الحيض:جمع الحائض وهي التي ينزل الدم من رحمها في أيام معلومة من كل شهر = حذوَ الشيء:في موازاته ومقابلته ومساواته = القذة بالقذة:المراد أنهم يسيرون على نهج واحد ولا يختلفان ويتبع بعضهم بعضا

ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة لا تحرج فيهـا ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة! بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطـرة لحركات البعث الإسلامي كما تقوم حاجزا دون الوعي الحقيقي،ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين[١٢٩].

هؤلاء السذج – من الدعاة إلى الإسلام – أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين،الذين يرفعون لافتة الإسلام علـى الأوضـاع والحركـات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الـدين! إن هذا الدين يغلب دائما عند ما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجـة معينـة في نفوس العصبة المؤمنة – في أي زمان وفي أي مكان – .والخطر الحقيقي على هذا الـدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون بقدر ما يكمن في أن يكون لـه أصدقاء سذج مخدوعون،يتحرجون في غير تحرج ويقبلون أن يتتـرس أعـداؤهم بلافتـة خادعة من الإسلام بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة! إن الواجـب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض،أن يترلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعـة علـى الأوضاع الجاهلية،والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الـدين في الأرض جميعا! وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية مـن ردائهـا الزائـف وإظهارها على حقيقتها ..شركا وكفرا ..ووصف الناس بالوصف الذي يمثـل واقعهـم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة.بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم – وهي الحقيقة التي انتهى إليها حال أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير – عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم،ليغير اللّه ما بهم مـن الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون! وكل تحرج في غير موضعه وكـل الخداع بالأشكال والظواهر واللافتات هو تعويق لنقطة الانطـلاق الأولى لأيـة حركـة إسلامية في الأرض جميعا وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذي أرادوه بـالحرص

---

[١٢٩] – راجع كتاب:«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب.«دار الشروق».

على إقامة تلك اللافتات بعد ما انكشفت حركة «أتاتورك» في التاريخ الحديث وباتت عاجزة عن المضي خطوة واحدة بعد إلغاء آخر مظهر من مظاهر التجمع الإسلامي على أساس العقيدة.نظرا لانكشاف وجهتها هذا الانكشاف الصريح ..مما دعا كاتبا صليبيا شديد المكر عميق الخبث مثل «ولفرد كانتول سميث» في كتابه:«الإسلام في التاريخ الحديث» إلى محاولة تغطية حركة أتاتورك مرة أخرى،ونفي الإلحاد عنها،واعتبار ها أعظم وأصح حركة بعث «إسلامي» (كذا) في التاريخ الحديث!!![١٣٠]

وقال تعالى :{ وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (٩١) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) } سورة هود

---

[١٣٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٢٤٠]

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة،ينهض به شعيب في قومه أهل مدين ..ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى،هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس،وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في اللّه،والدينونة له وحده،واتباع شرعه وأمره.وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة،و لم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة للّه! وتجري القصة على نسق قصة هود مع عاد،وقصة صالح مع ثمود،وإن كانت أقرب في نهايتها وأسلوب عرضها.والتعبير عن خاتمتها إلى قصة صالح،حتى لتشترك معها في نوع العذاب وفي العبارة عن هذا العذاب.

«وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً.قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ...».

إنها الدينونة للّه وحده قاعدة العقيدة الأولى.وقاعدة الحياة الأولى.وقاعدة الشريعة الأولى.وقاعدة المعاملات الأولى ..القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة.

«وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ،إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ،وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ،وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ،وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ،وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» ..

والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة – بعد قضية العقيدة والدينونة – أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة ..فقد كان أهل مدين – وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام – ينقصون المكيال والميزان،ويبخسون الناس أشياءهم،أي ينقصونهم قيمة أشيائهم في المعاملات.وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد،كما تمس المروءة والشرف.كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآئبة بين شمال الجزيرة وجنوبها.ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها اللّه في هذه السورة.

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة للّه وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء،ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول.فهي بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل،وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين

الناس.وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من اللّه وطلب رضاه،فتستند إلى أصل ثابت،لا يتأرجح مع المصالح والأهواء ..

إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة ..هذه هي نظرة الإسلام.

وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقيـة الـتي تـرتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم! وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة كما ينعدم تأثرهـا بالبيئـة والعوامـل السائدة فيها.

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هـو كـونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة ..إن هذه العوامـل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقيـة،حين يصـبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة اللّه وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء اللّـه وانتظار ثوابه وتوقي عقابه،وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضـعية مـن تبعيـة الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغـوا في ظـل النظـرة الأخلاقية الإسلامية! [١٣١]

«وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ.إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» .فقد رزقكم اللّه رزقا حسنا،فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى،ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان ..بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش في المعاملة،أو غصب في الأخذ والعطاء.

«وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» ..إما في الآخرة عند اللّه.وإما في هـذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغصب ثمارهما المرة في حالة المجتمع وفي حركة التجـارة.وحـين يذوق الناس بعضهم بأس بعض،في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامـل وفي كل احتكاك.

---

[١٣١] - يراجع بتوسع كتاب:«نظرية الإسلام الخلقية» للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الإسلامية بباكستان. كما يراجع فصل:«نظام أخلاقي» في كتاب:«نحو مجتمع إسلامي» للمؤلف. نشر «دار الشروق».

ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية:«وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ» ..وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما،لأنه أقرب إلى جانب الزيادة.

وللعبارات ظل في الحس.وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص،فهو أكثر سماحة ووفاء.

«وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ» ..وهذه أعم من المكيلات والموزونات.فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع.تقويمها كيلا أو وزنا أو سعرا أو تقديرا.وتقويمها ماديا أو معنويا.وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات.لأن كلمة «شيء» تطلق أحيانا ويراد بها غير المحسوسات.

وبخس الناس أشياءهم – فوق أنه ظلم – يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد،أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير ..وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر،ولا تبقي على شيء صالح في الحياة.

«وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» ..والعثو هو الإفساد،فلا تفسدوا متعمدين الإفساد،قاصدين إلى تحقيقه.ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير:«بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ..

فما عند اللّه أبقى وأفضل ..وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة اللّه وحده – أي الدينونة له بلا شريك –فهو يذكرهم بها هنا،مع ذكر الخير الباقي لهم عند اللّه إن آمنوا كما دعاهم،واتبعوا نصيحته في المعاملات.وهي فرع عن ذلك الإيمان.

«بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ..إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ..ثم يخلي بينهم وبين اللّه الذي دعاهم إليه،ويبين لهم أنه هو لا يملك لهم شيئا،كما أنه ليس موكلا بحفظهم من الشر والعذاب.وليس موكلا كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولا عنهم إن هم ضلوا،إنما عليه البلاغ وقد أداه:«وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» ..ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر،وبثقل التبعة،ويقفهم وجها لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ.

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد،وسوء الاستغلال:{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)} [هود:٨٧]..وهو رد واضح التهكم،بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه.وإن كانت سخرية الجاهل المطموس،والمعاند بلا معرفة ولا فقه.

«أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا؟» ..فهم لا يدركون – أولا يريدون أن يدركوا – أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة،ومن صور العبودية والدينونة.وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد اللّه،ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم،كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع اللّه في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل.فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة.

وقبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة.وارتباطهما معا بالمعاملات ..قبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين،يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب.وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها – بما فيها أولئك الذين يقولون:إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون – فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر.والشريعة والتعامل.فيجعل العقيدة والشعائر للّه ووفق أمره،ويجعل الشريعة والتعامل لغير اللّه،ووفق أمر غيره.وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله.

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم – وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف – فلقد قامت أزمة في «الكنيست» مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها – من غير اليهود – أطعمة

غير شرعية.وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده – مهما تعرضت للخسارة – فأين من يدعون أنفسهم «مسلمين!» من هذا الاستمساك بالدين؟!!

إن بيننا اليوم – ممن يقولون:إنهم مسلمون! – من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق،وبخاصة أخلاق المعاملات المادية.وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم.يتساءلون أولا في استنكار:وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله «المتحضرون»؟! ..فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين:«أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟» ..

وهم يتساءلون ثانيا.بل ينكرون بشدة وعنف.أن يتدخل الدين في الاقتصاد،وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد،أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد ..فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده.وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية – النظرية الأخلاقية مثلا – ويعدونها تخليطا من أيام زمان! فلا يذهبن بنا الترفع كثيرا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى.ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة،ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة،وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في اللّه،والسلوك الشخصي في الحياة،والمعاملات المادية في السوق ..تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!

وما تستقيم عقيدة توحيد اللّه في القلب،ثم تترك شريعة اللّه المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض.فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد.والشرك ألوان.منه هذا اللون الذي نعيش به الآن.وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان! ويسخر أهل مدين من شعيب – كما يتوقح بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق – فيقولون:«إنك لأنت الحليم الرشيد!» ..

وهم يعنون عكس معناها.فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير،وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الـــذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!! ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم ..يتلطـــف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه وأنه على ثقة مما يقول لأنـــه أوتي من العلم ما لم يؤتوا،وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجهـــا لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات فهو لا يبغي كسبا شخصيا من وراء دعوته لهـــم فلـــن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهـــم ولـــه وللناس.وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون:{ قَالَ يَا قَـــوْمِ أَرَأَيْـــتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيـــبُ (٨٨) } [هود:٨٨]..

«يا قوم ...» ..في تودد وتقرب،وتذكير بالأواصر القريبة.

«أرأيتم إن كنت على بينة من ربي؟» ..أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يوحي إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه.وعن هذه البينة الواضحة في نفسي،أصدر واثقا مستيقنا.

«وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً» ..ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها.

«وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» ..فأنها كم ثم أذهب من خلفكم فأفعـــل مـــا نهيتكم عنه لأحقق لنفسي نفعا به!

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت» ..الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي،ويضيع بعض الفرص.فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا،ومجتمعا متضامنا متعاونا لا حقد فيـــه ولا غدر ولا خصام! «وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» ..فهو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي،وبما يجزي على جهدي.

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» ..عليه وحده لا أعتمد على غيره.

«وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» ..إليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأمور،وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومسعاي.

ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير،فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط:فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير:{وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩)} [هود:٨٩]..

لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة،خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم.وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان.وقريب كذلك في الزمان.فمدين كانت بين الحجاز والشام.

ثم يفتح لهم – وهم في مواجهة العذاب والهلاك – باب المغفرة والتوبة،ويطمعهم في رحمة اللّه والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها:«وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ،إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» ..

وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع،لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين.ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب،ومن سوء تقدير القيم في الحياة،وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك،ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب:« قالُوا:يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ،وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً،وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ،وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» ..فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح،لا يريدون أن يدركوه:«قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ» ..وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة:«وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» ..فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها.

«وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ» ..ففي حسابهم عصبية العشيرة،لا عصبية الاعتقاد،وصلة الدم لا صلة القلب.ثم هم يغفلون عن غيرة اللّه على أوليائه فلا يضعونها في الحساب.

«وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» ..لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر.ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة!

وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة،ولا لحقيقة كبيرة ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه.أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية.

وعندئذ تأخذ شعيبا الغيرة على جلال ربه ووقاره فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة في هذا الوجود،وبسوء الأدب مع اللّه المحيط بما يعملون.ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة.ويفاصل قومه على أساس العقيدة،ويخلي بينهم وبين اللّه،وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم،ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون:« قالَ:يا قَوْمِ:أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا؟ إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ،سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ..

«أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ؟» ..أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس،وهم ضعاف،وهم عباد من عباد اللّه ..أهؤلاء أعز عليكم من اللّه؟ ..أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من اللّه؟

«وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا» ..وهي صورة حسية للترك والإعراض،تزيد في شناعة فعلتهم،وهم يتركون اللّه ويعرضون عنه،وهم من خلقه،وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه.فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير.

«إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه.

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله – سبحانه – ووقاره.الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه ..إن شعيبا لم ينتفخ و لم ينتفش

أن يجد القوم يرهبون رهطه،فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه! و لم يسترح و لم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه – الذين افترق طريقهم عن طريقه – وهذا هو الإيمان في حقيقته ..أن المؤمن لا يعتز إلا بربه ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يخشى ربه! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه،إنما هي لربه ودينه.وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته! ومن هذه الغضبة للّه.والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه،ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم – بعد أن كان واحدا منهم – ويفترق الطريقان فلا يلتقيان:«وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ» ..

وامضوا في طريقكم وخطتكم،فقد نفضت يديّ منكم.

«إِنِّي عامِلٌ» ..على طريقتي ومنهجي.

«سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ» ..أنا أم أنتم؟

«وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ..للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم ..وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير.كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق ..

ويسدل الستار هنا.على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة،ليرفع هناك على مصرع القوم،وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم،أخذهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح،فكان مصيرهم كمصيرهم،خلت منهم الدور،كأن لم يكن لهم فيها دور،وكأن لم يعمروها حينا من الدهر.مضوا مثلهم مشيعين باللعنة،طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب:« وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا،وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ،كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها.أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ،كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ ...».وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود،حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد.[132]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[132] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٠٤٧]

من الذين يفقهون هذا الدين حق الفقه ؟

إنَّ هذا الدين منهج حركي،لا يفقهه إلا من يتحرك به فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العمليةفي أثناء الحركة به.أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا،لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ولا فقهوا فقههم ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول اللّه – ﷺ– والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن،من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة،هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين! ولكن هذا وهم،لا يتفق مع طبيعة هذا الدين ..إن الحركة هي قوام هذا الدين ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به،ويجاهدون لتقريره في واقع الناس،وتغليبه على الجاهلية،بالحركة العملية.

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب – دراسة باردة! – وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق! إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة.ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة.والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية «يجددون» بها الفقه الإسلامي أو «يطورونه» – كما يقول المستشرقون من الصليبيين! – وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد،وردهم إلى العبودية للّه وحده،بتحكيم شريعة اللّه وحدها وطرد شرائع الطواغيت ..

هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين! إن الفقه الإسلامي وليد الحركة الإسلامية ..فقد وجد الدين أولا ثم وجد الفقه.وليس العكس هو الصحيح ..وجدت الدينونة للّه وحده،ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه للّه

وحده ..والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداها وتقاليدها والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه ..ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعــلا وفق المبادئ الكلية في الشريعة – إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة – وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظــل الدينونــة للّــه وحده،واســتيحاء شــريعته وحدها،تحقيقا لهذه الدينونة،جدت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعيــة في حياتــه ..وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية،وبدأ نمو الفقه الإسلامي ..الحركة بهذا الــدين هي التي أنشأت ذلك الفقه،والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه.ولم يكن قط فقهــا مستنبطا من الأوراق الباردة،بعيدا عن حرارة الحياة الواقعة! ..من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين،يجيء فقههم للدين من تحركهم به،ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمــع مسلم حي،يعيش بهذا الدين،ويجاهد في سبيله،ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بســبب حركــة الحياة الواقعة.

فأما اليوم ..«فماذا» ..؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته للّــه وحــده والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد والذي قرر أن تكون شريعة اللّــه شــريعته والذي رفض بالفعل شرعية أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد؟

لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود! ومن ثم لا يتجه مسلم يعــرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه،إلى محاولــة تنميــة الفقــه الإســلامي أو «تجديــده» أو «تطويره!» في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التي بهــا تعيش.ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة للّه وحــده وتقريــر مبــدأ أن لا حاكمية إلا للّه،وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمدا من شريعته وحدها تحقيقــا لتلــك الدينونة ..إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنميــة الفقــه الإسلامي أو «تجديده» أو «تطويره» في مجتمع لا يتعامل بهــذا الفقــه ولا يقــيم عليــه حياته.كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقــه في هــذا الدين وهو قاعد،يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة،ويستنبط الفقه من قوالــب الفقــه الجامدة! ..

إن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا في مجرى الحياة الدافق وإلا مع الحركة بهذا الـــدين في عالم الواقع.

إن الدينونة للّه وحده أنشأت المجتمع المسلم والمجتمع المسلم أنشأ «الفقه الإسلامي» ..ولا بد من هذا الترتيب ..لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من الدينونة للّه وحده،مصـــمم على تنفيذ شريعته وحدها.ثم بعد ذلك – لا قبله – ينشأ فقه إسلامي مفصل علـــى قـــد المجتمع الذي ينشأ،وليس «جاهزا» معدا من قبل! ذلك أن كل حكم فقهي هو – بطبيعته – تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة،ذات حجم معين،وشـــكل معين،وملابســـات معينة.وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة،داخل الإطار الإسلامي لا بعيـــدا عنه،وتحـــدد حجمها وشكلها وملابساتها ومن ثم «يفصل» لها حكم مباشر على «قدها» ..فأما تلـــك الأحكام «الجاهزة» في بطون الكتب فقد «فصلت» من قبل لحالات معينة في أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شريعة اللّه فعلا.ولم تكن وقتها «جـــاهزة» بـــاردة! كانت وقتها حية مليئة بالحيوية وعلينا اليوم أن «نفصل» مثلها للحالات الجديدة ..ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذي يقرر ألا يدين لغير اللّه في شرائعه وألا يفصل حكما شرعيا إلا من شريعة اللّه دون سواها.

وفي هذا يكون الجهد الجاد المثمر،اللائق بجدية هذا الدين.وفي هذا يكون الجهـــاد الـــذي يفتح البصائر ويمكن من التفقه في الدين حقا ..وغير هذا لا يكون إلا هزلا ترفضه طبيعـــة هذا الدين وإلا هروبا من واجب الجهاد الحقيقي تحت التســـتر بســـتار «تجديـــد الفقـــه الإسلامي» أو «تطويره»! ..هروب خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير وطلب المغفرة من اللّه على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين![١٣٣]



[١٣٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٥٤]

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

فنجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار.لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم ..وندرك أن هذا هو الأمر الأخير،الذي يجعل «الانطلاق» بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد،وليس هو مجرد «الدفاع» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة.

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام،وعن أحكام الجهاد في الإسلام،وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن ..أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآني بذاته مطلق،وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام،أن يكون دقيقا في كل موضع وألا يحيل في موضع على موضع بل يتخير اللفظ المحدد ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص.إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر،وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب،أن فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك[١٣٤].

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام،وعن أحكام الجهاد في الإسلام،والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام،يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون اللّه – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار،وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار،كلما وجد هناك

[١٣٤] – ص ١٥٦٤ – ١٥٨٣ وص ١٥٨٦ – ١٥٩٨ وص ١٦٠٦ – ١٦٠٩ وص ١٦٢٠ – ١٦٣٠ من الجزء العاشر.

من يلونهم من الكفار! ..يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا،فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة! إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو ..

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل اللّه» ..جهاد لتقرير ألوهية اللّه في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان اللّه ..جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير اللّه،ومن فتنته بالقوة عن الدينونة للّه وحده والانطلاق من العبودية للعباد ..«حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» ..وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله.إنما هو جهاد لتغليب منهج اللّه على مناهج العبيد! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم،إنما هو جهاد لتغليب سلطان اللّه على سلطان العبيد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد،إنما هو جهاد لإقامة مملكة اللّه في الأرض ..ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «الأرض» كلها،لتحرير «الإنسان» كله.بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها ..فكلها «أرض» يسكنها «الإنسان» وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج،وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم ..إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلا لا تستساغ! ..لولا أن الأمر ليس كذلك.وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية.فليس لواحد منها أن يقول:

إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعباد ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية للّه وحده بلا شريك! ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهم:إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف،وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة ..لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق ..إن الإسلام يقوم على قاعدة:«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ..ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ولماذا اشترى اللّه من

المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»؟ ..إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد ..بل لأمر مناقض تماما للإكراه على العقيدة ..إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد! ..لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد يواجه دائما طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد.ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم،أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل ..وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله ..

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة،ويدمر هذه القوى التي تحميها ..ثم ماذا؟ ..ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحرارا حقا في اختيار العقيدة التي يريدونها.إن شاءوا دخلوا في الإسلام،فكان لهم ما للمسلمين من حقوق،وعليهم ما عليهم من واجبات،وكانوا إخوانا في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية،إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد،وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها – كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا – لتكرههم على التنصر.وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر،فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون ..وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية ..وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط،أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية،أو طبيعة لاهوتية ناسوتية ..إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية! وأخيرا فإن صورة الانطلاق في الأرض

لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيا في هذا الزمان وتتعاظمهم لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر ..وهو يهول فعلا! ..فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين،وهم شعوب مغلوبة على أمرها أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال،حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا ..ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر اللّه فعلا! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم اللّه دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين،ونظمت على أساسه.وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها للّه بيعة صدق،فنصرها اللّه يوما بعد يوم،وغزوة بعد غزوة،ومرحلة بعد مرحلة ..وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث اللّه محمدا – ﷺ- ليدعو الناس – في جاهليتهم – إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه.فجاهد والقلة التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة.وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة ..وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول ..ثم يصلوا – يوم أن يصلوا – إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن اللّه ..ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء والذي تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية.ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية:لا إله إلا اللّه.ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا،ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد في الأرض إنما تنطلق باسم اللّه وعلى بركة اللّه ..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين،وهم في مثل ما هم فيه من الهزال! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية اللّه وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين،الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة!

إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق.وحفظ ما في متون الكتب.والتعامل مع النصوص في غير حركة،لا يؤهل لفقه هذا الدين،و لم يكن مؤهلا له في يوم من الأيام!
وأخيرا فإن الظروف التي نزل فيها قول اللّه تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً،وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..
تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم ..وهم أهل كتاب ..ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملي،بما في عقيدتهم من انحراف،وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد ..
وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب،المنحرفين عن كتابهم،المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم! ..وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة اللّه وكتابه،في أي زمان وفي أي مكان! ثم لقد أمر اللّه المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة،وعقب على هذا الأمر بقوله:«أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..
ولهذا التعقيب دلالته ..فالتقوى هنا ..التقوى التي يحب اللّه أهلها ..هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار وتقاتلهم في «غلظة» أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع ..حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه.
ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب!
إنه قتال يسبقه إعلان،وتخيير بين:قبول الإسلام،أو أداء الجزية،أو القتال ..ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد - في حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها).
وهذه آداب المعركة كلها،من وصية رسول اللّه - ﷺ-:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ،أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ،وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا،ثُمَّ قَالَ:اغْزُوا بِسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ،اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا،وَلاَ تَغْدِرُوا،وَلاَ تُمَثِّلُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا،وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ،أَوْ خِلاَلٍ،فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ،فَإِنْ أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ،وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ،وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ،وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ،يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ،وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ،فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ،وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ،وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّكَ،فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ،وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكَ ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ،وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ.[١٣٥]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺفَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺعَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ[١٣٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺلَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ،قَالَ:إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ،فَادْعُهُم الَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ

---

[١٣٥] - أخرجه مسلم وغيره المسند الجامع [٣ /٤٨٤](١٩٠٢) ومسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٦٤٠]((٢٣٠٣٠) ٢٣٤١٨)

[١٣٦] - مصنف ابن أبي شيبة [١٧ /٥٦٩](٣٣٧٨٤و٣٣٧٨٥) صحيح

أَغْنيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ،فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ،فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ،وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ.[١٣٧]

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لَعَلَّكُمْ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا فَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ فَيَتَّقُونَكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ دُونَ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ فَيُصَالِحُونَكُمْ عَلَى صُلْحٍ فَلاَ تُصِيبُوا مِنْهُمْ شَيْئًا فَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لاَ يَصْلُحُ لَكُمْ »[١٣٨].

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ،يَقُولُ:إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺنَزَلَ بِخَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ،وَأَنَّ صَاحِبَ خَيْبَرَ كَانَ رَجُلا بَارِدًا مُنْكَرًا،فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:يَا مُحَمَّدُ،أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا،وَتَأْكُلُوا ثَمَرَتَنَا،وَتَدْخُلُوا بُيُوتَنَا،وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:يَا ابْنَ عَوْفٍ،ارْكَبْ فَرَسَكَ،فَأَذِّنْ فِي النَّاسِ أَنَّ الْجَنَّةَ لا تَحِلُّ إِلا لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ،وَأَنِ اجْتَمِعُوا إِلَى الصَّلاةِ قَالَ:فَاجْتَمَعْنَا لَهُ،فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ:إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحِلَّ لَكُمْ بُيُوتَ الْمُكَاتَبِينَ إِلا بِإِذْنٍ،وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ،وَلا تَضْرِبُوا نِسَاءَهُمْ،أَمْ حَسِبَ امْرُؤٌ مِنْكُمْ وَقَدْ شَبِعَ حَتَّى بَطِنَ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ،لا يَظُنُّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ شَيْئًا إِلا مَا فِي الْقُرْآنِ،أَلا إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُ وَوَعَظْتُ بِأَشْيَاءَ هِيَ مِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ،وَأَنَّهُ لا يَحِلُّ لَكُمْ مِنَ السِّبَاعِ كُلُّ ذِي نَابٍ،وَلا الْحُمُرُ،وَلا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُكَاتَبِينَ إِلا بِإِذْنٍ،وَلا تَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا إِلا مَا طَابُوا لَهُ نَفْسًا،وَقَالَ:لا تَضْرِبُوا،أَوْ قَالَ:لا تَجْلِدُوا نِسَاءَهُمْ " [١٣٩].

وعَنِ الْحَسَنِ،قَالَ حَدَّثَ الْأَسْوَدُ بْنُ سَرِيعٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺأَرْبَعَ غَزَوَاتٍ فَتَنَاوَلَ أَصْحَابُهُ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَمَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ:" أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ثُمَّ تَنَاوَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ " فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسُوا أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:" إِنَّ

---

[١٣٧] - أخرجه الجماعة المسند الجامع [٨ /٥٥٣](٥٩١١) وهو حديث صحيح مشهور

[١٣٨] - سنن أبي داود - المكنز [٣ /١٣٦](٣٠٥٣) والمسند الجامع [١٨ /١٣٤٧](١٥٧٢٦) فيه جهالة

[١٣٩] - الآحاد والمثاني [٢ /٥٢٠](١٣٣٦) وسنن أبي داود - المكنز [٣ /١٣٥](٣٠٥٢) وصحيح الجامع (٧٨٤٠) حسن

أَخْيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَتْ تُولَدُ نَسَمَةٌ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا يَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يَبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا "[140]

وعن الْحَسَنَ،حَدَّثَنَا الأَسْوَدُ بْنِ سَرِيعٍ وَكَانَ رَجُلاً مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَالَ:وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ،يَعْنِي الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ،قَالَ:غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺأَرْبَعَ غَزَوَاتٍ،قَالَ:فَتَنَاوَلَ قَوْمٌ الذُّرِّيَّةَ بَعْدَ مَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَقَالَ:أَلاَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ حَتَّى تَنَاوَلُوا الذُّرِّيَّةَ،قَالَ:فَقَالَ رَجُلٌ:يَا رَسُولَ اللهِ،أَوَلَيْسَ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ،إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلاَّ وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ،فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا،فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَ يُنَصِّرَانِهَا.[141]

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ:أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ قَالَ لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ فَقَالُوا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَتَمْشِى وَنَحْنُ رُكْبَانٌ؟ فَقَالَ:إِنِّى أَحْتَسِبُ خُطَاىَ هَذِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ فَقَالَ:أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ اغْزُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَجْبُنُوا وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَلاَ تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمُ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِى الإِسْلاَمِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِى الْفَىْءِ وَالْغَنَائِمِ شَىْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِى الإِسْلاَمِ

[140] - شرح مشكل الآثار [٤ /١٣](١٣٩٤) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٣ /٥٠٠] صحيح

[141] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٥٨٤](١٦٣٠٣) ١٦٤١٢ صحيح

فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجزْيَة فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا منْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعينُوا باللَّـــه عَلَيْهِمْ فَقَاتلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلاَ تُغْرِقُنَّ نَحْلاً وَلاَ تُحْرِقُنَّهَا وَلاَ تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلاَ شَـــجَرَةً تُثْمِرُ وَلاَ تَهْدِمُوا بِيعَةً وَلاَ تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلاَ الشُّيُوخَ وَلاَ النِّسَاءَ وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِى الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّـــيْطَانُ فِى أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ."[١٤٢]

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ:حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْـــهُ لَمَّـــا بَعَثَ أُمَرَاءَ الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ:" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللهِ،قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ،فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ،وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ،وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تُحَرِّقُنَّهَـــا وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً "[١٤٣]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ،قَالَ:كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ أَنْ لاَ تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلاَ صَبِيًّا،وَأَنْ تَقْتُلُوا مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُواسَى."[١٤٤]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ،قَالَ:أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ:لاَ تَغُلُّوا،وَلاَ تَغْدِرُوا،وَلاَ تَقْتُلُوا وَلَيدًا وَاتَّقُوا اللَّـــهَ فِي الْفَلاَّحِينَ."[١٤٥]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ،قَالَ:حدِّثْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتْبَعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ،فَقَالَ:إِنِّي أُوصِيك بِعَشْرٍ:لاَ تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا،وَلاَ امْرَأَةً،وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا،وَلاَ تَقْطَعَـــنَّ

---

[١٤٢] - السنن الكبرى للبيهقي- المكتز - (٩ / ٨٥) (١٨٥٩٢) صحيح لغيره

الغلول:الخيانة والسرقة - التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - الخصال:جمع خصلة وهـــي خلق في الإنسان يكون فضيلة أو رزيلة -الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - أبى:امتنع ورفـــض - الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد لِلْكِتَابِي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله ،والجزية مقابـــل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم

[١٤٣] - شرح مشكل الآثار - (٣ / ١٤٤) صحيح لغيره

[١٤٤] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح

[١٤٥] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩٢) حسن

الغلول:الخيانة والسرقة -التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به

شَجَرًا مُثْمرًا،وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامرًا،وَلاَ تَعْقرَنَّ شَاةً،وَلاَ بقرة إلاَّ لمَأْكَلَة،وَلاَ تُغْرقَنَّ نَخْلاً،وَلاَ تَحْرقَنَّهُ وَلاَ تَغُلّ،وَلاَ تَجْبُنْ."[١٤٦]

وعَنْ مَنْصُور بْن الْمُعْتَمر،قَالَ:حَدَّثَني شَقيقُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَسَديُّ،عَن الرَّسُول الَّذي جَرَى بَيْنَ عُمَرَ بْن الْخَطَّاب رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَلَمَةَ بْن قَيْس الْأَشْجَعيِّ قَالَ:نَدَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب النَّاسَ مَعَ سَلَمَةَ بْن قَيْس الْأَشْجَعيِّ بالْحَرَّة إلَى بَعْض أَهْل فَارس،وَقَالَ:" انْطَلقُوا بسْم اللَّه،وَفي سَبيل اللَّه ؛ تُقَاتلُونَ مَنْ كَفَرَ باللَّه،لَا تَغُلُّوا،وَلَا تَغْدرُوا،وَلَا تُمَثِّلُوا،وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً،وَلَا صَبيًّا،وَلَا شَيْخًا هَمًّا،وَإذَا انْتَهَيْتَ إلَى الْقَوْم فَادْعُهُمْ إلَى الْإسْلَام وَالْجهَاد،فَإنْ قَبلُوا فَهُمْ منْكُمْ،فَلَهُمْ مَا لَكُمْ،وَعَلَيْهمْ مَا عَلَيْكُمْ،وَإنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إلَى الْإسْلَام بلَا جهَاد،فَإنْ قَبلُوا فَاقْبَلْ منْهُمْ،وَأَعْلمْهُمْ أَنَّهُ لَا نَصيبَ لَهُمْ في الْفَيْء،فَإنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إلَى الْجزْيَة،فَإنْ قَبلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بقَدْر طَاقَتهمْ،وَضَعْ فيهمْ جَيْشًا يُقَاتلْ مَنْ وَرَاءَهُمْ،وَخَلِّهمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهمْ،فَإنْ أَبَوْا فَقَاتلْهُمْ،فَإنْ دَعُوكُمْ إلَى أَنْ تَعْطُوهُمْ ذمَّةَ اللَّه وَذمَّةَ مُحَمَّد ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذمَّةَ اللَّه وَلَا ذمَّةَ مُحَمَّد،وَلَكنْ أَعْطُوهُمْ ذمَمَ أَنْفُسكُمْ،ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ،فَإنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتلْهُمْ،فَإنَّ اللَّهَ نَاصرُكُمْ عَلَيْهمْ " فَلَمَّا قَدمْنَا الْبلَادَ دَعَوْنَاهُمْ إلَى كُلِّ مَا أُمرْنَا به،فَأَبَوْا،فَلَمَّا مَسَّهُمُ الْحَصْرُ نَادَوْنَا:أَعْطُونَا ذمَّةَ اللَّه وَذمَّةَ مُحَمَّد،فَقُلْنَا:لَا،ولَكنَّا نُعْطيكُمْ ذمَمَ أَنْفُسنَا،ثُمَّ نَفي لَكُمْ،فَأَبَوْا،فَقَاتَلْنَاهُمْ،فَأُصيبَ رَجُلٌ منَ الْمُسْلمينَ،ثُمَّ إنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا،فَمَلَأَ الْمُسْلمُونَ أَيْديَهُمْ منْ مَتَاعٍ وَرَقيقٍ وَرقَة مَا شَاءُوا،ثُمَّ إنَّ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ أَميرَ الْقَوْم دَخَلَ،فَجَعَلَ يَتَخَطَّى بُيُوتَ نَارهمْ،فَإذَا بسَفَطَيْن مُعَلَّقَيْن بأَعْلَى الْبَيْت،فَقَالَ:مَا هَذَان السَّفَطَان ؟ فَقَالُوا:أَشْيَاءُ كَانَتْ تُعَظِّمُ بهَا الْمُلُوكُ بُيُوتَ نَارهمْ،فَقَالَ:أَهْبطُوهُمَا إلَيَّ،فَإذَا عَلَيْهمَا طَوَابعُ الْمُلُوك بَعْدَ الْمُلُوك قَالَ:مَا أَحْسَبُهُمْ طَبَعُوا إلَّا عَلَى أَمْر نَفيس،عَلَيَّ بالْمُسْلمينَ،فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرَهُمْ خَبَرَ السَّفَطَيْن،فَقَالَ:أَرَدْتُ أَنْ أَفُضَّهُمَا بمَحْضَر منْكُمْ،فَفَضَّهُمَا،فَإذَا هُمَا مَمْلُوءَان بمَا لَمْ يُرَ مثْلُهُ أَوْ قَالَ:لَمْ أَرَ مثْلَهُ،فَأَقْبَلَ بوَجْهه عَلَى الْمُسْلمينَ،فَقَالَ:يَا مَعْشَرَ الْمُسْلمينَ،قَدْ عَلمْتُمْ مَا أَبْلَاكُمُ اللَّهُ في وَجْهكُمْ هَذَا،فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَطيبُوا بهَذَيْن السَّفَطَيْن أَنْفُسًا لأَمير الْمُؤْمنينَ لحَوَائجه وَأُمُوره وَمَا يَنْتَابُهُ،فَأَجَابُوهُ بصَوْت

---

[١٤٦] - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح مرسل

رَجُلٍ وَاحِد:إِنَّا نُشْهِدُ اللَّهَ أَنَّا قَدْ فَعَلْنَا،وَطَابَتْ أَنْفُسُنَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِين،فَدَعَانِي،فَقَالَ:قَدْ عَهِدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحَرَّة،وَمَا أَوْصَانَا،وَمَا اتَّبَعْنَا مِنْ وَصِيَّتِه وَأَمْرِ السَّفَطَيْن،وَطِيبِ أَنْفُسِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِهِمَا،فَأْت بِهِمَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،وَاصْدُقْهُ الْخَبَرَ،ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ بِمَا يَقُولُ لَكَ،فَقُلْتُ:مَا لِي بُدٌّ مِنْ صَاحِبٍ،فَقَالَ:خُذْ بِيَدِ مَنْ أَحْبَبْتَ .فَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ،فَانْطَلَقْنَا بِالسَّفَطَيْنِ نَهُزُّهُمَا حَتَّى قَدِمْنَا بِهِمَا الْمَدِينَةَ،فَأَجْلَسْتُ صَاحِبِي مَعَ السَّفَطَيْن،وَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،فَإِذَا بِهِ يُغَدِّي النَّاسَ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَّازٍ وَهُوَ يَقُولُ:" يَا يَرْفَأُ،ضَعْ هَاهُنَا،يَا يَرْفَأُ،ضَعْ هَاهُنَا "،فَجَلَسْتُ فِي عُرْضِ الْقَوْمِ لَا آكُلُ شَيْئًا فَمَرَّ بِي،فَقَالَ:" أَلَا تُصِيبُ مِنَ الطَّعَامِ ؟ " فَقُلْتُ:لَا حَاجَةَ لِي بِه،فَرَأَى النَّاسَ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يَدُورُ فِيهِمْ،فَقَالَ:" يَا يَرْفَأُ،خُذْ خُونَكَ وَقِصَاعَكَ "،ثُمَّ أَدْبَرَ وَاتَّبَعْتُهُ،فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ طَرِيقَ الْمَدِينَة حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارٍ قَوْرَاءَ عَظِيمَة،فَدَخَلَهَا،فَدَخَلْتُ فِي إِثْرِه،ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ فَدَخَلَهَا،فَقُمْتُ مَلِيًّا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِه،فَقُلْتُ:السَّلَامُ عَلَيْكَ،فَقَالَ:" وَعَلَيْكَ،فَادْخُلْ "،فَدَخَلْتُ،فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى وِسَادَة مُرْتَفِقًا أُخْرَى،فَلَمَّا رَآنِي نَبَذَ إِلَيَّ الَّتِي كَانَ مُرْتَفِقًا،فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا،فَإِذَا هِيَ تَغْرِزُنِي،فَإِذَا حَشْوُهَا لِيفٌ،قَالَ:" يَا جَارِيَةُ،أَطْعِمِينَا "،فَجَاءَتْ بِقَصْعَة فِيهَا قَدَرٌ مِنْ خُبْزٍ يَابِسٍ،فَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا،مَا فِيه مِلْحٌ وَلَا خَلٌّ،فَقَالَ:" أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ رَاضِيَةً أَطْعَمَتْنَا أَطْيَبَ مِنْ هَذَا "،فَقَالَ لِي:" ادْنُ "،فَدَنَوْتُ،قَالَ:فَذَهَبْتُ أَتَنَاوَلُ مِنْهَا قِدْرَةً،فَلَا وَاللَّه إِنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُجِيزَهَا،فَجَعَلْتُ أَلُوكُهَا مَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِب،وَمَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِب،فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أُسِيغَهَا،وَأَكَلَ أَحْسَنَ النَّاسِ إِكْلَةً،إِنْ يَتَعَلَّقُ لَهُ طَعَامٌ بِثَوْبٍ أَوْ شَعْرٍ،حَتَّى رَأَيْتُهُ يَلْطَعُ جَوَانِبَ الْقَصْعَة،ثُمَّ قَالَ:" يَا جَارِيَةُ،اسْقِينَا "،فَجَاءَتْ بِسَوِيقِ سُلْت،فَقَالَ:" أَعْطِيه "،فَنَاوَلَتْنِيه،فَجَعَلْتُ إِذَا أَنَا حَرَّكْتُهُ ثَارَتْ لَهُ قُشَارٌ،وَإِنْ أَنَا تَرَكْتُهُ تَنِدَ،فَلَمَّا رَآنِي قَدْ بَشِعْتُ ضَحِكَ،فَقَالَ:" مَا لَكَ أَرِنِيه إِنْ شِئْتَ "،فَنَاوَلْتُهُ،فَشَرِبَ حَتَّى وَضَعَ عَلَى جَبْهَتِه هَكَذَا ثُمَّ قَالَ:" الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا،وَسَقَانَا فَأَرْوَانَا،وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّة مُحَمَّد ﷺ "،فَقُلْتُ:قَدْ أَكَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَشَبِعَ،وَشَرِبَ فَرَوِيَ،حَاجَتِي جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ – قَالَ شَقِيقٌ:وَكَانَ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ إِيَّايَ ثَلَاثَةُ أَيْمَانٍ،هَذَا فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا مَا قَالَ:لِلَّه أَبُوكَ

فَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ:رَسُولُ سَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ قَالَ:فَتَاللَّه،لَكَأَنَّمَا خرَجْتُ مِنْ بَطْنِهِ تَحَنُّنًا عَلَيَّ،وَحُبًّا لخبَرِي عَمَّنْ جئْتُ منْ عنْده،وَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيَّ:إِيهًا للَّه أَبُوكَ،كَيْفَ تَرَكْتَ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسٍ ؟ كَيْفَ الْمُسْلمُونَ ؟ مَا صَنَعْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ ؟ قُلْتُ:مَا تُحبُّ يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ،فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْه الْخَبَرَ إِلَى أَنَّهُمْ نَاصَبُونَا الْقتَالَ،فَأُصيبَ رَجُلٌ منَ الْمُسْلمينَ،فَاسْتَرْجَعَ وَبَلَغَ منْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ،وَتَرَحَّمَ عَلَى الرَّجُلِ طَوِيلًا،قُلْتُ:ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتحَ عَلَيْنَا يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ فَتْحًا عَظيمًا فَمَلَأَ الْمُسْلمُونَ أَيْديَهُمْ منْ مَتَاعٍ وَرَقيقٍ وَرقَةٍ مَا شَاءُوا قَالَ،وَيْحَكَ كَيْفَ اللَّحْمُ بهَا ؟ فَإِنَّهَا شَجَرَةُ الْعَرَب،وَلَا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلَّا بشَجَرَتهَا،قُلْتُ:الشَّاةُ بدرْهَمَيْنِ،ثُمَّ قَالَ:" اللَّهُ أَكْبَرُ "،ثُمَّ قَالَ:وَيْحَكَ هَلْ أُصيبَ منَ الْمُسْلمينَ رَجُلٌ آخَرُ ؟ قَالَ:جئْتُ إِلَى ذكْرِ السَّفَطَيْنِ،فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهُمَا،فَحَلَفَ الرَّسُولُ عنْدَهَا يَمينًا أُخْرَى،اللَّهُ الَّذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَكَأَنَّمَا أُرْسلَتْ عَلَيْه الْأَفَاعي وَالْأَسَاودُ وَالْأَرَاقمُ أَنْ وَثَبَ كَمَكَان تيكَ،ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ بوَجْهه آخذًا بحَقْوَته فَقَالَ:للَّه أَبُوكَ وَعَلَامَ يَكُونَان لعُمَرَ ؟ وَاللَّه لَيَسْتَقْبلَنَّ الْمُسْلمُونَ الظَّمَأَ وَالْجُوعَ وَالْخَوْفَ في نُحُورِ الْعَدُوِّ،وَعُمَرُ يَغْدُو منْ أَهْله وَيَرُوحُ إِلَيْهِمْ يَتَّبعُ أَفْيَاءَ الْمَدينَة،ارْجعْ بمَا جئْتَ به فَلَا حَاجَةَ لي فيه،فَقُلْتُ:يَا أَميرَ الْمُؤْمنينَ،إِنَّهُ أُبْدعَ بي وَبصَاحبي فَاحْملْنَا قَالَ:لَا،وَلَا كَرَامَةَ للْآخرِ مَا جئْتَ بمَا أُسَرُّ بعْهُ فَأَحْملَكَ،قُلْتُ:يَا لَعبَاد اللَّه أَيُتْرَكُ رَجُلٌ بَيْنَ أَرْضَيْنِ ؟ قَالَ:أَمَا لَوْلَا قُلْتَهَا يَا يَرْفَأُ انْطَلقْ به فَاحْملْهُ وَصَاحبَهُ عَلَى نَاقَتَيْنِ ظهْرِيَّيْنِ منْ إِبلِ الصَّدَقَة،ثُمَّ انْخَسْ بهمَا حَتَّى تُخْرجَهُمَا منَ الْحَرَّة،ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ:أَمَا لَئنْ شَتَا الْمُسْلمُونَ في مَشَاتيهمْ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَا بَيْنَهُمْ لَأَعْذرَنَّ منْكَ وَمنْ صُوَيْحبكَ،ثُمَّ قَالَ:إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْبلَاد فَانْظُرْ أَحْوَجَ مَنْ تَرَى منَ الْمُسْلمينَ فَادْفَعْ إِلَيْه النَّاقَتَيْنِ،فَأَتَيْنَاهُ فَأَخْبَرَنَاهُ الْخَبَرَ،فَقَالَ:ادْعُ لي الْمُسْلمينَ،فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ:إِنَّ أَميرَ الْمُؤْمنينَ قَدْ وَفَرَكُمْ بسَفَطَيْكُمْ،وَرَآكُمْ أَحَقَّ بهمَا منْهُ،فَاقْتَسمُوا عَلَى بَرَكَة اللَّه،فَقَالُوا:أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَميرُ إِنَّهُ يَنْبَغي لَهُمَا بَصَرٌ وَتَقْويمٌ وَقسْمَةٌ فَقَالَ:وَاللَّه لَا تَبْرَحُونَ وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَني منْهَا بحَجَرٍ،فَعَدَّ الْقَوْمَ وَعَدَّ الْحجَارَةَ فَرُبَّمَا طَرَحُوا إِلَى الرَّجُلِ الْحَجَرَيْنِ،وَفَلَقُوا الْحَجَرَ بَيْنَ اثْنَيْنِ " "[١٤٧]

---

[١٤٧] - سنن سعيد بن منصور - (٦ / ١١) (٢٢٩٩) حسن

وعن حيوة بن شريح:أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث أميرا أوصاهم بتقوى الله وقال عند عقدة الولاية:بسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر،وقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله،ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين،ثم لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة،ولا تسرفوا عند الظهور،ولا تنكلوا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة ولا هرما ولا وليدا،وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند جمة النهضات،وفى شن الغارات،ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالأرباح فى البيع الذى بايعتم وذلك هو الفوز العظيم"[١٤٨]

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه،وفي آدابه الرفيعة،وفي الرعاية لكرامة الإنسان.وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه.أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة،غير المحاربين أصلا وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان.وقد تضمن الإسلام ما فيه

الغلول:الخيانة والسرقة -التمثيل:جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به – أبى:امتنع ورفض – الفيء:ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب – الجزية:هي عبارة عن الْمَال الذي يُعْقَد للْكِتَابي عليه الذِّمَّة،وهي فِعْلة،من الجزَاء،كأنها جَزَت عن قتله ،والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم – الذمة والذمام:العَهْد،والأمَانِ،والضَّمان،والحُرمَة،والحقّ – أبى:رفض وامتنع – التخلل:التحرك والتنقل بين شيئين – في إثره:بعده – مليا:وقتا طويلا -النبذ:الرمي والطرح – القصعة:وعاء يؤكل ويُثْرَدُ فيه وكان يتخذ من الخشب غالبا – الدنو:الاقتراب – الجارية:الأمة المملوكة أو الشابة من النساء – السويق:طعام يصنع من دقيق القمح أو الشعير بخلطه بالسمن والعسل – السُّلت:ضَرْب من الشَّعير أبيضُ لا قشْر له،وقيل هو نوعٌ من الحِنْطة -إيه:هذه كلمة يراد بها الاسْتزَادة،وهي مبنية على الكسر،فإذا وصَلْتَ نَوّنْتَ فقلت إيهٍ حدّثْنا،وإذا قلت إيهًا بالنصب فإِنَّما تأمره بالسكوت أو العكس -المتاع:كل ما يُنْتَفَعُ به وَيُسْتَمْتَعُ ،أو يُتَبَلَّغُ بِهِ ويتُزَوَدَّ من سلعة أو مال أو زوج أو أثاث أو ثياب أو مأكل وغير ذلك – ويْح:كَلمةُ تَرَحُّمٍ وتَوَجُّعٍ،تقالُ لمن وَقَع في هَلَكةٍ لا يَسْتَحِقُّها. وقد يقال بمعنى المدح والتَّعجُّب – الشاة:الواحدة من الغنم وقيل:الواحدة من الضأن والمَعز والظِّباءِ والبَقَر والنعامِ وحُمُرِ الوحش – في نحر العدو:في مقابلته وقتاله – الغُدُو:السير أول النهار – أُبْدِعَ بفلان:عطبت راحلتُهُ وكلَّتْ وبقي بعيدا عن الرفاق – الإبل:الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه -مشاتيهم:مواضعهم وأماكنهم – برح المكان:زال عنه وغادره

[١٤٨] – جامع الأحاديث – (٢٦ / ١٦٣) (٢٨٧٩٦) وفيه ضعف – هناك زيادات كثيرة من عندي

الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين،ولاحترام بشرية المحاربين.إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيـــد وتكـــرار فوجب استثناء حالة الحرب،بقدر ما تقتضي حالة الحرب،دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.[١٤٩]



[١٤٩] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٥٧]

إن تعريف الألوهية الحقة وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده ..

هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله ..وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها.وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق – عند التأمل العميق – كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن ..تستحق أن يرسل اللّه من أجلها رسله جميعا،وأن ينزل بها كتبه جميعا:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» ..

إن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم،واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم.

لا تستقيم أولا إزاء هذا الكون الذي يعيشون فيه،ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه ..وهم حين يضطرب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية يروحون يؤلهون الأشياء والأحياء – بل يؤلهون الأشباح والأوهام! – ويعبدون أنفسهم لها في صور مضحكة،ولكنها بائسة!،ويقدمون لها – بوحي من الكهان والمنتفعين بأوهام العوام في كل زمان وفي كل مكان – خلاصة كدهم من الرزق الذي أعطاهم اللّه.بل إنهم ليقدمون لها فلذات أكبادهم كما يقدمون لها أرواحهم في بعض الأحيان ..وهي أشياء وأحياء لا حول لها ولا قوة،ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا ..وتضطرب حياتهم كلها،وهم يعيشون بين الهلع والجزع من هذه الأشياء والأحياء وبين التقرب والزلفى لمخلوقات مثلهم،عبوديتها للّه كعبوديتهم ..وذلك كما قال اللّه تعالى عنهم:«وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً.فَقالُوا:هذا لِلَّهِ – بِزَعْمِهِمْ – وَهذا لِشُرَكائِنا! فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ،وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ! ساءَ ما يَحْكُمُونَ! وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ – وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ –

وَقالُوا:هذه أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ - بِـزَعْمِهِمْ - وَأَنْعـامٌ حُرِّمَـتْ ظُهُورُها،وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّه عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْه! - سَيَجْزِيهِمْ بما كانُوا يَفْتَرُونَ - وَقالُوا:ما فِي بُطُونِ هذه الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا،وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيه شُرَكاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ - قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُـمْ سَـفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ،وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّه،قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ »[١٥٠].

فهذه نماذج من تكاليف العبودية لغير اللّه في الأموال والأولاد التي تقدم لمخلوقـات مـن خلق اللّه.أشياء أو أحياء ما أنزل اللّه بها من سلطان! كذلك لا تستقيم حياة البشـر إزاء بعضهم البعض بدون استقامة حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم،وفي حياتهم وواقعهم ..إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الحقيقية الكاملة لا يمكن أن تتحقق في ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد اللّه سبحانه بالربوبية والقوامة والحاكمية ولا يجعـل لـه وحده حق الهيمنة على حياة الناس في الدنيا والآخرة،في السر والعلانية ولا يعتـرف لـه وحده بحق التشريع والأمر والحاكمية في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ..

والواقع البشري على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها.فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة للّه وحده - اعتقادا ونظاما - ودانوا لغير اللّه من العباد - سواء كانت هذه الدينونة،بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع - إلا كانت العاقبة هـي فقدانهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم! والتفسير الإسلامي للتاريخ يرد ذل المحكـومين للطواغيت،وسيطرة الطواغيت عليهم،إلى عامل أساسي هو فسوق المحكومين عـن ديـن اللّه،الذي يفرد اللّه سبحانه بالألوهية،ومن ثم يفـرده بالربوبيـة والسـلطان والقوامـة والحاكمية.فيقول اللّه سبحانه عن فرعون وقومه:«وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِه قالَ:يـا قَـوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذه الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي؟ أَفَلا تُبْصِرُونَ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هـذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ؟ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْه أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ،أَوْ جاءَ مَعَـهُ الْمَلائِكَـةُ مُقْتَرِنِينَ! فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» ..

---

[١٥٠] - يراجع تفسير هذه الآيات من سورة الأنعام ص ١٢١٣ - ١٢٢٨ من الجزء الثامن.

فيرد استخفاف فرعون لهم إلى أنهم فاسقون.فما يستخف الحاكم الطاغي قومه وهم مؤمنون بالله موحدون لا يدينون لسواه بربوبية تزاول القوامة والحاكمية! ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده،فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته،قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره.العبودية،التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم،مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة! لقد هربت أوربا من الله – في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف! [١٥١]– وثارت على الله – سبحانه – في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة! ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم – ومصالحهم كذلك – في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية،والأوضاع النيابية البرلمانية،والحريات الصحفية،والضمانات القضائية والتشريعية،وحكم الأغلبية المنتخبة ..إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة ..ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان «الرأسمالية» ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات وكل تلك التشكيلات،إلى مجرد لافتات،أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال،فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحفية! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم،في معزل عن الله سبحانه!!! ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها «رأس المال» و«الطبقة!» إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة «الرأسماليين» الدينونة لطبقة «الصعاليك»! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين! وفي كل حالة وفي كل وضع وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر،دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة.دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالة! إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن

---

[١٥١] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين». «دار الشروق».

للّه وحده،تكن لغير اللّه ..والعبودية للّه وحده تطلق الناس أحرارا كراما شـرفاء أعليـاء ..والعبودية لغير اللّه تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم ..ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية! من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلـك العناية في رسالات اللّه – سبحانه – وفي كتبه ..

وهذه السورة نموذج من تلك العناية ..فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصـنام والأوثـان في الجاهليات الساذجة البعيدة.ولكنها تتعلق بالإنسان كله في كل زمان وفي كـل مكـان وتتعلق بالجاهليات كلها ..جاهليات ما قبل التاريخ.وجاهليات التاريخ.وجاهلية القـرن العشرين.وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد! [١٥٢]

ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تقرير ألوهيـة اللّـه – سـبحانه – وربوبيته وحده للعباد:«وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّـا أَنَـا فَاعْبُدُونِ».

وكان ختام هذه السورة التي نواجهها:« قُلْ:يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ،وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِـنَ الْمُؤْمِنِينَ.وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً،وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.وَلا تَـدْعُ مِـنْ دُونِ اللَّهِ،ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ،فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ.وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ،وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ،يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِـنْ عِبـادِهِ،وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.قُلْ:يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ،فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّمـا يَهْتَـدِي لِنَفْسِهِ،وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها.وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ،وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» [١٥٣] ..

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

---

[١٥٢] – يراجع كتاب:«الإسلام والجاهلية» للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المـودودي أمـير الجماعـة الإسـلامية بباكستان. وكتاب:«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب. «دار الشروق».

[١٥٣] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٧٨]

لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم،ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية.كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي ..

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة،دون إدراك لهاتين الحقيقتين ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام،ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها ..الذين يفعلون ذلك ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ ..هؤلاء ليسوا «فقهاء»! وليس لهم «فقه» بطبيعة الفقه! وبطبيعة هذا الدين أصلا!

إن «فقه الحركة» يختلف اختلافا أساسيا عن «فقه الأوراق» مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها «فقه الأوراق»!

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره «الواقع» الذي نزلت فيه النصوص،وصيغت فيه الأحكام.ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لا تنفصل عناصره.فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته،واختل تركيبه! ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته،يعيش في فراغ،لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها ..إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ!

ونأخذ مثالا لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب،وهو المأخوذ من قوله تعالى:«فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ»،فعَنْ أَبِي مُوسَى

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺأَنَا وَرَجُلان مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ:أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلاكَ اللَّهُ، وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ:إِنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلا أَحَدًا حِرْصَ عَلَيْهِ"[١٥٤] . ..

لقد نشأ هذا الحكم – كما نزلت تلك النصوص – في مجتمع مسلم ليطبق في هذا المجتمع وليعيش في هذا الوسط وليلبي حاجة ذلك المجتمع.وفق نشأته التاريخية،ووفق تركيبه العضوي،ووفق واقعه الذاتي.فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي ..وقد نشأ في وسط واقعي و لم ينشأ في فراغ مثالي.وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي ..إسلامي في نشأته،وفي تركيبه العضوي،وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة ..وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر «فراغا» بالقياس إلى ذلك الحكم،لا يملك أن يعيش فيه،ولا يصلح له،ولا يصلحه كذلك! ..ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي.وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني ..

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم،ولا يرشحون أنفسهم للوظائف،ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة ...

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم.كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بالتزاحم عليه – اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان اللّه تعالى – ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم.

وهؤلاء يجب أن يمنعوها! ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم،وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضا ..

إن الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع.فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية.

[١٥٤] - مسند أبي عوانة مشكلا [٤ /٢١٠](٥٦٤٠) صحيح

أولا:تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله – على عهد النبوات – أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند اللّه وما بلغه رسوله – على مدار الزمان بعد ذلك – فيستجيب للدعوة ناس يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة.فمنهم من يفتن ويرتد،ومنهم من يصدق ما عاهد اللّه عليه فيقضي نحبه شهيدا ومنهم من ينتظر حتى يحكم اللّه بينه وبين قومه بالحق ..

هؤلاء يفتح اللّه عليهم،ويجعل منهم ستارا لقدره،ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره،والتمكين في الأرض له،ليقيم مملكة اللّه في الأرض – أي لينفذ حكم اللّه في الأرض – ليس له من هذا النصر والتمكين شيء إنما هو نصر لدين اللّه،وتمكين لربوبية اللّه في العباد.

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ولا عند حدود جنس معين ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوّم واحد من تلك المقوّمات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا «الإنسان» ..كل الإنسان:في «الأرض» ..كل الأرض ..من العبودية لغير اللّه وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت[155].

وفي أثناء الحركة بهذا الدين – وقد لا حظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض،ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم – تتميز أقدار الناس،وتتحدد مقاماتهم في المجتمع،ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية،الجميع يتعارفون عليها،من البلاء في الجهاد،والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة ..وكلها قيم يحكم عليها الواقع،وتبرزها الحركة،ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها ..ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم،ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة،وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية – كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين

---

[155] – يراجع فصل «الجهاد في سبيل اللّه» في كتاب:«معالم في الطريق». «دار الشروق».

ثم الأنصار.وأهل بدر،وأهل بيعة الرضوان،ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل – ثم ظل يتميـــز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام ..في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا،ولا ينكر الناس فضائل المتميزين – مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع – وعندئذ تنتفي الحاجة من جانب آخر إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمـــارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المســـلم الأول بســـبب نشـــأته التاريخية! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة ..لن يوجـــد اليوم أو غدا،إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديـــد،وإخراجهم مـــن الجاهلية التي صاروا إليها ..وهذه نقطة البدء ..ثم تعقبها الفتنة والابتلاء – كما حـــدث أول مرة – فأما ناس فيفتنون ويرتدون! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا اللّه عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء.وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام،ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار حتى يحكم اللّه بينهم وبين قومهم بالحق،ويمكّن لهم في الأرض – كما مكن للمسلمين أول مرة – فيقوم في أرض من أرض اللّه نظام إسلامي ..ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإســـلامي قـــد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية،وفق الموازين والقيم الإيمانية ..ويومئذ لـــن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها،لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعـــرفهم ويزكيهم ويرشحهم! ولقد يقال بعد هذا:ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى.فإذا اســـتقر المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة ..يتحرك لتحرير «الإنسان».كل الإنسان ..في «الأرض» ..كـــل الأرض ..من العبودية لغير اللّه وليرفعه عن العبودية للطواغيت بلا حدود مـــن الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! وإذن فستظل الحركة – التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة – تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايـــات والمواهب ولا تقف أبدا ليركد هذا المجتمع ويأسن – إلا أن ينحـــرف عـــن الإســـلام –

وسيظل الحكم الفقهي – الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية – قائما وعاملا في محيطه الملائم ..ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه.

ثم يقال:ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة ..إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين – كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه،والالتزام في المجتمع المسلم – ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية ..

سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية.أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام – الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – له ..يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة.والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم،والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته – أو يكتبون – يدخلون في متاهة! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم،بتركيبه العضوي الحاضر!

وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر – بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية – فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام ..إن تركيبه العضوي مناقض تماما للتركيب العضوي للمجتمع المسلم.فالمجتمع المسلم – كما قلنا – يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع،ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام.مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة،والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف.أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد،قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام،ولا بالقيم الإيمانية ..

وهو – من ثم – يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعــيش فيــه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام! هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعــد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم – أول ما يحيرهم – طريقة اختيار أهل الحــل والعقد – أو أهل الشورى – من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية! كيف يمكن هــذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنــون كــذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحــل والعقد – متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها – فكيف يعودون هــم فيختــارون الإمام؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمــام؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهــم له،ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتبار ه؟ ...

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا في هذه المتاهة! أنا أعرف نقطة البــدء في هــذه المتاهة ..إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم وأن قواعــد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجــاهلي بتركيبــه العضوي الحاضر،وبقيمة وأخلاقه الحاضرة! هذه نقطة البدء في المتاهة ..ومتى بــدأ منــها الباحث فإنه يبدأ في فراغ،ويوغل في هذا الفراغ،حتى يبعد في التيه،وحتى يأخذه الــدوار! إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم،ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام ..لن تطبق لاســتحالة هــذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكــن أن تتحــرك في فراغ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ،ولم تتحرك في فراغ كذلك! إن المجتمــع الإســلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي ..ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت – في وجه الجاهلية – لإنشائه وتحددت أقــدارها وتميــزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة.

إنه مجتمع جديد ..ومجتمـــع وليـــد ..ومجتمـــع متحـــرك دائمـــا في طريقـــه لتحريـــر «الإنسان»،..كل الإنسان ..في «الأرض» ..كل الأرض ..من العبودية لغير اللّــــه،ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت ..أيا كانت هذه الطواغيت ..

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة،واختيار الإمام،واختيار أهل الشورى ...ومـــا إليهـــا ...قضايا كثيرة تثار،ويطرقها الباحثون في الإسلام ..في الفراغ ..في هذا المجتمع الجـــاهلي الذي نعيش فيه ..بتركيبه العضوي المختلف تماما عن التركيب العضوي للمجتمع المســـلم ..وبقيمة وموازينه واعتبار اته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمـــع المسلم وموازينه واعتبار اته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته ..أعمال البنوك وأساسها الربوي ..شركات التأمين وقاعدتها الربوية ..تحديد النسل وما أدري مـــاذا؟! إلى آخـــر هـــذه «المشكلات» التي يشغل «الباحثون» بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن اســـتفتاءات توجـــه إليهم ..

إنهم جميعا – مع الأسف – يبدأون من نقطة البدء في المتاهة! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر فتنتقل هذه المجتمعات إذن – متى طبقت عليها أحكـــام الإســـلام – إلى الإسلام!

وهي تصورات مضحكة لولا أنها محزنة! إن الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الـــذي أنشأ المجتمع المسلم.إنما المجتمع المسلم بحركته – في مواجهة الجاهلية ابتداء – ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانيا،هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمدا مـــن أصـــول الشريعة الكلية ..والعكس لا يمكن أن يكون أصلا! إن الفقـــه الإســـلامي لا ينشـــأ في فراغ،ولا يعيش في فراغ كذلك ..لا ينشأ في الأدمغـــة والأوراق إنمـــا ينشـــأ في واقـــع الحياة.وليست أية حياة.إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد ..ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق ..وعندئذ تختلف الأمور جدا ..

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص – بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة – إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل ...إلخ وقد لا يحتاج! ذلك أننا لا نملك سلفا أن نقدر أصل حاجته،ولا حجمها،ولا شكلها،حتى نشرّع لها سلفا! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها ..ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها.ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك! إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل،الذي يجب على دين اللّه أن يطابق نفسه عليه!

ولكن الأمر غير ذلك تماما ..إن دين اللّه هو الأصل الذي يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة ..ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد ..هو التحرك – في وجه الجاهلية – لتحقيق ألوهية اللّه في الأرض وربوبيته وحده للعباد،وتحرير الناس من العبودية للطاغوت،بتحكيم شريعة اللّه وحدها في حياتهم ..

وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء .فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد،ويصدق اللّه من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد،ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم اللّه بينه وبين قومه بالحق،وحتى يمكن اللّه له في الأرض،وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي،وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه،وتميزوا بقيمة ..وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها ..وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام وينشأ فقه إسلامي حي متحرك – لا في فراغ – ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات ..

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفق في مصارفها،ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة،ثم بين كل أفراد الأمة،وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر ..إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية

..من يدرينا أن مجتمعا كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلا؟! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات؟!

وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي،المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراته؟! وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلا؟ ..وهكذا ..

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلما ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها،بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي،واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه ..فما هذا الضنى في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب،شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته!

إن نقطة البدء في المتاهة – كما قلنا – هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها،وهي بهذا التركيب العضوي ذاته،وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها.

كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين اللّه أن يطابق نفسه عليه.وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها ..حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلا من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره! ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته،فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية،والمجتمعات الجاهلية،والحاجات الجاهلية.وأن يقولوا للناس – وللذين يستفتونهم بوجه خاص – تعالوا أنتم أولا إلى الإسلام،وأعلنوا خضوعكم سلفا لأحكامه ..أو بعبارة أخرى ..تعالوا أنتم أولا فادخلوا في دين اللّه،وأعلنوا عبوديتكم للّه وحده،واشهدوا أن لا إله إلا اللّه بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به.وهو إفراد اللّه بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية

في السماء وتقرير ربوبيته – أي حاكميته وسلطانه – وحده في حياة الناس بجملتها.وتنحية ربوبية العباد للعباد،بتنحية حاكمية العباد للعباد،وتشريع العباد للعباد.

وحين يستجيب الناس – أو الجماعة منهم – لهذا القول،فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود.وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو،لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة اللّه فعلا ..

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس،باستنبات البذور في الهواء،ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ،كما أنه لن تنبت البذور في الهواء! إن العمل في الحقل «الفكري» للفقه الإسلامي عمل مريح! لأنه لا خطر فيه! ولكنه ليس عملا للإسلام ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملا للإسلام في هذه الفترة فأحسب – واللّه أعلم – أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضا!

إن دين اللّه يأبي أن يكون مجرد مطية ذلول،ومجرد خادم مطيع،لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه،المتنكر له،الشارد عنه ..الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه ..

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ،ولا تعمل في فراغ ..وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان اللّه ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع ..ولن تنعكس الآية أبدا.

إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائما واحدة والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوما ما سهلا ولا يسيرا.ولن يبدأ أبدا من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ،لتكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي.ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على «الجاهز» والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام.وليس الذي ينقص هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية «الجاهزة»! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن

قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة ..إلى آخر ما يخادع به بعضهم،وينخدع به بعضهم الآخر! كلا! إن الذي يحول دون تحـــول هـــذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمية للّه فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض للّه وحده.

وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا.يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضـــرورة ..ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون اللّه – أي تدين لها وتخضع وتتبع – فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة.وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك ..فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام ..وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما في الأرض وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقـــدر مـــا تعتمد على ركائز من القوة المادية:

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية – إذن – بوسائل مكافئة.إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ثم يكـــون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية.ثم يحكم اللّه بين من يسلمون للّـــه وبين قومهم بالحق ..وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه،التي تنشأ نشأة طبيعية في هـــذا الوسط الواقعي الحي،وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليـــد،وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها،وهي أمور كلها في ضمير الغيب – كما أسلفنا – ولا يمكن التكهن بها سلفا،ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على ســـبيل الجـــد المناسب لطبيعة هذا الدين! إن هذا لا يعني – بحال – أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية.ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له،والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه – بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائما الآن فعلا.ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقـــا بقيـــام ذلك المجتمع ..ويبقى الالتزام بها قائما في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمـــع الجـــاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهـــذا

الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية ..

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير،كلما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية ..هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي،بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة اللّه في خلال القرنين الأخيرين وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام وإن بقيت المآذن والمساجد،والأدعية والشعائر تخدر مشاعر الباقين على الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين وتوهمهم أنه لا يزال بخير وهو يمحى من الوجود محوا!

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر،وقبل أن توجد المساجد ..وجد من يوم أن قيل للناس:اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره،فعبدوه.و لم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر،فالشعائر لم تكن بعد قد فرضت.إنما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده – من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزّلت شرائع! – وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة للّه وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه،إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة ..

وهذا هو الطريق وحده وليس هنالك طريق آخر ..

وليت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان،وببيان أحكام الإسلام! ولكن هذه إنما هي «الأمانيّ»!

فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت،إلى الإسلام وعبادة اللّه وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة ..والذي يبدؤه فرد،ثم تتبعه طليعة،ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم اللّه بينها وبين قومها بالحق ويمكّن لها في الأرض ..ثم ..يدخل الناس في دين اللّه أفواجا ..ودين اللّه هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس دينا غيره:«ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه» ..

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف - عليه السلام.

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية.كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادما في وضع جاهلي.

وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه.وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماما ..[١٥٦]



[١٥٦] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٤٠]

المفهوم الحقيقي للدين

لابد لنا أن نقف أمام التعبير القرآني الدقيق العميق:{كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } [يوسف:٧٦]..

إن هذا النص يحدد مدلول كلمة «الدين» – في هذا الموضع – تحديدا دقيقا ..إنه يعني:نظام الملك وشرعه ..فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته.إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه.وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم فطبقها يوسف عليهم عند ما وجد صواع الملك في رحل أخيه ..وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها «الدين» ..

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعا.سواء منهم من يدعون أنفسهم مسلمين وغيرهم من الجاهليين!

إنهم يقصرون مدلول «الدين» على الاعتقاد والشعائر ..ويعدون كل من يعتقد في وحدانية اللّه وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ويؤدي الشعائر المكتوبة ...داخلا في «دين اللّه» مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع وإقراره بالحاكمية لغير اللّه من الأرباب المتفرقة في الأرض ..بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول «دين الملك» بأنه نظام الملك وشريعته.وكذلك «دين اللّه» فهو نظامه وشريعته ..

إن مدلول «دين اللّه» قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر ..ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات اللّه وسلامه أجمعين.

لقد كان يعني دائما:الدينونة للّه وحده بالتزام ما شرعه،ورفض ما يشرعه غيره.وإفراده – سبحانه – بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته وحده للناس:أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره.وكان مفرق الطريق دائما بين من هم في دين «اللّه» ومن هم في «دين الملك» أن الأولين يدينون لنظام اللّه وشرعه وحده،وأن الآخرين

يدينون لنظام الملك وشرعه.أو يشركون فيدينون للّه في الاعتقاد والشعائر،ويدينون لغير اللّه في النظام والشرائع! وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة،ومن بديهيات العقيدة الإسلامية تماما.

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذرا في أنهم يجهلون مدلول كلمة «دين اللّه» وهم من ثم لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة اللّه وحدها بوصفها هي «الدين».وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين! وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين! إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها.فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها؟ وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها؟

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة،أو يخفف عنهم العذاب فيها ويلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمونهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفونها ..ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها للّه،والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل.وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام في الأرض! إن الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم ..إنه ليس دين اللّه قطعا.فدين اللّه هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة.فمن كان في نظام اللّه وشرعه فهو في «دين للّه».ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في «دين الملك».ولا جدال في هذا.

والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين.لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية.والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلا وواقعا أن يكون معتقدا به.إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة ..وهذه بديهية ..

وخير لنا من أن ندافع عن الناس – وهم في غير دين اللّه – ونتلمس لهم المعاذير،ونحاول أن نكون أرحم بهم من اللّه الذي يقرر مدلول دينه وحدوده! ..خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول «دين اللّه» ليدخلوا فيه ..أو يرفضوه ..

هذا خير لنا وللناس أيضا ..خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين،الذين ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة ..وخير للناس لأن مواجهتهم

بحقيقة ما هم عليه - وأنهم في دين الملك لا في دين اللّه - قد تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام،ومن دين الملك إلى دين اللّه! كذلك فعل الرسل - عليهم صلوات اللّه وسلامه - وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى اللّه في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان ..[157]

إن إخلاص الدين للّه،وتقرير عبودية البشر له،إن هي إلا فرع من إسلام الوجود كله،وعبودية الوجود كله لسلطانه .. وهذا هو الإيحاء الذي يستهدف المنهج القرآني تقريره وتعميقه في القلب البشري .. وأيما قلب أو عقل يتجه بوعي ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المستسرة،وظواهره الناطقة بتلك النواميس المستسرة ..

لا بد يستشعر تأثيرا لا يرد سلطانه ولا بد يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر المقدر صاحب الخلق والأمر .. وهذه هي الخطوة الأولى لدفع هذا القلب إلى الاستجابة لداعي اللّه والاستسلام لسلطانه الذي يستسلم له هذا الوجود كله ولا يتخطاه.ومن ثم يتخذ المنهج القرآني من هذا الوجود مجاله الأول لتجلية حقيقة الألوهية وتعبيد البشر لربهم وحده،وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية،وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق المطمئن الذي يستشعر أن كل ما حوله وكل من حوله من خلق اللّه،يتجاوب وإياه! إنه ليس البرهان العقلي وحده هو الذي يستهدفه المنهج القرآني باستعراض عبودية الوجود للّه،وتسخيره بأمره،واستسلام هذا الوجود في طواعية ويسر ودقة وعمق لأمره وحكمه .. إنما هو مذاق آخر — وراء البرهان العقلي ومع هذا البرهان العقلي - مذاق المشاركة مع الوجود والتجاوب. ومذاق الطمأنينة واليسر والانسياق مع موكب الإيمان الشامل.

إنه مذاق العبودية الراضية،التي لا يسوقها القسر،ولا يحركها القهر .. إنما تحركها - قبل الأمر والتكليف - عاطفة الود والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله .. فلا تفكر في التهرب من الأمر،ولا التفلت من القهر لأنها إنما تلبي حاجتها الفطرية في الاستسلام الجميل

---

[157] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٥٦]

المريح .. الاستسلام للّه الذي يرفع الجباه عن الدينونة لغيره أو العبودية لسواه. الاستسلام الرفيع الكريم لرب العالمين ..

هذا الاستسلام هو الذي يمثل معنى الإيمان،ويعطيه طعمه ومذاقه .. وهذه العبودية هي التي تحقق معنى الإسلام،وتعطيه حيويته وروحه .. وهي هي القاعدة التي لا بد أن تقام وتستقر،قبل التكليف والأمر وقبل الشعائر والشرائع .. ومن ثم هذه العناية الكبرى بإنشائها وتقريرها وتعميقها وتثبيتها في المنهج القرآني الحكيم..

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ،ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ،يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً،وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ. أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» ..

إن عقيدة التوحيد الإسلامية،لا تدع مجالا لأي تصور بشري عن ذات اللّه سبحانه ولا عن كيفيات أفعاله .. فاللّه سبحانه ليس كمثله شيء .. ومن ثم لا مجال للتصور البشري لينشئ صورة عن ذات اللّه. فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء. فإذا كان اللّه – سبحانه – ليس كمثله شيء،توقف التصور البشري إطلاقا عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى. ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعا لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعا. و لم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله .. وهذا هو مجاله ..

ومن ثم تصبح أسئلة كهذه: كيف خلق اللّه السماوات والأرض؟ كيف استوى على العرش؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه اللّه سبحانه؟! ... تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغوا يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي. أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداء! ولقد خاضت الطوائف – مع الأسف – في هذه المسائل خوضا شديدا في تاريخ الفكر الإسلامي،بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية! فأما الأيام الستة التي خلق اللّه فيها السماوات والأرض،فهي كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق اللّه جميعا:«ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ» .. وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن.

إنها قد تكون ست مراحل. وقد تكون ستة أطوار. وقد تكون ستة أيام من أيام اللّه الـــتي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشئ من قياس حركة الأجرام – إذ لم تكن قبل الخلـــق هـــذه الأجرام التي نقيس نحن بحركتها الزمان! ..

وقد تكون شيئا آخر .. فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. وكـــل حمل لهذا النص ومثله على «تخمينات» البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفـــرض والظـــن – باسم «العلم!» – هو محاولة تحكمية،منشؤها الهزيمة الروحية أمام «العلم» الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض!

ونخلص نحن من هذه المباحث التي لا تضيف شيئا إلى هدف النص ووجهته. لنرتـــاد مـــع النصوص الجميلة تلك الرحلة الموحية في أقطار الكون المنظور،وفي أسراره المكنونـــة:«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ،ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ،يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً،وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ. أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» ..

إن اللّه الذي خلق هذا الكون المشهود في ضخامته وفخامته. والذي استعلى علـــى هـــذا الكون يدبره بأمره ويصرفه بقدره. يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا .. في هـــذه الـــدورة الدائبة:دورة الليل يطلب النهار في هذا الفلك الدوار. والذي جعـــل الشـــمس والقمـــر والنجوم مسخرات بأمره .. إن اللّه الخالق المهيمن المصرف المدبر،هو «ربكـــم» .. هـــو الذي يستحق أن يكون ربا لكم. يـــربيكم بمنهجـــه،ويجمعكم بنظامه،ويشـــرع لكـــم بإذنه،ويقضي بينكم بحكمه .. إنه هو صاحب الخلق والأمر .. وكما أنه لا خالق معـــه. فكذلك لا آمر معه ..

هذه هي القضية التي يســـتهدفها هـــذا الاســـتعراض .. قضـــية الألوهيـــة والربوبيـــة والحاكمية،وإفراد اللّه سبحانه بها .. وهي قضية العبودية من البشر في شريعة حياتهم. فهذا هو الموضوع الذي يواجهه سياق السورة ممثلا في مسائل اللباس والطعام. كما كان سياق سورة الأنعام يواجهه كذلك في مسائل الأنعام والزروع والشعائر والنذور.

ولا ينسينا الهدف العظيم الذي يستهدفه السياق القرآني بهذا الاستعراض،أن نقف لحظات أمام روعة المشاهد وحيويتها وحركتها وإيحاءاتها العجيبة. فهي من هذه الوجهة كفء للهدف العظيم الذي تتوخاه ..

إن دورة التصور والشعور مع دورة الليل والنهار في هذا الفلك الدوار،والليل يطلب النهار حثيثا،ويريده مجتهدا! لهي دورة لا يملك الوجدان ألا يتابعها وألا يدور معها! وألا يرقب هذا السياق الجبار بين الليل والنهار،بقلب مرتعش ونفس لاهث! وكله حركة وتوفز،وكله تطلع وانتظار! إن جمال الحركة وحيويتها و«تشخيص» الليل والنهار في سمت الشخص الواعي ذي الإرادة والقصد ..

إن هذا كله مستوى من جمال التصوير والتعبير لا يرقى إليه فنّ بشري على الإطلاق! إن الألفة التي تقتل الكون ومشاهده في الحس وتطبع النظرة إليه بطابع البلادة والغفلة .. إن هذه الألفة لتتوارى،ليحل محلها وقع المشهد الجديد الرائع الذي يطالع الفطرة كأنما لأول وهلة! .. إن الليل والنهار في هذا التعبير ليسا مجرد ظاهرتين طبيعيتين مكرورتين. وإنما هما حيان ذوا حس وروح وقصد واتجاه. يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة وحركة الصراع والمنافسة والسباق التي تطبع الحياة! كذلك هذه الشمس والقمر والنجوم .. إنها كائنات حية ذات روح! إنها تتلقى أمر اللّه وتنفذه،وتخضع له وتسير وفقه. إنها مسخرة،تتلقى وتستجيب،وتمضي حيث أمرت كما يمضي الأحياء في طاعة اللّه! ومن هنا يهتز الضمير البشري وينساق للاستجابة،في موكب الأحياء المستجيبة. ومن هنا هذا السلطان للقرآن الذي ليس لكلام البشر .. إنه يخاطب فطرة الإنسان بهذا السلطان المستمد من قائله – سبحانه – الخبير بمداخل القلوب وأسرار الفطر ..[١٥٨]



[١٥٨] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٧٤٨]

في الجاهليات ينحسر مجال الألوهية كثيرا

إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين،فقد كانوا يعترفون بأن اللّـه – سبحانه – هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء ..ولكن هذا الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته.فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بألوهية اللّـه على هذا المستوي أن تكون الربوبية له وحده في حياتهم ..والربوبية تتمثل في الدينونة له وحده فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلا له ولا يحكمون في أمرهم كله غيره ..وهذا معنى قوله تعالى:«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» ..فالعبادة هي العبودية،وهي الدينونة،وهي الاتباع والطاعة،مع إفراد اللّه سبحانه بهذه الخصائص كلها،لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية.

وفي الجاهليات كلها ينحسر مجال الألوهية.ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية في ذاته هو الإيمان وأنه متى اعترف الناس بأن اللّه إلههم فقد بلغوا الغاية دون أن يرتبوا على الألوهية مقتضاها وهو الربوبية ..أي الدينونة للّه وحده ليكون هو ربهم الذي لا رب غيره،وحاكمهم الذي لا سلطان لأحد إلا بسلطانه ..

كذلك ينحسر معنى «العبادة» في الجاهلية،حتى يقتصر على مجرد تقديم الشعائر.ويحسب الناس أنهم متى قدموا الشعائر للّه وحده،فقد عبدوا اللّه وحده ..بينما كلمة العبادة ابتداء مشتقة من عبد.و«عبد» تفيد ابتداء «دان وخضع».وما الشعائر إلا مظهر واحد من مظاهر الدينونة والخضوع لا يستغرق كل حقيقة الدينونة ولا كل مظاهرها.

والجاهلية ليست فترة من الزمان،ولا مرحلة من المراحل.إنما هي انحسار معنى الألوهية على هذا النحو،ومعنى العبادة.هذا الانحسار الذي يؤدي بالناس إلى الشرك وهم يحسبون أنهم في دين اللّه! كما هو الحال اليوم في كل بلاد الأرض،بما فيها البلاد التي يتسمى أهلها بأسماء المسلمين،ويؤدون الشعائر للّه،بينما أربابهم غير اللّه،لأن ربهم هو الذي يحكمهم بسلطانه وشريعته،وهو الذي يدينون له ويخضعون لأمره ونهيه،ويتبعون ما يشرعه لهم،وبذلك يعبدونه، عَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ

ذَهَب. فَقَالَ « يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ ». أخرجه الترمذي.[١٥٩]

ولتوكيد معنى العبادة المقصود جاء في السورة ذاتها قوله تعالى:«قُلْ:أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا.قُلْ:آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟» ..

وما نحن فيه اليوم لا يفترق في شيء عما كان عليه أهل الجاهلية هؤلاء الذين يناديهم اللّه بقوله:«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ.أَفَلا تَذَكَّرُونَ!» ..اعبدوه ولا تشركوا به شيئا.فإن مرجعكم إليه،وحسابكم عنده،وهو يجزي المؤمنين والكافرين:«إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» ..

إليه وحده لا للشركاء والشفعاء.

وقد وعد فلا خلف ولا تخلف،فالبعث هو تتمة الخلق:«إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ،وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ» ..فالعدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة:«لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ ...».

والنعيم بلا منغصات وبدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة.إنها قمة الكمال البشري الذي يمكن أن تصل إليه البشرية.والبشرية لا تصل إلى شيء من هذا في هذه الأرض وفي هذه الحياة الدنيا المشوبة بالقلق والكدر،والتي لا تخلو فيها لذة من غصة،أو من عقابيل تعقبها - إلا لذائذ الروح الخالصة وهذه قلما تخلص لبشر - ولو لم يكن في هذه الحياة الدنيا إلا الشعور بنهاية نعيمها لكان هذا وحده ناقصا منها وحائلا دون كمالها.فالبشرية لا تصل في هذه الأرض إلى أعلى الدرجات المقدرة لها،وهي التخلص من النقص والضعف ومعقباتهما،والاستمتاع بلا كدر ولا خوف من الفوت ولا قلق من الانتهاء ..وهذا كله تبلغه في الجنة كما وصف القرآن نعيمها الكامل الشامل.فلا

[١٥٩] - سنن الترمذى- المكنز [١١ /٣٥٤](٣٣٧٨) صحيح لغيره

جرم يكون من غاية الخلق والإعادة إبلاغ المهتدين من البشرية،الذين اتبعوا سنة الحياة الصحيحة وناموس الحياة القويم،إلى أعلى مراتب البشرية.

فأما الذين كفروا فقد خالفوا عن الناموس،فلم يسيروا في طريق الكمال البشري،بل جانبوه.وهذا يقتضي – حسب السنة التي لا تتخلف – ألا يصلوا إلى مرتبة الكمال،لأنهم جانبوا قانون الكمال وأن يلقوا عاقبة انحرافهم كما يلقى المريض عاقبة انحرافه عن قوانين الصحة الجسدية.هذا يلقاه مرضا وضعفا،وأولئك يلقونه ترديا وانتكاسا،وغصصا بلا لذائذ – في مقابل اللذائذ بلا غصص[١٦٠].

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ»[١٦١] ..

وقال تعالى:{ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ } [هود:٦٨]

ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ ..الدعوة فيها هي الدعوة.وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته ..عبادة اللّه وحده بلا شريك،والدينونة للّه وحده بلا منازع ..ومرة أخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام،ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد – فثمود كعاد هم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح – ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية،حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد ..

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها،لا بالإيمان والتصديق،ولكن بالجحود وعقر الناقة! ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول اللّه – ﷺ- خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا.

فها هم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا.فما أغنت معهم شيئا!

إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق.إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول.ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول:!!!

ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة.قلوب الرسل الكرام.نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن الكريم:«قالَ:يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

---

[١٦٠] – هذه اللفتة في تفسير المنار للسيد رشيد رضا رحمه اللّه ..

[١٦١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٣٩١]

كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي،وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً،فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ» ..وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه:«إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ».

وما تتجلى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده.فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب[١٦٢]!

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالا وفي الحق عجيبة لا تكاد تتصورها! فصالح الذي كان مرجوا في قومه،لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه،يقف منه قومه موقف اليائس منه،المفجوع فيه! لماذا؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة للّه وحده.على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره! إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة،لا يقف عند حد في ضلاله وشروده.حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق! إن صالحا يناديهم:{ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)} [هود:٦١] ..

فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لا يملكون له ردا ..وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشئوا أنفسهم،ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء،ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض ..

وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن اللّه – سبحانه – هو الذي أنشأهم من الأرض،وهو الذي أقدرهم على عمارتها.ولكنهم ما كانوا يتبعون هذا الاعتراف بألوهية اللّه – سبحانه – وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض،بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة للّه وحده بلا شريك،واتباع أمره وحده بلا منازع ..وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله:«يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره» ..

---

[١٦٢] – يراجع فصل «حقيقة الألوهية» في كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني. «دار الشروق».

لقد كانت القضية هي ذاتها ..قضية الربوبية لا قضية الألوهية.قضية الدينونة والحاكمية قضية الاتباع والطاعة ..إنها القضية الدائمة التي تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية![163]

إن تفرد اللّه سبحانه بالخلق،يفرده سبحانه بالملك. والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق. فهو خالق خلقه ومالكهم،فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه. فكل ما يقتاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص للّه .. فإذا تقررت هذه الحقائق .. الخلق والملك والرزق ..

تقرر معها – ضرورة وحتما – أن تكون الربوبية له سبحانه. فتكون له وحده خصائص الربوبية – وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يخضع له ويطاع،والنظام الذي يتجمع عليه العباد [164]– وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها. ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام.

ولم يكن العرب – في جاهليتهم – ينكرون أن اللّه هو خالق هذا الكون،وخالق الناس،ورازقهم كذلك من ملكه،الذي ليس وراءه ملك تقتات منه العباد! .. وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق – على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق! – ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التي تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الإغريق .. لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة – مع اللّه – على سبيل الزلفى والقربى من اللّه! – وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس .. أي أنه لم يكن يواجه الإلحاد في وجود اللّه – سبحانه – كما يقول اليوم «ناس»! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير! والحق أن هؤلاء الذين يجادلون في وجود اللّه اليوم قلة. وسيظلون قلة. إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية. وهو تلقي الشرائع في شؤون الحياة من

---

[163] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٣٨]

[164] – يراجع كتاب:«المصطلحات الأربعة في القرآن» للأستاذ أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان:فصول:الألوهية والربوبية والعبادة.

غير اللّه .. وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية،وكل الجاهليات أيضا!

والقلة الشاذة التي تجادل في وجود اللّه اليوم لا تعتمد على «العلم» وإن كانت هذه دعواها. فالعلم البشري ذاته لا يملك أن يقرر هذا الإلحاد ولا يجد عليه دليلا لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون .. إنما هي لوثة سببها الأول الشرود من الكنيسة وإلهها الذي كانت تستذل به الرقاب من غير أصل من الدين .. ثم نقص في التكوين الفطري لهؤلاء المجادلين،ينشأ عنه تعطل في الوظائف الأساسية للكينونة البشرية .. كما يقع للأمساخ من المخلوقات [١٦٥] ..!

ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه – كحقيقة انبثاق الحياة أيضا – لم تكن تساق في القرآن لإثبات وجود اللّه – إذ كان الجدال في وجوده تعالى سخفا لا يستحق من جدية القرآن العناية به – إنما كانت تساق لرد الناس إلى الرشاد،كي ينفذوا في حياتهم ما تقتضيه تلك الحقيقة من ضرورة إفراد اللّه سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية في حياتهم كلها وعبادته وحده بلا شريك ..

مع هذا فإن حقيقة الخلق والتقدير فيه – كحقيقة انبثاق الحياة أيضا – تقذف في وجوه الذين يجادلون في اللّه – سبحانه – بالحجة الدامغة التي لا يملكون بإزائها إلا المراء. وإلا التبجح الذي يصل إلى حد الاستهتار في كثير من الأحيان! «جوليان هاكسلي» مؤلف كتاب:«الإنسان يقوم وحده» وكتاب «الإنسان في العالم الحديث» [١٦٦] من هؤلاء المتبجحين المستهترين وهو يقذف بالمقررات التي لا سند لها إلا هواه وهو يقول في كتاب «الإنسان في العالم الحديث» في فصل:«الدين كمسألة موضوعية» ذلك الكلام! «ولقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضا عديم الفائدة،وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا،حتى اختفى كحاكم مدبر للكون،وأصبح مجرد «أول سبب» أو أساسا عاما غامضا».

---

[١٦٥] – يراجع بتوسع فصل:«ألوهية وعبودية» في كتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني «دار الشروق».

[١٦٦] – عالم أحياء انجليزي معاصر من المشتغلين بالداروينية الحديثة.

و«ول ديورانت» مؤلف كتاب «مباهج الفلسفة» [١٦٧] يقول:إن الفلسفة تبحث عن اللّه،ولكنه ليس «إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة. بل إله الفلاسفة وهو قانون العالم وهيكله،وحياته ومشيئته» .. وهو كلام لا تستطيع إمساكه! ولكنه كلام يقال! ونحن لا نحاكم هؤلاء الخاطبين في الظلام إلى قرآننا،ولا نحاكمهم كذلك إلى عقولنا المنضبطة بهدى هذا القرآن. إنما نكلهم إلى أندادهم من «العلماء» وإلى العلم البشري الذي يواجه هذه القضية بشيء من الجد والتعقل ..

يقول جون كليفلاند كوتران:(من علماء الكيمياء والرياضة. دكتوراه من جامعة كورنيل. رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث). من مقال:«النتيجة الحتمية» من كتاب:«اللّه يتجلى في عصر العلم»:«فهل يتصور عاقل،أو يفكر،أو يعتقد،أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين،ثم فرضته على نفسها؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا. بل إن المادة عند ما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة،فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة. والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة التي وجدت قبلها.

«وتدلنا الكيميا على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة. وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية. ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية. إذ أن لها بداية.

وتدل الشواهد من الكيميا وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية،بل وجدت بصورة فجائية. وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقا. وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة،ليس لعنصر المصادفة بينها مكان[١٦٨].

«فإذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن أن يخلق نفسه،أو يحدد القوانين التي يخضع لها،فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي. وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق

---

[١٦٧] – متفلسف أمريكي معاصر.

[١٦٨] – سبق أن قررنا أن نتائج العلوم كلها ظنية.ونحن لا نتخذ من هذا القول حجة على صدق الإسلام إنما نحن نواجه به من يرتكنون للعلم ويحتجون به!

لا بد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة. إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي – كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجي – دون أن يكون هنالك إرادة. ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا .. وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب،بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيء،حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود،تتجلى آياته في كل مكان. وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود اللّه،خالق هذا الكون وموجهه – كما أشرنا إلى ذلك في بداية المقال.

«إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل،ما قاله من قبل،من أننا إذا فكرنا تفكيرا عميقا،فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان باللّه» ..

ويقول فرانك أللن عالم الطبيعة البيولوجية في مقال «نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد» من الكتاب نفسه:« كثيرا ما يقال:إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق. ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود،فكيف نفسر وجوده؟ .. هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال – وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده – وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم. وإما أن يكون أزليا ليس لنشأته بداية. وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس،فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام،ليس له ظل من الحقيقة. ولقد عاد إلى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيرا سير جيمس جيتز [١٦٩]،الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي،وأنه مجرد صورة في أذهاننا. وتبعا لهذا الرأي نستطيع أن نقول:إننا نعيش في عالم من الأوهام! فمثلا هذه القطارات التي نركبها

[١٦٩] – عالم طبيعي رياضي انجليزي معاصر،وهو مؤلف كتاب:«الكون الغامض» المترجم إلى اللغة العربية ..ورأيه هذا ليس هو أول من قال به.فقد سبق في فلسفة أفلاطون ثم استغرق حوالي ١٥٠ سنة من الجدل بين المدارس الفلسفية! وخاصة بين «المثالية» و«الوضعية» ..وما يزالون مختلفين!

ونلمسها ليست إلا خيالات وبها ركاب وهميون،وتعبر أنهارا لا وجود لها،وتسير فوق جسور غير مادية .. إلخ. وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال! «أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم،بما فيه من مادة وطاقة،قد نشأ هكذا وحده من العدم،فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة.

« والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية [١٧٠]،إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون – وذلك في عنصر واحد هو الأزلية – وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت،وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق،وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر. ولكن قوانين «الديناميكا الحرارية» تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا،وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض،هي الصفر المطلق ويومئذ تنعدم الطاقة،وتستحيل الحياة. ولا مناص من حدوث هذه الحالة [١٧١] من انعدام الطاقات عند ما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق،بمضي الوقت. أما الشمس المستعرة،والنجوم المتوهجة،والأرض الغنية بأنواع الحياة،فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة،فهو إذن حدث من الأحداث .. ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي،ليس له بداية،عليم محيط بكل شيء،قوي ليس لقدرته حدود،ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه».

اللّه – سبحانه – خالق كل شيء. لا إله إلا هو ..

هذه هي القاعدة التي يقيم عليها السياق القرآني هنا وجوب عبادة اللّه وحده. ووجوب ربوبيته وحده – بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة:«ذلِكُمُ اللَّهُ

---

[١٧٠] – وهو رأي الوضعيين والمذاهب المادية جملة من قديم.وكذلك الهندوكية والبوذية!

[١٧١] – هذه التوكيدات الحتمية لم يعد منطق العلم البشري ذاته يحتملها.وقوانين الديناميكا الحرارية ليست يقينا.إنما هي نظرية في تفسير الكون.وقد تدخل عليها تعديلات غدا.وقد يظهر بطلانها من أساسها.ونحن كما قلنا لا نتخذ من العلم برهانا على صحة الإسلام،ولا مصدقا لمقرراته.إنما نحن نواجه بهذه النتائج «العلمية» من يحسبون العلم إلها ..فهذا قول إلههم الذي يثقون به ثقة جوليان هاكسلي!

رَبُّكُمْ. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ:خالِقُ كُلِّ شَيء. فَاعْبُدُوهُ. وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» .. فهي القوامة لا على البشر وحدهم،ولكن على كل شيء كذلك. بما أنه هو خالق كل شيء ... وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة،التي لم يكن المشركون - في جاهليتهم - يجحدونها. ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها. وهو:الخضوع والطاعة لحاكمية اللّه وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك ..[١٧٢]



[١٧٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١٥٩٨]

قال تعالى:{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) } [يونس:٢١ - ٢٣]

عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر اللّه إلا في ساعة العسرة،ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة.فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان ..ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن،مجلوة دائما بجلاء الإيمان ..

«وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ،إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا» ..

كذلك صنع قوم فرعون مع موسى.فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه.

فإذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات اللّه وأولوها على غير وجهها،وقالوا:إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا ..وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك،فجاءت محمدا تناشده الرحم أن يدعو اللّه فدعاه فاستجاب له بالسقيا،ثم مكرت قريش بآية اللّه وظلت فيما هي فيه! وهي ظاهرة مطردة في الإنسان ما لم يعصمه الإيمان.

« قُلِ:اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً.إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ» ..فاللّه أقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون.ومكرهم مكشوف لديه ومعروف،والمكر المكشوف إبطاله مضمون:«إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ» ..فلا شيء منه يخفى،ولا شيء منه ينسى.أما من هم هؤلاء الرسل

وكيف يكتبون،فذلك غيب من الغيب الذي لا نعرف عنه شيئا إلا من مثل هذا النص،فعلينا أن ندركه دون ما تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح.

ثم ذلك المشهد الحي،الذي يعرض كأنه يقع،وتشهده العيون،وتتابعه المشاعر،وتخفق معه القلوب.

يبدأ بتقريرالقدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون:«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» ..

ذلك أن السورة كلها معرض لتقرير هذه القدرة التي تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك.

ثم ها نحن أولاء أمام المشهد القريب:«حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ» ..وها هي ذي الفلك تتحرك رخاء ..«وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» ..وهذه مشاعر أهل الفلك ندركها:«وَفَرِحُوا بِها» ..

وفي هذا الرخاء الآمن،وفي هذا السرور الشامل،تقع المفاجأة،فتأخذ الغارين الآمنين الفرحين:

«جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ».

يا للهول! «وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ» ..وتناوحت الفلك واضطربت بمن فيها،ولاطمها الموج وشالها وحطها،ودار بها كالريشة الضائعة في الخضم ..وهؤلاء أهلها في فزع يظنون أن لا مناص:

«وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» ..فلا مجال للنجاة ..

عندئذ فقط،وفي وسط هذا الهول المتلاطم،تتعرى فطرهم مما ألم بها من أوشاب،وتنفض قلوبهم ما ران عليها من تصورات،وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة للّه دون سواه:« دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ:لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ»! وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج،وتهدأ الأنفاس اللاهثة،وتسكن القلوب الطائرة،وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ،ويوقن الناس بالحياة،وأرجلهم مستقرة على اليابسة.فماذا؟

«فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ!» ..هكذا بغتة ومفاجأة! إنه مشـــهد كامل، لم تفتنا منه حركة ولا خالجة ..مشهد حادث.ولكنه مشهد نفس،ومشهد طبيعـــة ومشهد نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل.ومن ثم يجيء التعقيب تحـــذيرا للناس أجمعين:«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ» ..سواء كان بغيا علـــى الـــنفس خاصة،بإيرادها موارد التهلكة،والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية أو كـــان بغيـــا على الناس فالناس نفس واحدة.على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة.

والبغي لا يتمثل في أبشع ولا أشنع من البغي على ألوهية اللّه سبحانه،واغتصاب الربوبيـــة والقوامة والحاكمية ومزاولتها في عباده.

والناس حين يبغون هذا البغي يذوقون عاقبته في حياتهم الدنيا،قبل أن يـــذوقوا جـــزاءه في الدار الآخرة.

يذوقون هذه العاقبة فسادا في الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به،ولا تبقى إنســـانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضارّ به.

إن الناس إما أن يخلصوا دينونتهم للّه.وإما أن يتعبدهم الطغاة.والكفاح لتقرير ألوهية اللّـــه وحدها في الأرض،وربوبية اللّه وحدها في حياة البشر،هو كفـــاح للإنســـانية وللحريـــة وللكرامة وللفضيلة،ولكل معنى كريم يرتفـــع بـــه الإنســـان علـــى ذل القيـــد،ودنس المستنقع،وامتهان الكرامة،وفساد المجتمع،ودناءة الحياة!

«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ ..مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا» ..لا تزيدون عليـــه! «ثُـــمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ..فهو حساب الآخرة وجزاؤهـــا كذلك،بعـــد شقوة الدنيا وعذابها ابتداء.[١٧٣]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٧٣] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٠١]

إنَّ العقيدة الإسلامية.في التاريخ البشري كله،من لدن نوح – عليه السلام – إلى عهد محمد عليه الصلاة والسلام – قد قامت على حقائق أساسية واحدة:هي الدينونة للّه وحده بلا شريك،والعبودية له وحده بلا منازع والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل اللّه وحدهم على مدار التاريخ.مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار التي أعطاها اللّه للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» ..أما مضمون هذا الكتاب الأساسي فهو:«أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ،إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ.وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ،وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ.إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ...ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق ..

لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم:«وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ،إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ،إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» ..«وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ.يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي،أَفَلا تَعْقِلُونَ؟ وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ،يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً،وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ ..وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» ..«وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً،قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ،هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها،فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ،إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» «وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ،وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ،إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ.وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ،وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» ..

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة ..[١٧٤]

إنَّ ما جاء به النبي – ﷺ– وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من اللّه – سبحانه – وهي تقوم على الدينونة للّه وحده بلا شريك.والتلقي في هذه الدينونة عن رسل اللّه وحدهم كذلك.والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة:

ففي مقدمة السورة (سورة هود) تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول اللّه – ﷺ:

« الر.كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ،إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ» ..

«أم يقولون:افتراه؟ قل:فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين.فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه،وأن لا إله إلا هو،فهل أنتم مسلمون؟».

وفي قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة:«وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ،إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ،إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ».

«قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم،أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟» ..

«ونادى نوح ربه فقال:رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين.قال:يا نوح إنه ليس من أهلك،إنه عمل غير صالح،فلا تسألن ما ليس لك به علم،إني أعظك أن تكون من الجاهلين».

«وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» ..

«وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً،قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ،هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» ..

«قالَ:يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً،فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ» ..

---

[١٧٤] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٦٤]

«وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً،قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ...».
« قالَ:يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ...»[١٧٥].
..فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف إنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات وهي التي كانت تواجهها الرسالة الأخيرة.إنها قضية الدينونة للّه وحده بلا شريك والخضوع للّه وحده بلا منازع.ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره.كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعا.
وفي سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية في الضمائر،وتثبيتها في النفوس،وتعميقها في الكيان البشري،وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية،مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات ..في سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفي هذا المستوي يحتوي سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التي تلمس أوتار الكيان البشري كلها في عمق واستجاشة،وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها ..
يحتوي الكثير من الترغيب والترهيب ..الترغيب في خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعي الدينونة للّه وحده بلا شريك،وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء ..والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة وبالعذاب في الدنيا أو في الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعي،ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم في الآخرة إلى جهنم،التي يقودون لها أتباعهم في الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع في الدنيا ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة للّه تعالى.وهذه نماذج من الترهيب والترغيب :
«...أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ،إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ،وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ.وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ.إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ،وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..
«مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها،وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ.أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ،وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها،وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» ..

[١٧٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٦٨]

« أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَة منْ رَبِّه،وَيَتْلُوهُ شاهدٌ منْهُ،وَمنْ قَبْله كتابُ مُوسى إماماً وَرَحْمَةً؟ أُولئكَ يُؤْمنُونَ به،وَمَنْ يَكْفُرْ به منَ الْأَحْزاب فَالنَّارُ مَوْعدُهُ،فَلا تَكُ في مرْيَة منْهُ إنَّهُ الْحَقُّ منْ رَبِّكَ،وَلكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يُؤْمنُونَ.وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّن افْتَرى عَلَى اللَّه كَذباً؟ أُولئكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ،وَيَقُولُ الْأَشْهادُ:هؤُلاءِ الَّذينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ،أَلا لَعْنَةُ اللَّه عَلَى الظَّالمينَ.الَّذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّه وَيَبْغُونَها عوَجاً،وَهُمْ بالْآخرَة هُمْ كافرُونَ.أُولئكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجزينَ في الْأَرْض،وَما كانَ لَهُمْ منْ دُون اللَّه منْ أَوْلياءَ،يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ،ما كانُوا يَسْتَطيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصرُونَ.أُولئكَ الَّذينَ خَسرُوا أَنْفُسَهُمْ،وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ.لا جَرَمَ أَنَّهُمْ في الْآخرَة هُمُ الْأَخْسَرُونَ.إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات وَأَخْبَتُوا إلى رَبِّهِمْ أُولئكَ أَصْحابُ الْجَنَّة هُمْ فيها خالدُونَ.مَثَلُ الْفَريقَيْن كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصير وَالسَّميع،هَلْ يَسْتَويان مَثَلًا؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ؟».

« وَيا قَوْمِ اسْتَغْفرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه،يُرْسلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتكُمْ،وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرمينَ» ...«فَإنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسلْتُ به إلَيْكُمْ،وَيَسْتَخْلفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ،وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً،إنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفيظٌ» ..

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بآياتنا وَسُلْطان مُبين.إلى فرْعَوْنَ وَمَلَائه،فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فرْعَوْنَ،وَما أَمْرُ فرْعَوْنَ برَشيد.يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقيامَة،فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ،وَبئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ.وَأُتْبعُوا في هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقيامَة بئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ!» ......إلخ ...إلخ ..

ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين – على النحو الذي سبق في بعض المقتطفات – ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه في ثنايا هذا المشهد الكوني الفريد:« وَأُوحيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمنَ منْ قَوْمكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ،فَلا تَبْتَئسْ بما كانُوا يَفْعَلُونَ.وَاصْنَع الْفُلْكَ بأَعْيُننا وَوَحْينا،وَلا تُخاطبْني في الَّذينَ ظَلَمُوا إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْه مَلَأٌ منْ قَوْمه سَخرُوا منْهُ،قالَ:إنْ تَسْخَرُوا منَّا فَإنَّا نَسْخَرُ منْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ.فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتيه عَذابٌ يُخْزيه،وَيَحلُّ عَلَيْه عَذابٌ مُقيمٌ.حَتَّى إذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا:احْملْ فيها منْ كُلٍّ

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ – إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ – وَمَنْ آمَنَ،وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَليلٌ.وَقالَ:ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّه مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ،وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ – وَكانَ فِي مَعْزِلٍ – يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ.قالَ:سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ! قالَ:لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّه إِلَّا مَنْ رَحِمَ،وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ.وَقِيلَ:يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ،وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ،وَقِيلَ:بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»...إلخ

ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب،المتحدين للنذر في استهتار ..

يرفع لهم صور أنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم وفي الحسرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد:«وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ:ما يَحْبِسُهُ؟ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ.وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً،ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ،إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ.وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ:ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي،إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ.إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ،أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» ......

ويحتوي شيئا من مشاهد القيامة وصور المكذبين فيها ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله وما يجدونه يومئذ من خزي لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء:«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّه كَذِباً؟ أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ،وَيَقُولُ الْأَشْهادُ:هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ! أَلا لَعْنَةُ اللَّه عَلَى الظَّالِمِينَ! الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه وَيَبْغُونَها عِوَجاً،وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ.أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ،وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّه مِنْ أَوْلِياءَ،يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ،ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ،أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ،وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ.لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ».

« وإِنَّ فِي ذلكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ،ذلكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ،وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ.يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ،فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ.فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ.خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ – إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ...عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور اللّه سبحانه واطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور بينما هم غارّون لا يستشعرون حضوره سبحانه،ولا علمه المحيط ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعا،وهم – الذين يكذبون – في قبضته كسائر الخلائق من حيث لا يشعرون:«إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ،وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ! أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ،إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها،وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها،كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ» ..

«إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ،ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها،إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك،استعراض موكب الإيمان.بقيادة الرسل الكرام،على مدار الزمان.وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة،في صراحة وفي صرامة،وفي ثقة وطمأنينة ويقين ..وقد مر جانب من هذا الاستعراض في المقتطفات السابقة،والبقية ستأتي في موضعها في تفسير السورة.ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام،ووحدة الحقيقة التي يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ووحدة العبارات المحكية عنهم التي تتضمن هذه الحقيقة ..يحمل في طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء ..[١٧٦]

إن افتتاح سورة الرعد،وطبيعة الموضوعات التي تعالجها،وكثيرا من التوجيهات فيها ..كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية – وليست مدنية كما جاء في بعض الروايات والمصاحف – وأنها نزلت في فترة اشتد فيها الإعراض والتكذيب والتحدي من

---

[١٧٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٧٠]

المشركين كما كثر فيها طلب الخوارق من الرسول - ﷺ- واستعجال العذاب الذي ينذرهم به مما اقتضى حملة ضخمة تستهدف تثبيت الرسول - ﷺ- ومن معه على الحق الذي أنزل إليه من ربه،في وجه المعارضة والإعراض،والتكذيب والتحدي والاستعلاء بهذا الحق،والالتجاء إلى اللّه وحده وإعلان وحدانيته إلها وربا والثبات على هذه الحقيقة والاعتقاد بأنها هي وحدها الحق،مهما كذب بها المشركون.كما تستهدف مواجهة المشركين بدلائل هذا الحق في الكون كله،وفي أنفسهم،وفي التاريخ البشري وأحداثه كذلك مع حشد جميع هذه المؤثرات ومخاطبة الكينونة البشرية بها خطابا مؤثرا موحيا عميق الإيقاع قوي الدلالة.

وهذه نماذج من التوكيدات على أن هذا الكتاب هو وحده الحق وأن الإعراض عنه،والتكذيب به،والتحدي،وبطء الاستجابة،وو عورة الطريق ..كلها لا تغير شيئا من تلك الحقيقة الكبيرة:«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ،وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ».

«وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ،وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ،وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ.وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا:لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ،وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ».

«لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ،وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ، إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ،وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ».

«...كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ.فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً،وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ.كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ» ..

«أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى ؟ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ».

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا:لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ:إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ.الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ.أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» ..

«كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ.وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ.قُلْ:هُوَ رَبِّي،لا إِلهَ إِلَّا هُوَ،عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ،وَإِلَيْهِ مَتابِ» ..

«وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ،وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ.قُلْ:إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ،إِلَيْهِ أَدْعُوا،وَإِلَيْهِ مَآبِ.وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا.وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ» ..

«وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ،فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ» ..

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا :لَسْتَ مُرْسَلًا.قُلْ:كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» .

وهكذا نلمس في هذه الطائفة من الآيات التي أوردناها طبيعة المواجهة التي كان المشركون يتحدون بها رسول اللّه - ﷺ- ويتحدون بها هذا القرآن ثم دلالة هذا التحدي ودلالة التوجيه الرباني إزاءه على طبيعة الفترة التي نزلت فيها السورة من العهد المكي.

ومن اللمحات البارزة في التوجيه الرباني لرسول اللّه - ﷺ- أن يجهر - في مواجهة الإعراض والتكذيب والتحدي وبطء الاستجابة ووعورة الطريق - بالحق الذي معه كاملا وهو أنه لا إله إلا اللّه،ولا رب إلا اللّه،ولا معبود إلا اللّه،وأن اللّه هو الواحد القهار،وأن الناس مردودون إليه فإما إلى جنة وإما إلى نار ..وهي مجموعة الحقائق التي كان ينكرها المشركون ويتحدونه فيها ..وألا يتبع أهواءهم فيصانعها ويترضاها بكتمان شيء من هذا الحق أو تأجيل إعلانه! مع تهديده بما ينتظره من اللّه لو اتبع أهواءهم في شيء من هذا من بعد ما جاءه من العلم! ..

وهذه اللمحة البارزة تكشف لأصحاب الدعوة إلى اللّه عن طبيعة منهج هذه الدعوةالتي لا يجوز لهم الاجتهاد فيها! وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين،وألا يخفوا منها شيئا،وألا يؤجلوا منها شيئا ..وفي مقدمة هذه الحقائق:أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا للّه.ومن ثم فلا دينونة ولا طاعة ولا خضوع ولا اتباع إلا للّه ..فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تعلن أيا كانت المعارضة والتحدي وأيا كان الإعراض من المكذبين والتولي وأيا كان وعورة الطريق وأخطارها كذلك ..وليس من «الحمكة والموعظة الحسنة» إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجيله،لأن الطواغيت في الأرض يكرهونه أو يؤذون الذين يعلنونه! أو يعرضون بسببه عن هذا الدين،أو يكيدون له وللدعاة إليه! فهذا كله لا يجوز

أن يجعل الدعاة إلى هذا الدين يكتمون شيئا من حقائقه الأساسية أو يؤجلونه ولا أن يبدأوا مثلا من الشعائر والأخلاق والسلوك والتهذيب الروحي،متجنبين غضب طواغيت الأرض لو بدأوا من إعلان وحدانية الألوهية والربوبية،ومن ثم توحيد الدينونة والطاعة والخضوع والاتباع للّه وحده! إن هذا لهو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراده اللّه سبحانه ومنهج الدعوة إلى اللّه كما سار بها سيدنا محمد - ﷺ- بتوجيه من ربه ..فليس لداع إلى اللّه أن يتنكب هذا الطريق وليس له أن ينهج غير ذلك المنهج ..واللّه - بعد ذلك - متكفل بدينه،وهو حسب الدعاة إلى هذا الدين وكافيهم شر الطواغيت!

والمنهج القرآني في الدعوة يجمع بين الحديث عن كتاب اللّه المتلوّ - وهو هذا القرآن - وبين كتاب الكون المفتوح ويجعل الكون بجملته مصدر إيحاء للكينونة البشرية بما فيه من دلائل شاهدة بسلطان اللّه وتقديره وتدبيره.

كما يضم إلى هذين الكتابين سجل التاريخ البشري،وما يحفظه من دلائل ناطقة بالسلطان والتقدير والتدبير أيضا.ويواجه الكينونة البشرية بهذا كله ويأخذ عليها أقطارها جميعا وهو يخاطب حسها وقلبها وعقلها جميعا! وهذه السورة تحوي الكثير من النماذج الباهرة في عرض صفحات الكتاب الكوني - عقب الكتاب القرآني - في مواجهة الكينونة البشرية بجملتها ..وهذه بعض هذه النماذج :

«المر.تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ.وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ،وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ.»

«اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى،يُدَبِّرُ الْأَمْرَ،يُفَصِّلُ الْآياتِ،لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ،وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً،وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ،يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ،إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ،وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ،وَزَرْعٌ،وَنَخِيلٌ - صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ - يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ،وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ،إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ..

يحشد السياق هذه المشاهد الكونية،ليحيل الكون كله شاهدا ناطقا بسلطان اللّه - سبحانه - في الخلق والإنشاء،والتقدير والتدبير.ثم يعجّب من أمر قوم يرون هذه الشواهد

كلها،ثم يستكثرون قضية البعث والنشأة الأخرى،ويكذبون بالوحي من أجل أنه يقرر هذه الحقيقة القريبة ..القريبة في ظل تلك المشاهد العجيبة ..

« وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ:أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أُولئِكَ الَّـــذِينَ كَفَـــرُوا بِرَبِّهِمْ،وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ،وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» ..

«هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً،وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ.وَيُسَبِّحُ الرَّعْـــدُ بِحَمْـــدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ،وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ ...» ..

يعرض هذه الصفحة من الوجود الكوني ليعجّب من أمر قوم يجادلون في اللّه ويشـــركون به،وهم يشاهدون آثار ربوبيته وقدرته وسلطانه،ودينونة الكون له،وتصريفه وتدبيره لأمر العباد فيه وعجز كل من عداه – سبحانه – عن الخلق والتدبير والتقدير:«وَهُمْ يُجـــادِلُونَ فِي اللَّهِ،وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ.لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ،وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْـــتَجِيبُونَ لَهُـــمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ – وَما هُوَ بِبالِغِهِ – وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِـــي ضَلالٍ.وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً،وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصـــالِ ..قُلْ:مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ:اللَّهُ.قُلْ:أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيـــاءَ لا يَمْلِكُـــونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا؟ قُلْ:هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ؟ قُلِ:اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيء، وَهُـــوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ».

وهكذا يستحيل الكون معرضا باهرا لدلائل القدرة وموحيات الإيمان،يخاطـــب الفطـــرة بالمنطق الشامل العميق ويخاطب الكينونة البشرية جملة،بكل ما فيها مـــن قـــوى الإدراك الباطنة والظاهرة،في تناسق عجيب.ثم يضيف إلى صفحات الكتـــاب الكوني،صـــفحات التاريخ الإنساني ويعرض آثار القدرة والسلطان والهيمنة والقهر والتقدير والتدبير في حياة الإنسان:«وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ!».

«اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى،وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ،وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ.عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ.سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَـــنْ جَهَـــرَ بِـــهِ،وَمَنْ هُـــوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ – يَحْفَظُونَهُ – مِـــنْ

أَمْرِ اللَّه،إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ،وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ،وَما لَهُمْ مِنْ دُونِه مِنْ والٍ» ..

«اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ،وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ» .

«وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّه،إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ.وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ،فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا،ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ،فَكَيْفَ كانَ عِقابِ؟»،

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها؟ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه،وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ».

«وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ،فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً،يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ،وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ!».

وهكذا يحشد المنهج القرآني هذه الشواهد والدلائل في التاريخ البشري ويحيلها إلى مؤثرات وموحيات،تخاطب الكينونة البشرية بجملتها في تناسق واتساق.

ونقف من هذا الحشد على معلم من معالم هذا المنهج في الدعوة إلى اللّه – على بصيرة – دعوة تخاطب الكينونة البشرية بجملتها،ولا تخاطب فيها جانبا واحدا من قواها المدركة ..جانب الفكر والذهن،أو جانب الإلهام والبصيرة،أو جانب الحس والشعور ..

وهذا القرآن ينبغي أن يكون هو كتاب هذه الدعوة،الذي يعتمد عليه الدعاة إلى اللّه،قبل الاتجاه إلى أي مصدر سواه.والذي ينبغي لهم بعد ذلك أن يتعلموا منه كيف يدعون الناس،وكيف يوقظون القلوب الغافية،وكيف يحيون الأرواح الخامدة.

إن الذي أوحى بهذا القرآن هو اللّه،خالق هذا الإنسان،العليم بطبيعة تكوينه،الخبير بدروب نفسه ومنحنياتها ..وكما أن الدعاة إلى اللّه يجب أن يتبعوا منهج اللّه في البدء بتقرير ألوهية اللّه – سبحانه – وربوبيته وحاكميته وسلطانه فإنهم كذلك يجب أن يسلكوا إلى القلوب طريق هذا القرآن في تعريف الناس بربهم الحق – على ذلك النحو – كيما تنتهي هذه القلوب إلى الدينونة للّه وحده،والاعتراف بربوبيته المتفردة وسلطانه ..

ولتعريف الناس بربهم الحق،ونفي كل شبهة شرك،يعني المنهج القرآني ببيان طبيعة الرسالة،وطبيعة الرسول ..ذلك أن انحرافات كثيرة في التصور الاعتقادي جاءت لأهل الكتاب من قبل،من جراء الخلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة – وبخاصة في العقائد النصرانية – حيث خلعت على عيسى – عليه السلام – خصائص الألوهية وخصائص الربوبية ودخل أتباع شتى الكنائس في متاهة من الخلافات العقدية المذهبية بسبب ذلك الخلط المنافي للحقيقة.

و لم تكن عقائد النصارى وحدهم هي التي دخلت في تلك المتاهة فقد خبطت شتى الوثنيات في ذلك التيه وتصورت للنبوة صفات غامضة بعضها يصل بين النبوة والسحر! وبعضها يصل بين النبوة والتنبؤات الكشفية! وبعضها يصل بين النبوة والجن والأرواح الخفية!

وكثير من هذه التصورات كان يخالج الوثنية العربية ..من أجل هذا كان بعضهم يطلب من الرسول – ﷺ– أن ينبئهم بالغيب! وبعضهم كان يقترح أن يصنع لهم خوارق مادية معينة! كما أنهم كانوا يرمونه – ﷺ– بأنه ساحر،وبأنه «مجنون» – أي على صلة بالجن! – وبعضهم كان يطلب أن يكون معه ملك ...إلى آخر هذه المقترحات والتحديات والاتهامات التي كانت متلبسة بالتصورات الوثنية عن طبيعة النبي وطبيعة النبوة! ولقد جاء هذا القرآن ليجلي الحقيقة كاملة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي وعن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول وعن حقيقة الألوهية المتمثلة في اللّه وحده – سبحانه – وحقيقة العبودية التي تشمل كل ما خلق اللّه وكل من خلق ومنهم أنبياء اللّه ورسله فهم عباد صالحون وليسوا خلقا آخر غير البشر وليس لهم من خصائص الألوهية شيء وليسوا على اتصال بعوالم الجن والخفاء المسحور إنما هو الوحي من اللّه – سبحانه – وليس لهم وراءه شيء من القدرة على الخوارق – إلا بإذن اللّه حين يشاء – فهم بشر من البشر،وقع عليهم الاختيار،وبقيت لهم بشريتهم وعبوديتهم للّه – سبحانه – كبقية خلق اللّه.

وفي هذه السورة نماذج من تجلية طبيعة النبوة والرسالة وحدود النبي والرسول وتخليص العقول والأفكار من رواسب الوثنيات كلها وتحريرها من تلك الأساطير التي أفسدت

عقائد أهل الكتاب من قبل وردها إلى الوثنية بأوهامها وأساطيرها! وقد كانت تلك التجلية تواجه تحديات المشركين الواقعية و لم تكن جدلا ذهنيا،ولا بحثا فلسفيا «ميتافيزيقيا» ...كانت «حركة» تواجه «الواقع» وتجاهده مجاهدة واقعية:«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا:لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ،وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ» ..

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا:لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ:إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ» ..

«كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ،وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ،قُلْ:هُوَ رَبِّي،لا إِلهَ إِلَّا هُوَ،عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ،وَإِلَيْهِ مَتابِ» ..

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ،وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً،وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ،لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ» ..

«وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ،فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ» ..

وهكذا تتجلى طبيعة الرسالة وحدود الرسول ..إنما هو منذر،ليس عليه إلا البلاغ وليس له إلا أن يتلو ما أوحي إليه،وما كان له أن يأتي بخارقة إلا بإذن للّه.ثم هو عبد للّه،اللّه ربه،وإليه متابه ومآبه وهو بشر من البشر يتزوج وينسل ويزاول بشريته كاملة بكل مقتضيات البشرية كما يزاول عبوديته للّه كاملة بكل مقتضيات العبودية ..

وبهذه النصاعة الكاملة في العقيدة الإسلامية تنتهي تلك الأوهام والأساطير المهوّمة في الفضاء والظلام،حول طبيعة النبوة وطبيعة النبي،وتخلص العقيدة من تلك التصورات المحيرة التي حفلت بها العقائد الكنسية كما حفلت بها شتى العقائد الوثنية والتي قضت على «المسيحية» منذ القرن الأول لها أن تكون إحدى العقائد الوثنية في طبيعتها وحقيقتها،بعد ما كانت عقيدة سماوية على يد المسيح عليه السلام تجعل المسيح عبد اللّه لا يأتي بآية إلا بإذن اللّه.

ولا ننتهي من هذه الوقفة قبل أن نلم بتلك اللفتة البارزة في قوله تعالى:« وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ» ..

إن هذا القول إنما يقال للنبي - ﷺ- الرسول الذي أوحي إليه من ربه.وكلف مخاطبة الناس بهذه العقيدة ..وخلاصة هذا القول:إن أمر هذا الدين ليس إليه هو،ومآل هذه الدعوة ليس من اختصاصه! إنما عليه البلاغ وليس عليه هداية الناس.فاللّه وحده هو الذي يملك الهداية.وسواء حقق اللّه بعض وعده له من مصير القوم أو أدركه الأجل قبل تحقيق وعد اللّه،فهذا أو ذاك لا يغير من طبيعة مهمته ..البلاغ ..وحسابهم بعد ذلك على اللّه ..وليس بعد هذا تجريد لطبيعة الداعية وتحديد لمهمته.فواجبه محدد،والأمر كله في هذه الدعوة وفي كل شيء آخر للّه.

بذلك يتعلم الدعاة إلى اللّه أن يتأدبوا في حق اللّه! إنه ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر ..ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس،ولا أن يستعجلوا وعد اللّه ووعيده للمهتدين وللمكذبين ..ليس لهم أن يقولوا:لقد دعونا كثيرا فلم يستجب لنا إلا القليل أو لقد صبرنا طويلا فلم يأخذ اللّه الظالمين بظلمهم ونحن أحياء! ..

إن عليهم إلا البلاغ ..أما حساب الناس في الدنيا أو في الآخرة فهذا ليس من شأن العبيد.إنما هو من شأن اللّه! فينبغي - تأدبا في حق اللّه واعترافا بالعبودية له - أن يترك له سبحانه،يفعل فيه ما يشاء ويختار ..

والسورة مكية ..من أجل ذلك تحدد فيها وظيفة الرسول - ﷺ- «بالبلاغ» ..ذلك أن «الجهاد» لم يكن بعد قد كتب.فأما بعد ذلك فقد أمر بالجهاد - بعد البلاغ - وهذا ما تنبغي ملاحظته في الطبيعة الحركية لهذا الدين.فالنصوص فيه نصوص حركية مواكبة لحركة الدعوة وواقعها وموجهة كذلك لحركة الدعوة وواقعها ..وهذا ما تغفل عنه كثرة «الباحثين» في هذا الدين في هذا الزمان.وهم يزاولون «البحث» ولا يزاولون «الحركة» فلا يدركون - من ثم - مواقع النصوص القرآنية،وارتباطها بالواقع الحركي لهذا الدين! وكثيرون يقرأون مثل هذا النص:«فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ» ثم يأخذون منه أن مهمة الدعاة إلى اللّه تنتهي عند البلاغ.فإذا قاموا «بالتبليغ» فقد أدوا ما عليهم! ..أما «الجهاد»! فلا أدري - واللّه - أين مكانه في تصور هؤلاء! كما أن كثيرين يقرأون مثل هذا النص،فلا يلغون به الجهاد،ولكن يقيدونه! ..دون أن يفطنوا إلى أن هذا نص مكي

نزل قبل فرض الجهاد.ودون أن يدركوا طبيعة ارتباط النصوص القرآنية بحركة الدعوة الإسلامية.ذلك أنهم هم لا يزاولون الحركة بهذا الدين إنما هم يقرأونه في الأوراق وهم قاعدون! وهذا الدين لا يفقهه القاعدون.فما هو بدين القاعدين! على أن «البلاغ» يظل هو قاعدة عمل الرسول،وقاعدة عمل الدعاة بعده إلى هذا الدين.وهذا البلاغ هو أول مراتب الجهاد.فإنه متى صح،واتجه إلى تبليغ الحقائق الأساسية في هذا الدين قبل الحقائق الفرعية ..

أي متى اتجه إلى تقرير الألوهية والربوبية والحاكمية للّه وحده منذ الخطوة الأولى واتجه إلى تعبيد الناس للّه وحده،وقصر دينونتهم عليه وخلع الدينونة لغيره ..فإن الجاهلية لا بد أن تواجه الدعاة إلى اللّه،المبلغين التبليغ الصحيح،بالإعراض والتحدي،ثم بالإيذاء والمكافحة ...ومن ثم تجيء مرحلة الجهاد في حينها،نتاجا طبيعيا للتبليغ الصحيح لا محالة:«وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ،وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً» ..

هذا هو الطريق ...وليس هنالك غيره من طريق![١٧٧]



[١٧٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٠٤]

العقيدة هي أساس التجمع بين الناس

إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين،وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن،وليست وشيجة القوم والعشيرة،وليست وشيجة اللون واللغة،وليست وشيجة الجنس والعنصر،وليست وشيجة الحرفة والطبقة ..

إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما قال اللّه سبحانه وتعالى لعبده نوح – عليه السلام – وهو يقول:«رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» ..«يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ثم بين له لماذا يكون ابنه ..ليس من أهله ..«إنه عمل غير صالح» ..إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح:« فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » فأنت تحسب أنه من أهلك،ولكن هذا الحسبان خاطئ.أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك،ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط،وبين نظرات الجاهلية المتفرقة ..إن الجاهليات تجعل الرابطة آنا هي الدم والنسب وآنا هي الأرض والوطن،وآنا هي القوم والعشيرة،وآنا هي اللون واللغة،وآنا هي الجنس والعنصر،وآنا هي الحرفة والطبقة! تجعلها آنا هي المصالح المشتركة،أو التاريخ المشترك.أو المصير المشترك ..وكلها تصورات جاهلية – على تفرقها أو تجمعها – تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي! والمنهج الرباني القويم – ممثلا في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول – ﷺ– وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه – قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير ..والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق ..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد،ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى،ليقرر من وراء هـذه الأمثـال حقيقـة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ..

ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم – عليه السلام – وأبيه وقومه كذلك:«وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ،إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.إِذْ قالَ لِأَبِيهِ:يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً؟ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ،فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا.يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ،إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا.يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ..قالَ:أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ! وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا.قالَ:سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي،إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا،وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي،عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا.فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا،وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» ...(مريم:٤١ – ٥٠).

وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه اللّه سبحانه ولقنه،وهو يعطيه عهده وميثاقه.

ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه:«وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ،فَأَتَمَّهُنَّ،قالَ:إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً،قالَ:وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قالَ:لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ..»

« وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ:رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ – مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.قالَ:وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ..(البقرة:١٢٤ – ١٢٦) وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه،وذلك فيما كان بين نوح وامرأته،ولوط وامرأته.

وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون:«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ،كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ،فَخانَتاهُما،فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً،وَقِيلَ:ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ» ...

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ،إِذْ قالَتْ:رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ،وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ،وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ...(التحريم:١٠ - ١١) وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم،ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم.وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم.وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم ...

«قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ،إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ:إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ،كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...» ..(الممتحنة:٤).

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً؟ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا:رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً،فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً.ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً.نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ،إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً،وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا:رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً.هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً.لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً؟ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ - إِلَّا اللَّهَ - فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ،وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً» ...(الكهف:٩ - ١٦).

وبهذه الأمثلة التي ضربها اللّه للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين.الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان،وضحت معالم الطريق لهذه الأمة وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم،ولا يقوم على سواها.وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة،وفي توجيهات من القرآن كثيرة ..

هذه نماذج منها ..

« لا تَجدُ قَوْماً يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الْآخرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ – وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إخْوانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ – أُولئكَ كَتَبَ في قُلُوبهمُ الْإيمانَ وَأَيَّدَهُمْ برُوحٍ منْهُ،وَيُدْخلُهُمْ جَنَّات تَجْري منْ تَحْتهَا الْأَنْهارُ خالدينَ فيها،رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ،أُولئكَ حزْبُ اللَّه،أَلا إنَّ حزْبَ اللَّه هُمُ الْمُفْلحُونَ» ...(المجادلة:٢٢) «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلياءَ تُلْقُونَ إلَيْهمْ بالْمَوَدَّة،وَقَدْ كَفَرُوا بما جاءَكُمْ منَ الْحَقِّ،يُخْرجُونَ الرَّسُولَ وَإيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمنُوا باللَّه رَبِّكُمْ،إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جهاداً في سَبيلي وَابْتغاءَ مَرْضاتي،تُسرُّونَ إلَيْهمْ بالْمَوَدَّة وَأَنَا أَعْلَمُ بما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ،وَمَنْ يَفْعَلْهُ منْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيلِ» ...(الممتحنة:١) «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ،يَوْمَ الْقيامَة يَفْصلُ بَيْنَكُمْ،وَاللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ.قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْراهيمَ وَالَّذينَ مَعَهُ ...إلخ» ..(الممتحنة:٣ – ٤) «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا آباءَكُمْ وَإخْوانَكُمْ أَوْلياءَ إن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإيمان،وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَأُولئكَ هُمُ الظَّالمُونَ» ...(التوبة:٢٣).« يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلياءَ،بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ،وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإنَّهُ منْهُمْ،إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ» ...(المائدة:٥١).

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان.ولم يعد هناك مجال للجمع بين «الإسلام» وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها اللّه للأمة المختارة.والذين يدعون صفة الإسلام،ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة،إما أنهم لا يعرفون الإسلام وإما أنهم يرفضونه.والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها،بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا! وندع هذه القاعدة – وقد صارت واضحة تماما – لننظر في جوانب من حكمة اللّه في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص «الإنسان» التي تفرقه من عالم البهيمة لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها – وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنسانا في هذه الصورة – وحتى أشد الملحدين إلحادا وأكثر الماديين مادية،قد انتبهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان[١٧٨].

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة – في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية – هي آصرة التجمع.لأنها العنصر الذي يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم.ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة،وسياج الحظيرة! ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة ..فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة.وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة!

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم ..هو عنصر الاختيار والإرادة،فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد وبذلك يقرر نوع المجتمع الذي يريد أن يعيش فيه مختارا ونوع المنهج الاعتقادي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والخلقي الذي يريد – بكامل حريته – أن يتمذهب به ويعيش ..

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه.كما لا يملك أن يقرر الأرض التي يحب أن يولد فيها،ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها ..إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية! ..إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض،ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأي إنما هي تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره! فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معا – أو حتى في الدنيا وحدها – بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضا لم يكن مختارا ولا مريدا وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص مقوماتها وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان بل من قواعد تركيبه وتكوينه

---

[١٧٨] – من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة!

الإنساني المميز له من سائر الخلائق! ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية،والمحافظة على الكرامة التي وهبها اللّه له متمشية مع تلك الخصائص يجعل الإسلام العقيدة – التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد – هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية.وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية،التي لا يدله فيها،ولا يملك كذلك تغييرها باختياره،هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته.

ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة – وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى – أن ينشىء مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي لا يصدهم عنه صاد،ولا يقوم في وجوههم حاجز،ولا تقف دونه حدود مصطنعة،خارجة عن خصائص الإنسان العليا.وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية،وتجتمع في صعيد واحد،لتنشئ «حضارة إنسانية» تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ولا تغلق دون كفاية واحدة،بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض ..

«ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها،دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة،والحدود الإقليمية السخيفة!

ولإبراز «خصائص الإنسان» في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها،دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان ..كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات،بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها،وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت،وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة.وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة،تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة،على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان.«لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق:العربي والفارسي والشامي والمصري

والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي ...إلى آخر الأقوام والأجناس ..وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية.و لم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائما «إسلامية» و لم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائما «عقدية».»

«ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة،وبآصرة الحب.وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة.فبذلوا جميعا أقصى كفاياهم،وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم،وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة،وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد،وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق.وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ! «لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا.فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة،ولغات متعددة،وألوانا متعددة،وأمزجة متعددة.ولكن هذا كله لم يقم على «آصرة إنسانية» و لم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة ..لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني – بصفة عامة – وعبودية سائر الأجناس الأخرى.ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي و لم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي.

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ..تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا ..ولكنه كان كالتجمع الروماني،الذي هو وريثه! تجمعا قوميا استغلاليا،يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية،واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية ..ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها ..الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما،والإمبراطورية الفرنسية ..كلها في ذلك المستوي الهابط البشع المقيت! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر،يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون.ولكنها لم تقمه على قاعدة «إنسانية» عامة،إنما أقامته على القاعدة «الطبقية».فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم ..هذا تجمع على

قاعدة طبقة «الأشراف» وذلك تجمع على قاعدة طبقة «الصعاليك» (البروليتريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى! وما كان لمثـــل هـــذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني ..فهو ابتداء قـــائم علـــى أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها.باعتبار أن «المطالب الأساسية» للإنسان هي «الطعام والمسكن والجنس» – وهي مطالب الحيوان الأولية – وباعتبـــار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!!

«لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني ..وما يزال متفردا ..والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر،يقوم على أية قاعدة أخرى،من القوم أو الجـــنس أو الأرض أو الطبقـــة ..إلى آخـــر هـــذا الـــنتن السخيف،هم أعداء «الإنسان» حقا! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هـــذا الكون بخصائصه العليا كما فطره اللّه ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق »[١٧٩] ..

ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين،الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته وهم الذين يقول اللّه تعالى فيهم:«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْنـــاءَهُمْ» ..لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قـــوة هـــذا الـــدين،وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس ..

ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليـــه وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ولاستغلالهم كذلك واســـتغلال مقـــدراقم وديارهم وأموالهم ..لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا مـــن القاعدة التي يقوم عليها وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد،أصناما تعبد مـــن دون اللّه،اسمها تارة «الوطن» واسمها تارة «القوم» واسمها تارة «الجنس».وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم «الشعوبية» وتارة باسم «الجنسية الطورانية» وتارة باســـم «القومية العربية» وتارة بأسماء شتى،تحملها جبهات شتى،تتصارع فيما بينـــها في داخـــل

---

[١٧٩] – مقتطفات من فصل:«نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» من كتاب:«معالم في الطريق». «دار الشروق».

المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة،المنظم بأحكـــام الشـــريعة ...إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية،وتحت الإيحاءات الخبيثة المســـمومة وإلى أن أصبحت تلك «الأصنام» مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على ديـــن قومـــه! أو خائنـــا لمصالح بلده!!! وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ ..كان هو المعســـكر اليهـــودي الخبيث،الذي جرب سلاح «القومية» في تحطيم التجمع المســـيحي،وتحويله إلى قوميـــات سياسية ذات كنائس قومية ..وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهـــودي ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود! وكذلك فعل الصـــليبيون مـــع المجتمع الإسلامي – بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي ..ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصـــليبية القديمة على هذا الدين وأهله.كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم علـــى الاســـتعمار الأوربي الصليبي.وما يزالون.حتى يأذن اللّه بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونـــة ليقـــوم التجمع الإسلامي من جديد،على أساسه المتين الفريد ..

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حـــتى تكـــون العقيـــدة وحدها هي قاعدة تجمعهم.ذلك أن الدينونة للّه وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم.يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحـــد،وألا تتعـــدد «المقدسات»! ويجب أن يكون هناك شعار واحد،وألا تتعدد «الشـــعارات» ويجـــب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات ..

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية! إن الوثنيـــة يمكن أن تتمثل في صور شتى كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صورا متعددة وآلهة الأساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون اللّه أيا كانت أسماؤها.وأيـــا كانت مراسمها.

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية،ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان ..وما إليها ..يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها.وهو يدعوهم إلى اللّه وحده،وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه!

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري ..أمة المسلمين من أتباع الرسل - كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون ..

وعند ما أراد اللّه أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون،عرفها لهم في صورة أتباع الرسل - كل في زمانه - وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة:«إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» ..ولم يقل للعرب:إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء! ولا قال لليهود:إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء! ولا قال لسلمان الفارسي:إن أمتك هي فارس! ولا لصهيب الرومي:إن أمتك هي الرومان! ولا لبلال الحبشي:إن أمتك هي الحبشة! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش:إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون،وإبراهيم،ولوط،ونوح،وداود وسليمان،وأيوب،وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون،وزكريا ويحيى،ومريم ..كما جاء في سورة الأنبياء:(آيات:٤٨ - ٩١).

هذه هي أمة «المسلمين» في تعريف اللّه سبحانه ..فمن شاء له طريقا غير طريق اللّه فليسلكه.ولكن ليقل:إنه ليس من المسلمين!

أما نحن الذين أسلمنا للّه،فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا اللّه.واللّه يقص الحق وهو خير الفاصلين ..وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح في هذه القضية الأساسية في هذا الدين.[١٨٠]



[١٨٠] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥١٢]

قال تعالى:{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) } [هود:٥٠ - ٦٠]

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي.وإلا التوجه إلى اللّه وحده والاعتماد عليه.وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين.وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب:«قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ،وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ،فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ.إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ،ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها،إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ،وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ،وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً،إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» ..

إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق اللّه طريقا.وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد أنبتت بينهما وشيجة العقيدة.

وهو يشهد اللّه ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم.ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفـــوره وخوفه أن يكون منهم! وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه.ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا حمقى.يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلا فيهذي ويروا في الدعوة إلى اللّه الواحد هذيانا من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة،فيسفه عقيـــدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي.لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم،ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد.ولكن الدهشـــة تزول عند ما يتدبر العوامل والأسباب ..

إنه الإيمان.والثقة.والاطمئنان ..الإيمان باللّه،والثقة بوعده،والاطمئنان إلى نصره ..الإيمـــان الذي يخالط القلب فإذا وعد اللّه بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشـــك فيهـــا لحظة.لأنها ملء يديه،وملء قلبه الذي بين جنبيه،وليست وعـــدا للمســـتقبل في ضـــمير الغيب،إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب.

«قال:إني أشهد اللّه واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه».اني أشهد اللّه على براءتي مما تشركون من دونه.واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم:أنـــني عـــالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون اللّه.ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسني بسوء.

تجمعوا أنتم وهي – جميعا – ثم كيدوني بلا ريـــث ولا تمهل،فمـــا أبـــاليكم جميعـــا،ولا أخشاكم شيئا:«إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ» ..ومهما أنكـــرتم وكـــذبتم.فهـــذه الحقيقة قائمة.حقيقة ربوبية اللّه لي ولكم.فاللّه الواحد هو ربي وربكم،لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة ..

«ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» ..وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القـــدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض،بما فيها الدواب من النـــاس.والناصـــية أعلـــى

الجبهة.فهو القهر والغلبة والهيمنة،في صورة حسية تناسب الموقف،وتناسب غلظة القـــوم وشدهم،وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم،وتناسب غلظ حســـهم ومشـــاعرهم ..وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد:«إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..فهي القوة والاستقامة والتصميم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحـــدي ..إنهـــا ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي اللّه هود – عليه السلام – في نفسه من ربه ..إنه يجد هذه الحقيقة واضحة ..إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر:«ما مِنْ دَابَّـــةٍ إِلَّـــا هُـــوَ آخِـــذٌ بِناصِيَتِها» ..وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الـــدواب الـــتي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرا.فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها وهي لا تسلط عليه – إن سلطت – إلا بإذن ربه؟ وما بقاء فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه،لا تدع في قلبه مجالا للشك في عاقبـــة أمره ولا مجالا للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدا.

وعند هذا الحد من التحدي بقوة اللّه،وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة،يأخـــذ هود في الإنذار والوعيد:«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» ..

فأديت واجبي للّه،ونفضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة اللّه سبحانه:«وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّـــي قَوْماً غَيْرَكُمْ» ..يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعـــد إهلاككـــم ببغـــيكم وظلمكم وانحرافكم.

«وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً» ..فما لكم به من قوة،وذهابكم لا يترك في كونه فراغا ولا نقصا .. «إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» ..يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع،ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربا!

وكانت هي الكلمة الفاصلة.وانتهى الجدل والكلام.ليحق الوعيد والإنذار:«وَلَمَّـــا جـــاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا.وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ».

لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد،وإهلاك قوم هود،نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا،خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم،واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء.وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين.ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم،يتناسق مع الجو،ومع القوم الغلاظ العتاة.

والآن وقد هلكت عاد.يشار إلى مصرعها إشارة البعد،ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب،وتشيع باللعنة والطرد،في تقرير وتكرار وتوكيد:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيد.وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ.أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ.أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

«وَتِلْكَ عادٌ» ..بهذا البعد.وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق،وكان مصرعهم معروضا على الأنظار ..ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار ..

«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ» ..وهم عصوا رسولا واحدا.ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعا.ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها.فهم جحدوا آيات،وهم عصوا رسلا.فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة! «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

أمر كل متسلط عليهم،معاند لا يسلم بحق،وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين،ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم.ولا يكونوا ذيولا فيهدروا آدميتهم.

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية اللّه وحده لهم والدينونة للّه وحده من دون العباد ..

كانت هي قضية الحاكمية والاتباع ..كانت هي قضية:من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره؟ يتجلى هذا في قول اللّه تعالى:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» ..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة أمر الرسل – لأنه أمر اللّه – ومعصية أمر الجبارين.وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان ..في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير اللّه والتمردعلى سلطان الأرباب الطغاة وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية،واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ..لقد خلق اللّه الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه،ولا يترلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم.فهذا مناط تكريمهم.

فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند اللّه ولا نجاة.وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة،وتدعي الإنسانية،وهي تدين لغير اللّه من عباده.والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين.فهم كثرة والمتجبرون قلة.ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال.

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد ..هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة:«وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال:«أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» ..

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» ..

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد.كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا:..«أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ»!!! [١٨١]

إن أصحاب الدعوة إلى اللّه في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا المشهد الباهر ..رجل واحد،لم يؤمن معه إلا قليل،يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم،كما جاء عنهم في قول اللّه تعالى فيهم

---

[١٨١] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٢٦]

حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى:« كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلينَ.إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ:أَلا تَتَّقُونَ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمينٌ،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون.وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمينَ.أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ؟ وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ.وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ.فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون.وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ.أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ.وَجَنَّاتٍ وَعُيُون.إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.قالُوا:سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ.إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ.وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ»! ..(الشعراء:١٢٣ – ١٣٨)

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة والذين أبطرتهم النعمة والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود! ..هؤلاء هم الذين واجههم هود – عليه السلام – هذه المواجهة.في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة – وهم قومه – وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال.وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال! لقد وقف هود – عليه السلام – هذه الوقفة الباهرة،بعد ما بذل لقومه من النصح ما يملك وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد ..ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة اللّه وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على اللّه ..

لقد وقف هود – عليه السلام – هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه،فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربه آخذ بناصيتها ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب؟! وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض،وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين! للابتلاء لا لمطلق العطاء.وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء،ولا يضرونه شيئا،ولا يردون له قضاء ..ففيم إذن يهوله شيء مما هم فيه،وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء؟ ..

إن أصحاب الدعوة إلى اللّه لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم ..أمام القوة المادية.وقوة الصناعة.وقوة المال.

وقوة العلم البشري.وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات ..وهـــم مســـتيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب مـــن الـــدواب! وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة فإذا القـــوم الواحد أمتان مختلفتان ..أمة تدين للّه وحده وترفض الدينونة لسواه.وأمة تتخذ مـــن دون اللّه أربابا،وتحاد اللّه! ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد اللّه بالنصر لأوليائه،والتدمير على أعدائه - في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففي تاريخ الدعوة إلى اللّه على مدار التاريخ! لم يفصل اللّه بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصـــل أوليـــاؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا اللّه وحده ..وكانوا هم حزب اللّه الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرا سواه.[١٨٢]



[١٨٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٣٥]

إننا نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة ..دعوة توحيد العبادة والعبودية للّه،المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول:«قالَ:يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

ولقد كنا دائما نفسر «العبادة» للّه وحده بأنها «الدينونة الشاملة» للّه وحده.في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة.ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي ..فإن «عبد» معناها:دان وخضع وذلل.وطريق معبد طريق مذلل ممهد.وعبّده جعله عبدا أي خاضعا مذللا ..و لم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية.بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عند ما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة للّه وحده في أمره كله وخلع الدينونة لغير اللّه من عنقه في كل أمره ..ولقد فسر رسول اللّه – ﷺ– «العبادة» نصا بأنها هي «الاتباع» وليست هي الشعائر التعبدية.فعَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ –ﷺ– وَفِى عُنُقِى صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ « يَا عَدِىُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِى سُورَةِ بَرَاءَةَ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَالَ « أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ »[١٨٣] . ..

إنما أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبار ها صورة من صور الدينونة للّه في شأن من الشؤون ..صورة لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! فلما بهت مدلول «الدين» ومدلول «العبادة» في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير اللّه التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير اللّه،كتقديمها للأصنام والأوثان مثلا! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح «مسلما» لا يجوز تكفيره! وتمتع بكل ما يتمتع به

---

[١٨٣] – سنن الترمذى– المكتر [١١ /٣٥٤](٣٣٧٨) صحيح لغيره

المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ...إلى آخر حقوق المسلم على المسلم! وهذا وهم باطل،وانحسار وانكماش،بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ «العبادة» التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه – وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة للّه في كل شأن ورفض الدينونة لغير اللّه في كل شأن.وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة والذي نص عليه رسول اللّه – ﷺ- نصا وهو يفسر قول اللّه تعالى:«اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ..وليس بعد تفسير رسول اللّه – ﷺ- لمصطلح من المصطلحات قول لقائل[184].

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيرا في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا اللّه لكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي[185]..فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

إنه لم يكن يعني:يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير اللّه! كما يتصور الذين انحسر مدلول «العبادة» في مفهوماتهم،وانزوى داخل اطار الشعائر التعبدية! إنما كان يعني الدينونة للّه وحده في منهج الحياة كلها ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها ..والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير اللّه ..فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة اللّه وحده – أي الدينونة له وحده – إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي:جحودهم بآيات ربهم،وعصيان رسله.واتباع أمر الجبارين من عبيده:«وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ،وَعَصَوْا رُسُلَهُ،وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».كما يقول عنهم أصدق القائلين اللّه رب

---

[184] – يراجع البحث القيم الذي كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان:«المصطلحات الأربعة في القرآن» .. «الإله. الرب. الدين. العبادة».

[185] – كتاب:«معالم في الطريق» وكتاب:«خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» وكتاب:«هذا الدين» وكتاب:«المستقبل لهذا الدين» وكتاب:«الإسلام ومشكلات الحضارة»

العالمين .وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل،واتباع الجبارين ..فهو أمر واحد لا أمور متعددة ..ومتى عصى قوم أوامر اللّه المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير اللّه.ودانوا للطواغيت بدلا من الدينونة للّه فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك – وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض.إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية،حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام ..وهكذا إلى يومنا هذا ..

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد.وردهم إلى الدينونة للّه وحده في كل أمر وفي كل شأن وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

إن توحيد الألوهية،وتوحيد الربوبية،وتوحيد القوامة،وتوحيد الحاكمية،وتوحيد مصدر الشريعة،وتوحيد منهج الحياة،وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة ...إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل،وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان ..لا لأن اللّه سبحانه في حاجة إليه،فاللّه سبحانه غني عن العالمين.

ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها.[١٨٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٨٦] في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٣٠]

لا بد أن نقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم:{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ } [هود:٥٢]..

وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول اللّه - ﷺ- لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.وذلك في قوله تعالى:«وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ،وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» ..

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية،وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين ..وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها ..

إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية اللّه - سبحانه - والحق الذي خلقت به السماوات والأرض،المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية ..والقرآن الكريم كثيرا ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية اللّه - سبحانه - والحق الذي قامت به السماوات والأرض والحق المتمثل في الدينونة للّه وحده ..والحق المتمثل في دينونة الناس للّه يوم الحساب بصفة خاصة،والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة ..وذلك في مثل هذه النصوص:

« وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ.لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا ..إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ ..بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ،وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ،وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ،وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ.يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ.أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ؟ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا،فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ.لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

وَهُمْ يُسْئَلُونَ.أَم اتَّخَذُوا منْ دُونه آلهَةً؟ قُلْ:هاتُوا بُرْهانَكُمْ.هذا ذكْرُ مَنْ مَعيَ وَذكْرُ مَنْ قَبْلي،بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ.وَما أَرْسَلْنا منْ قَبْلكَ منْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحي إِلَيْه أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» ...(الأنبياء ١٦ – ٢٥).

«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ منَ الْبَعْث فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ منْ تُرابٍ،ثُمَّ منْ نُطْفَة،ثُمَّ منْ عَلَقَة،ثُمَّ منْ مُضْغَة مُخَلَّقَة وَغَيْرِ مُخَلَّقَة،لنُبَيِّنَ لَكُمْ،وَنُقرُّ في الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى،ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طفْلًا،ثُمَّ لتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ،وَمنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى،وَمنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لكَيْلا يَعْلَمَ – منْ بَعْد علْمٍ – شَيْئاً،وَتَرَى الْأَرْضَ هامدَةً،فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ،وَأَنْبَتَتْ منْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ذلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ،وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى،وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ،وَأَنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لا رَيْبَ فيها،وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» ...(الحج:٥ – ٧).

« وَليَعْلَمَ الَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ منْ رَبِّكَ فَيُؤْمنُوا به فَتُخْبتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ،وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذينَ آمَنُوا إِلى صراط مُسْتَقيمٍ.وَلا يَزالُ الَّذينَ كَفَرُوا في مرْيَة منْهُ حَتَّى تَأْتيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقيمٍ.الْمُلْكُ يَوْمَئذ،للَّه يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ،فَالَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات في جَنَّات النَّعيمِ.وَالَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآياتنا فَأُولئكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهينٌ.وَالَّذينَ هاجَرُوا في سَبيلِ اللَّه ثُمَّ قُتلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً،وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازقينَ.لَيُدْخلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ،وَإِنَّ اللَّهَ لَعَليمٌ حَليمٌ.ذلكَ وَمَنْ عاقَبَ بمثْلِ ما عُوقبَ به ثُمَّ بُغيَ عَلَيْه لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ،إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.ذلكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ،وَأَنَّ اللَّهَ سَميعٌ بَصيرٌ.ذلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ،وَأَنَّ ما يَدْعُونَ منْ دُونه هُوَ الْباطلُ،وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَليُّ الْكَبيرُ.أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ منَ السَّماء ماءً فَتُصْبحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً؟ إِنَّ اللَّهَ لَطيفٌ خَبيرٌ.لَهُ ما في السَّماوات وَما في الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنيُّ الْحَميدُ.أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْري فِي الْبَحْرِ بِأَمْره،وَيُمْسكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بإِذْنه،إِنَّ اللَّهَ بالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحيمٌ.وَهُوَ الَّذي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ،إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ.لكُلِّ أُمَّة جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ

ناسِكُوهُ،فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ،وَادْعُ إِلى رَبِّكَ،إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ ...» ..(الحج:٥٤ – ٦٧).

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون اللّه سبحانه هو الحق،وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق،وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق.وبين تتريل هذا الكتاب بالحق،وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق ..فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر اللّه بما يشاء،وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء .ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة،وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدرارا ...فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات اللّه سبحانه وفي قضائه وقدره،وفي تدبيره وتصريفه،وفي حسابه وجزائه،في الخير وفي الشر سواء ..

ومن هذا الارتباط مجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس.فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة.سواء عن طريق قدر اللّه الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم.أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك.وهي الآثار التي ينشئها في حياقم الإيمان أو عدم الإيمان،من النتائج المحسوسة المدركة.

وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الآثار العملية الواقعية حين قلنا مرة:إن سيادة المنهج الإلهي في مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل في هذا المجتمع،وأن يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعي – فضلا على الأمن والسكينة والاستقرار القلبي بالإيمان – ومن شأن هذا كله أن يمتع الناس متاعا حسنا في هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير في الآخرة ..وحين قلنا مرة:إن الدينونة للّه وحده في مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقاقم من أن تنفق في الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التي تطلق حول الأرباب المزيفة،لتخلع عليها شيئا من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود والطاقات للبناء في

الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس.فضلا على الكرامة والحرية والمساواة التي يتمتع بها الناس في ظل الدينونة للّه وحده دون العباد ..
وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحقق حقيقته في حياة الناس[١٨٧]..



١٨٧ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٣٢]

لقد أرسل كل رسول إلى قومه.وعند بدء الدعوة كان الرسول واحدا من قومه هؤلاء.يدعوهم إلى الإسلام دعوة الأخ لإخوته ويريد لهم ما يريد الأخ لإخوته من الخير الذي هداه اللّه إليه والذي يجد في نفسه بينة من ربه عليه.

هذا كان موقف كل رسول من قومه عند نقطة البدء ..ولكن هذا لم يكن موقف أي رسول عند نقطة الختام! لقد استجابت للرسول طائفة من قومه فآمنوا بما أرسل به إليهم ..عبدوا اللّه وحده كما طلب إليهم،وخلعوا من أعناقهم ربقة الدينونة لأي من خلقه ..وبذلك صاروا مسلمين ..صاروا «أمة مسلمة» ..

ولم تستجب للرسول طائفة أخرى من قومه.كفروا بما جاءهم به وظلوا في دينونتهم لغير اللّه من خلقه وبقوا في جاهليتهم لم يخرجوا منها إلى الإسلام ..ولذلك صاروا «أمة مشركة» ..

لقد انقسم القوم الواحد تجاه دعوة الرسول إلى أمتين اثنتين:أمة مسلمة وأخرى مشركة ولم يعد القوم الواحد أمة واحدة كما كانوا قبل الرسالة.مع أنهم قوم واحد من ناحية الجنس والأرومة.إلا أن آصرة الجنس والأرومة،وآصرة الأرض والمصالح المشتركة ..لم تعد هي التي تحكم العلاقات بينهم كما كانوا قبل الرسالة ..لقد ظهرت مع الرسالة آصرة أخرى تجمع القوم الواحد أو تفرقه ..تلك هي آصرة العقيدة والمنهج والدينونة ..وقد فرقت هذه الآصرة بين القوم الواحد،فجعلته أمتين مختلفتين لا تلتقيان،ولا تتعايشان! ذلك أنه بعد بروز هذه المفارقة بين عقيدة كل من الأمتين فاصل الرسول والأمة المسلمة التي معه قومهم على أساس العقيدة والمنهج والدينونة.فاصلوا الأمة المشركة التي كانت قبل الرسالة هي قومهم وهي أمتهم وهي أصلهم ..لقد افترق المنهجان،فاختلفت الجنسيتان.وأصبحت الأمتان الناشئتان من القوم الواحد لا تلتقيان ولا تتعايشان! وعند ما فاصل المسلمون قومهم على العقيدة والمنهج والدينونة فصل اللّه بينهما فأهلك الأمة

المشركة،ونجى الأمة المسلمة ..واطردت هذه القاعدة على مدار التاريخ كمـــا رأينـــا في السورة ..

والأمر الذي ينبغي لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان أن تكون على يقين منه:أن اللّه سبحانه لم يفصل بين المسلمين وأعدائهم من قومهم،إلا بعد أن فاصل المسلمون أعداءهم وأعلنوا مفارقتهم لما هم عليه من الشرك وعالنوهم بأنهم يدينون للّه وحـــده،ولا يـــدينون لأربابهم الزائفة ولا يتبعون الطواغيت المتسلطة ولا يشاركون في الحياة ولا في المجتمع الذي تحكمه هذه الطواغيت بشرائع لم يأذن بها اللّه.سواء تعلقت بالاعتقـــاد،أو بالشـــعائر،أو بالشرائع.

إن يد اللّه سبحانه لم تتدخل لتدمر على الظالمين،إلا بعد أن فاصلهم المســـلمون ..ومـــا دام،المسلمون لم يفاصلوا قومهم،و لم يتبرأوا منهم،و لم يعـــالنوهم بـــافتراق دينـــهم عـــن دينهم،ومنهجهم عن منهجهم،وطريقهم عن طريقهم، لم تتدخل يد اللّه سبحانه للفصـــل بينهم وبينهم،ولتحقيق وعد اللّه بنصر المؤمنين والتدمير على الظالمين ..

وهذه القاعدة المطردة هي التي ينبغي لطلائع البعث الإسلامي أن تـــدركها وأن ترتـــب حركتها على أساسها:

إن الخطوة الأولى تبدأ دعوة للناس بالدخول في الإسلام والدينونة للّه وحده بلا شـــريك ونبذ الدينونة لأحد من خلقه – في صورة من صور الدينونة – ثم ينقسم القـــوم الواحـــد قسمين،ويقف المؤمنون الموحدون الذين يدينون للّه وحده صـــفا – أو أمـــة – ويقـــف المشركون الذين يدينون لأحد من خلق اللّه صفا آخر ..ثم يفاصل المؤمنون المشركين ..ثم يحق وعد اللّه بنصر المؤمنين والتدمير على المشركين ..كما وقع باطراد على مدار التاريخ البشري.

ولقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية.ولكن المفاصلة العقدية الشعورية يجـــب أن تتم منذ اللحظة الأولى.

ولقد يبطئ الفصل بين الأمتين الناشئتين من القوم الواحد وتكثر التضحيات والعـــذابات والآلام على جيل من أجيال الدعاة أو أكثر ..ولكن وعد اللّه بالفصل يجب أن يكـــون في

قلوب العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال.فهو لا شك آت.ولـــن يخلف اللّه وعده الذي جرت به سنته على مدار التاريخ البشري.

ورؤية هذه السنة على هذا النحو من الحسم والوضوح ضرورية كذلك للحركة الإسلامية في مواجهة الجاهلية البشرية الشاملة.فهي سنة جارية غير مقيدة بزمان ولا مكان ..ومـــا دامت طلائع البعث الإسلامي تواجه البشرية اليوم في طور من أطوار الجاهلية المتكـــررة وتواجهها بذات العقيدة التي كان الرسل – عليهم صلوات اللّه وسلامه – يواجهونها بهـــا كلما ارتدت وانتكست إلى مثل هذه الجاهليـــة.فـــإن للعصـــبة المســـلمة أن تمضـــي في طريقها،مستوضحة نقطة البدء ونقطة الختام،وما بينهما من فترة الدعوة كذلك.مســـتيقنة أن سنة اللّه جارية مجراها،وأن العاقبة للتقوى.

وأخيرا،فإنه من خلال هذه الوقفات أمام القصص القرآني في هذه السورة تتبين لنا طبيعـــة منهج هذا الدين،كما يتمثل في القرآن الكريم ..إنها طبيعة حركية تواجه الواقع البشـــري بهذا القرآن مواجهة واقعية عملية ..

لقد كان هذا القصص يتنزل على رسول اللّه – ﷺ– في مكة.والقلة المؤمنة معه محصـــورة بين شعابها،والدعوة الإسلامية مجمدة فيها،والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق ويريهم معالمه في مراحلـــه جميعـــا ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق وقد بات لا حبا موصولا بموكب الـــدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري وبات بهذا الركب الكريم مأنوسا مألوفا لا موحشا ولا مخوفا! ..إنهم زمرة من موكب موصول في طريق معروف وليسوا مجموعة شاردة في تيـــة مقطوع! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلى نقطة الختام وفق سنة جارية ولا يمضون هكذا جزافا يتبعون الصدفة العابرة! هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم ويحـــرك هـــذا الصف حركة مرسومة مأمونة ..

وهكذا يمكن اليوم وغدا أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي،ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم ..

إن هذه الطلائع في حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه.تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها وتستوحيه في ما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن – بهذه الصورة – لا يعود مجرد كلام يتلى للبركة.ولكنه ينتفض حيا يتنزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة،لتتحرك به،وتتابع توجيهاته،وتتوقع موعود اللّه فيه.

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به،لتحقيق مدلوله في عالم الواقع.لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية،ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه! إن هؤلاء جميعا لن يدركوا من هذا القرآن شيئا يذكر.فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه.

إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية بالإسلام الحنيف والذين يجاهدون البشرية الضالة لردها إلى الإسلام من جديد والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده ..

إن هؤلاء وحدهم هم الذين يفقهون هذا القرآن لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه:ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع ..وهذا وحده جزاء على كل ما يصيبهم من عذابات وآلام.

أأقول:جزاء؟! كلا.واللّه.إنه لفضل من اللّه كبير ..«قُلْ:بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» ..والحمد للّه العظيم رب الفضل العظيم ..[188]



[188] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٥٧٩]

قال تعالى:{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)} [يوسف:٣٩، ٤٠]

لقد رسم يوسف – عليه السلام – بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة،كل معالم هذا الدين،وكل مقومات هذه العقيدة.كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزا شديدا عنيفا ..

«يا صاحِبَيِ السِّجْنِ،أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ؟» ..

إنه يتخذ منهما صاحبين،ويتحبب إليهما هذه الصفة المؤنسة،ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة.وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة،إنما يعرضها قضية موضوعية:«أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ؟» ..وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزا شديدا ..إن الفطرة تعرف لها إلها واحدا ففيم إذن تعدد الأرباب؟ ..إن الذي يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو اللّه الواحد القهار.ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعا لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس.وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن اللّه واحد،وأنه هو القاهر،ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره،ويتخذوا بذلك من دون اللّه ربا ..إن الرب لا بد أن يكون إلها يملك أمر هذا الكون ويسيره.

ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه،وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره! واللّه الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب – كالشأن في كل الأرباب إلا اللّه – وما شقيت البشرية قط شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم،وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم ..فهذه الأرباب الأرضية التي تغتصب

سلطان اللّه وربوبيته أو يعطيها الجاهليون هذا السلطان تحـــت تـــأثير الـــوهم والخرافـــة والأسطورة،أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدعاية! هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها،ومن حرصها على ذواهّا وبقائها،ومن الرغبة الملحـــة في اســـتبقاء سلطانها وتقويته،وفي تدمير كل القوى والطاقات التي تهدد ذلك السلطان من قريب أو من بعيد وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطبل حولها والزمر والنفخ فيها كي لا تذبل ولا تنفثئ نفختها الخادعة! واللّه الواحد القهار في غنى عن العالمين فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة – وفق منهجه – فيعدّ لهم هـــذا كلـــه عبادة.وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم،لإصـــلاح حياتهم وواقعهم ..وإلا فما أغناه سبحانه عن عباده أجمعين! «يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَـــراءُ إِلَى اللَّهِ،وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..ففرق بين الدينونة للّه الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد![189]

ثم يخطو يوسف – عليه السلام – خطوة أخرى في تفنيد عقائـــد الجاهليـــة وأوهامهـــا الواهية:«ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهـــا مِـــنْ سُلْطانٍ» ..

إن هذه الأرباب – سواء كانت من البشر أم من غير البشـــر مـــن الأرواح والشـــياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر اللّه – ليست من الربوبية في شيء، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء.فالربوبية لا تكون إلا للّه الواحد القهار الذي يخلق ويقهر كل العباد ..ولكن البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون مـــن عنـــد أنفســـهم أسماء،ويخلعون عليها صفات،ويعطونها خصائص وفي أول هذه الخصائص خاصية الحكـــم والسلطان..واللّه لم يجعل لها سلطانا و لم ينزل بها من سلطان ..

وهنا يضرب يوسف – عليه السلام – ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين:لمن ينبغي أن يكـــون السلطان! لمن ينبغي أن يكون الحكم! لمن ينبغي أن تكون الطاعة ..أو بمعنى آخر لمن ينبغي

[189] – يراجع ما سبق تقريره في هذا الجزء عن قيمة العبودية للّه وحده في واقع الحياة البشرية. ص ١٩٣٨ – ١٩٤٣.

أن تكون «العبادة»! «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ.أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ..

إن الحكم لا يكون إلا للّه.فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته.إذ الحاكمية من خصائص الألوهية.

من ادعى الحق فيها فقد نازع اللّه سبحانه أولى خصائص ألوهيته سواء ادعى هذا الحق فرد،أو طبقة،أو حزب.أو هيئة،أو أمة،أو الناس جميعا في صورة منظمة عالمية.ومن نازع اللّه سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر باللّه كفرا بواحا،يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة،حتى بحكم هذا النص وحده! وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم،وتجعله منازعا للّه في أولى خصائص ألوهيته - سبحانه - فليس من الضروري أن يقول:ما علمت لكم من إله غيري أو يقول:أنا ربكم الأعلى،كما قالها فرعون جهرة.ولكنه يدعي هذا الحق وينازع اللّه فيه بمجرد أن ينحي شريعة اللّه عن الحاكمية ويستمد القوانين من مصدر آخر.وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية،أي التي تكون هي مصدر السلطات،جهة أخرى غير اللّه سبحانه ..ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية.

والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة اللّه ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته.إنما مصدر الحاكمية هو اللّه.وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة.فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه اللّه وحده.

والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه اللّه بسلطانه،أما ما لم يشرعه اللّه فلا سلطان له ولا شرعية،وما أنزل اللّه به من سلطان ..

ويوسف - عليه السلام - يعلل القول بأن الحكم للّه وحده.فيقول:«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ».

ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى «العبادة» التي يخص بها اللّه وحده ..

إن معنى عبد في اللغة:دان،وخضع،وذل ..و لم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر ..إنما كان هو معناه اللغوي نفسه ..فعند ما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر.قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه.إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي.كان المقصود به هو الدينونة للّه وحده،والخضوع لــه وحده،واتباع أمره وحده.سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية،أو تعلق بتوجيه أخلاقي،أو تعلق بشريعة قانونية.فالدينونة للّه وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خــص اللّــه سبحانه بها نفسه و لم يجعلها لأحد من خلقه ..

وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوســف – عليــه الســلام – اختصاص اللّه بالعبادة تعليلا لاختصاصه بالحكم.فالعبادة – أي الدينونــة – لا تقــوم إذا كان الحكم لغيره ..وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حيــاة النــاس وفي نظــام الوجود،وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة.فكله حكم تتحقق به الدينونة.

ومرة أخرى نجد أن منازعة اللّه الحكم تخرج المنازع من دين اللّه – حكما معلومــا مــن الدين بالضرورة – لأنها تخرجه من عبادة اللّه وحده ..وهذا هو الشــرك الــذي يخــرج أصحابه من دين اللّه قطعا.وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه،ويدينون له بالطاعــة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان اللّه وخصائصه ..فكلهم سواء في ميزان اللّه.

ويقرر يوسف – عليه السلام – أن اختصاص اللّــه – ســبحانه – بــالحكم – تحقيقــا لاختصاصه بالعبادة – هو وحده الدين القيم:«ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» ..

وهو تعبير يفيد القصر.فلا دين قيما سوى هذا الدين،الذي يتحقق فيه اختصــاص اللّــه بالحكم،تحقيقا لاختصاصه بالعبادة ..

«وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ..وكونهم «لا يعلمون» لا يجعلــهم علــى ديــن اللّــه القيم.فالذي لا يعلم شيئا لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه ..

فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين،لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين! و لم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام.ذلك أن الجهــل مــانع

للصفة ابتداء.فاعتقاد شيء فرع عن العلم به ..وهذا منطق العقل والواقع ..بـــل منطـــق البداهة الواضح.

لقد رسم يوسف – عليه السلام – بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين،وكل مقومات هذه العقيدة كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزا شديدا ..

إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعيا أخص خصائص الألوهية،وهو الربوبية.أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه،ودينونتهم لفكره وقانونه.وهو إذ يزاول هذا في عـــالم الواقـــع يدعيه – ولو لم يقله بلسانه – فالعمل دليل أقوى من القول.

وإن الطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس.فما يمكن أن يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلا أن الحكم للّه وحده،لأن العبادة لا تكون إلا للّه وحده،والخضوع للحكم عبادة.بل هي أصلا مدلول العبادة.[١٩٠]



[١٩٠] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٢٧]

قال تعالى:{ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) } [إبراهيم:١٠-١٢]

أفي اللّه شك والسماوات والأرض تنطقان للفطرة بأن اللّه أبدعهما إبداعا وأنشأهما إنشاء؟ قالت رسلهم هذا القول،لأن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان،فمجرد الإشارة إليهما يكفي،ويرد الشارد إلى الرشد سريعا،ولم يزيدوا على الإشارة شيئا لأنها وحدها تكفي ثم أخذوا يعددون نعم اللّه على البشر في دعوتهم إلى الإيمان،وفي إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ويتقون العذاب:«أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ».

والدعوة أصلا دعوة إلى الإيمان،المؤدي إلى المغفرة.ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة،لتتجلى نعمة اللّه ومنته.وعندئذ يبدو عجيبا أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقيهم للدعوة! «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» ..«وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى» ..فهو – سبحانه – مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة،ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب.

إنما يمن عليكم منة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى.إما في هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب،ترجعون فيه إلى نفوسكم،وتتدبرون آيات اللّه وبيان رسلكم.وهي رحمة وسماحة تحسبان في باب النعم ..فهل هذا هو جواب دعوة اللّه الرحيم المنان؟!

هنا يرجع القوم في جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول:« قالُوا:إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا،تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا» ..وبدلا من أن يعتز البشر باختيار اللّه

لواحد منهم ليحمل رسالته،فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار،ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم.ولا يسألون أنفسهم:لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟! وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم:ما قيمته؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير؟! وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة،إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق:«فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» ..ويرد الرسل ..لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها،ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة اللّه في اختيار رسل من البشر،وفي منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى:«قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ:إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» ..

ويذكر السياق لفظ «يمن» تنسيقا للحوار مع جو السورة.جو الحديث عن نعم اللّه.ومنها هذه المنة على من يشاء من عباده.وهي منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم.ولكن كذلك على البشرية التي تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى.مهمة الاتصال والتلقي من الملأ الأعلى.وهي منة على البشرية بتذكير الفطرة التي ران عليها الركام لتخرج من الظلمات إلى النور ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقي فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة ..ثم هي المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة للّه وحده بلا شريك واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد في الدينونة للعبيد ..الذل الذي يحني هامة إنسان لعبد مثله! والتبدد الذي يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله! فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين،وقوة خارقة،فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن اللّه.ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات اللّه الإلهية،وذواتهم هم البشرية،وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذي لا يلتبس بمشابهة في ذات ولا صفة،وهي المتاهة التي تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات الكنسية في المسيحية عند ما تلبست بالوثنيات الإغريقية والرومانية والمصرية والهندية.وكانت نقطة البدء في المتاهة هي نسبة الخوارق إلى عيسى – عليه السلام – بذاته واللبس بين ألوهية اللّه وعبودية عيسى عليه السلام!

«وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ..وما نعتمد على قوة غير قوته:«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ..يطلقها الرسل حقيقة دائمة.فعلى اللّه وحده يتوكل المؤمن،لا يتلفت قلبه إلى سواه،ولا يرجو عونا إلا منه،ولا يرتكن إلا إلى حماه.

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان،ويواجهون الأذى بالثبات ويسألون للتقرير والتوكيد:«وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا؟ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا،وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» ..

«وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا» ..إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه.المالئ يديه من وليه وناصره.المؤمن بأن اللّه الذي يهدي السبيل لا بد أن ينصر وأن يعين.وماذا يهم حتى ولو لم يتم في الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل؟

والقلب الذي يحس أن يد اللّه – سبحانه – تقود خطاه،وتهديه السبيل،هو قلب موصول باللّه لا يخطئ الشعور بوجوده – سبحانه – وألوهيته القاهرة المسيطرة وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق،أيا كانت العقبات في الطريق،وأيا كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق.ومن ثم هذا الربط في رد الرسل – صلوات اللّه وسلامه عليهم – بين شعورهم بهداية اللّه لهم وبين توكلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد.

وهذه الحقيقة – حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية اللّه وبين بديهية التوكل عليه – لا تستشعرها إلا القلوب التي تزاول الحركة فعلا في مواجهة طاغوت الجاهلية والتي تستشعر في أعماقها يد اللّه – سبحانه – وهي تفتح لها كوى النور فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة،وتحس الأنس والقربى ..وحينئذ لا تحفل بما يتوعدها به طواغيت الأرض ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل.وماذا يخاف القلب الموصول باللّه على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد؟! «وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا» ..«وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا» ..لنصبرن لا نتزحزح ولا نضعف ولا

نتراجع ولا نهن،ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد ..«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» ..

وهنا يسفر الطغيان عن وجهه.لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل،لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة،فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبرون :« وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ:لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا»!

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية ..إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها.ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها.وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها.فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل،وهذا ما لا تطيقه الجاهلية.لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم،وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي،وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل.وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله،وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه،فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى ..وعند ما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة،ولا يبقى مجال لحجة ولا يسلم اللّه الرسل إلى الجاهلية ..

إن التجمع الجاهلي – بطبيعة تركيبه العضوي – لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله،إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي،ولتوطيد جاهليته! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي،والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع.هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره ..لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم اللّه منها ..

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل،وإن كانوا طغاة متجبرين:« فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ.ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ».

ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائما بعـــد مفاصلة الرسل لقومهم ..بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم اللّه منها ..وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإســلامي الخـــاص بقيادتـــه الخاصة.وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القـــوم الواحـــد إلى أمـــتين مختلفتين عقيدة ومنهجا وقيادة وتجمعا ..عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضـــرب ضـــربتها الفاصلة،ولتدمر على الطواغيـــت الـــذين يتهـــددون المـــؤمنين،ولتمكن للمـــؤمنين في الأرض،ولتحقق وعد اللّه لرسله بالنصر والتمكين ...ولا يكـــون هـــذا التـــدخل أبـــدا والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي،عاملون من خـــلال أوضـــاعه وتشـــكيلاته،غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة [١٩١]..



[١٩١] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٣٥]

خسران من اتبع المشركين والمستكبرين

قال تعالى:«وَبَرَزُوا لِلَّه جَميعاً – فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا:إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً.فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّه مِنْ شَيء؟ قالُوا:لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ.سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحيص.وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ:إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ،وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطان إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.فَلا تَلُومُوني وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ،ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخيَّ.إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ.إِنَّ الظَّالِمينَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ.» «وَأُدْخِلَ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّات تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،خالِدينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ،تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ».

لقد انتقلت الرواية ..رواية الدعوة والدعاة،والمكذبين والطغاة ..انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة:«وَبَرَزُوا لِلَّه جَميعاً» ..

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين.ومعهم الشيطان ..ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات ..برزوا «جميعا» مكشوفين.وهم مكشوفون للّه دائما.ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب،ولا يسترهم ساتر،ولا يقيهم واق ..برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار،وبدأ الحوار:«فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا:إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً.فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّه مِنْ شَيء؟» ..

والضعفاء هم الضعفاء.هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على اللّه حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة.ودانوا لغير اللّه من عبيده واختاروها على الدينونة للّه.والضعف ليس عذرا،بل هو الجريمة فما يريد اللّه لأحد أن يكون ضعيفا،وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة للّه.وما يريد اللّه لأحد أن يترل طائعا عن نصيبه في الحرية – التي هي ميزته ومناط تكريمه – أو أن يترل كارها.والقوة المادية – كائنة ما كانت – لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية،ويستمسك بكرامته الآدمية.فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد،تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه.أما الضمير.أما الروح.أما العقل.فلا يملك أحد

حبسها ولا استذلالها،إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال! من ذا الــذي يملــك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة،وفي التفكير،وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة،وفي الــتفكير،وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير اللّه،واللّه هو خــالقهم ورازقهــم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد.لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة.فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قــوة مادية من الطغاة،ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما ..كــلا،إن هــذه كلــها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء.إنما هــم ضــعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة،والطواغيت قلة.فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلــة؟ ومــاذا الــذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح،وسقوط الهمة،وقلة النخوة،والتنازل الــداخلي عــن الكرامة التي وهبها اللّه لبني الإنسان! إن الطغاة لا يملكــون أن يســتذلوا الجمــاهير إلا برغبةهذه الجماهير.فهي دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت.فالإرادة هي التي تــنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء ..وهذه القابلية هي وحــدها الــتي يعتمد عليها الطغاة!! والأذلاء هنا على مسرح الآخــرة في ضــعفهم وتبعيتــهم للــذين استكبروا يسألونهم:«إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِــنْ شَــيء»؟ ..وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟! أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيــب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة،وتعريضهم إياهم للعذاب؟

إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال! ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

«قالُوا:لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ! سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ!» ..

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق:«لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ» ..

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضللكم.ولو هدانا اللّه لقدناكم إلى الهدى معنا،كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى اللّه.فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها،ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابا لقدرة القاهر الجبار.وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر للّه ..واللّه لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه:«إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ» ..ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي،فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر.فقد حق العذاب،ولا راد له من صبر أو جزع،وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة اللّه.

لقد انتهى كل شيء، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص:«سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ»! لقد قضي الأمر،وانتهى الجدل،وسكت الحوار ..وهنا نرى على المسرح عجبا.نرى الشيطان ..هاتف الغواية،وحادي الغواة ..نراه الساعة يلبس مسوح الكهان،أو مسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء،بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب:«وَقالَ الشَّيْطانُ - لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ - إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ،وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ.ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ.إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ.إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ».

اللّه! اللّه! أما إن الشيطان حقا لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار ..إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور،وأغرى بالعصيان،وزين الكفر،وصدهم عن استماع الدعوة ..هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة،حيث لا يملكون أن يردوها عليه - وقد قضي الأمر - هو الذي يقول الآن،وبعد فوات الأوان:«إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ»! ثم يخزهم وخزة أخرى بتعبيرهم بالاستجابة له،وليس له عليهم من سلطان،سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم،ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء

قديم،فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من اللّه:«وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»! ثم يؤنبهم،ويدعوهم لتأنيب أنفسهم.يؤنبهم على أن أطاعوه!:«فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ»! ثم يخلي بهم،وينفض يده منهم،وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم،ووسوس لهم أن لا غالب لهم فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا،كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ:«ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ» ..وما بيننا من صلة ولا ولاء! ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك:«إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ»! ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه:«إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»! فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ودعاهم الرسل إلى اللّه فكذبوهم وجحدوه! وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة،الأمة الفائزة،الأمة الناجية:«وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ،خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ،تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ» ..ويسدل الستار ..

فيا له من مشهد! ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة![١٩٢]



[١٩٢] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٤٠]

إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير ..إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول،يقوده رسل اللّه الكرام،داعين بحقيقة واحدة،جاهرين بدعوة واحدة،سائرين على منهج واحد ..كلهم يدعو إلى ألوهية واحدة،وربوبية واحدة وكلهم لا يدعو مع اللّه أحدا،ولا يتوكل على أحد غيره،ولا يلجأ إلى ملجأ سواه،ولا يعرف له سندا إلا إياه.

وأمر الاعتقاد في اللّه الواحد – إذن – ليس كما يزعم «علماء الدين المقارن» أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة اللّه الواحد وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقي التجربة البشرية والعلم البشري،وبتطور وترقي الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد ...

إن الاعتقاد في اللّه الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ و لم تتغير هذه الحقيقة و لم تتبدل في رسالة واحدة من الرسالات ولا في دين واحد من الأديان السماوية.كما يقص علينا الحكيم الخبير.

ولو قال أولئك «العلماء»:إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التي كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حينا بعد حين.حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولا لدى جماهير الناس مما كانت،بفعل توالي رسالات التوحيد وبفعل العوامل الأخرى التي يفردونها بالتأثير ...لو قال أولئك «العلماء» قولا كهذا لساغ ..ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة في أوربا – حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون! – ومن الرغبة الخفية – الواعية أو غير الواعية – في تحطيم المنهج الديني في التفكير وإثبات أن الدين لم يكن قط وحيا من عند اللّه إنما كان اجتهادا من البشر،ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم

في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء ..ومن ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ويسمى مع ذلك «علما» ينخدع به الكثيرون! وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا «العلم» فإنه لا ينبغي لمسلم يؤمن بدينه،ويحترم منهج هذا الدين في تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة وأن يدلي بقول يصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات دينه،ومع منهجه الواضح في هذا الشأن الخطير [193] ..

هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة – إذن – بدعوة واحدة،وعقيدة واحدة،وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم،وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة،مواجهة واحدة – كما يعرضها السياق القرآني مغضيا عن الزمان والمكان،مبرزا للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان – وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل،فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل!

إنها حقيقة تستوقف النظر حقا! ..إن الجاهلية هي الجاهلية على مدار الزمان ..إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ولكنها وضع واعتقاد وتصور وتجمع عضوي على أساس هذه المقومات ..

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ومن تأليه غير اللّه.أو من ربوبية غير اللّه – وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية – فسواء كان الاعتقاد قائما على تعدد الآلهة أو كان قائما على توحيد الإله مع تعدد الأرباب – أي المتسلطين – فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى! ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد اللّه وتنحية الأرباب الزائفة،وإخلاص الدين للّه – أي إخلاص الدينونة للّه وإفراده سبحانه بالربوبية،أي الحاكمية والسلطان – ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية وتصبح بذاتها خطرا على وجود الجاهلية.وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص،يأخذ أفراده من التجمع الجاهلي وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد،ومن

---

[193] – يراجع ما كتب عن هذه القضية في الجزء الثاني عشر ص ١٨٨٢ – ١٨٨٦ من هذه الطبعة المنقحة.

ناحية القيادة،ومن ناحية الولاء ..الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان ..

وعند ما يشعر التجمع الجاهلي – بوصفه كيانا عضويا واحدا متساندا – بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له ..فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام!

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام! المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر.فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة،أو تعدد الأرباب،ومن ثم يدين فيه العباد للعباد.والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد ..

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي،في أول الأمر وهو في دور التكوين،ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه،وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية للّه وحده ..لما كانت هذه كلها حتميات لا بد منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح،فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام ..ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام! ..إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاحتياج ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد! وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها،فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت،لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام! ..

إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة وكذلك لم يخدع الرسل الكرام – صلوات اللّه وسلامه عليهم – أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة ..«وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ:لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» ..فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم،أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص.

إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم،ويندمجوا في تجمعهم،ويذوبوا في هذا التجمـــع.أو أن يطردوهم بعيدا وينفوهم من أرضهم ..

و لم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي،ولا أن يذوبوا فيه،ولا أن يفقـــدوا شخصية تجمعهم الخاص ..هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعـــدة الـــتي يقوم عليها التجمع الجاهلي ..و لم يقولوا – كما يقول ناس ممـــن لا يـــدركون حقيقـــة الإسلام ..ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات –:حسنا! فلنندمج في ملتهم كـــي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم!!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي،لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعـــه الإســـلامي وقيادته وولائه .وليس في ذلك اختيار ..إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضـــوي للمجتمعات ..هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإســـلام القائمة على قاعدة عبودية الناس للّه وحده وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكـــز القيـــادة والسلطان.كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في المجتمع الجاهلي خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار[١٩٤]!

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى اللّه في جميع الأحوال.وهي أن تحقيق وعد اللّه لأوليائه بالنصر والتمكين والفصل بينهم وبين قومهم بـــالحق،لا يقـــع ولا يكون،إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الـــذي معهم ..فذلك الفصل من اللّـــه لا يقـــع وأصـــحاب الـــدعوة متميعـــون في المجتمـــع الجاهلي،ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته ..وكل فترة تميع على هذا النحـــو هـــي فترة تأخير وتأجيل لوعد اللّه بالنصر والتمكين ..وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى اللّه،وهم واعون مقدرون..

وأخيرا ..نقف أمام الجمال الباهر الذي يعرض فيه القرآن الكريم موكـــب الإيمـــان،وهو يواجه الجاهلية الضالة على مدار الزمان ..جمـــال الحـــق الفطـــري البســـيط الواضـــح

---

١٩٤ – يراجع بتوسع فصل:«نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» في كتاب «معالم في الطريق». «دار الشروق».

العميق،الواثق المطمئن،الرصين المكين:«قالَتْ رُسُلُهُمْ:أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ،يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ،وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى؟» ..

...«قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ:إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ،وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ،وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ،وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا،وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا،وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» ..

وهذا الجمال الباهر إنما ينشأ من هذا العرض الذي يجعل الرسل موكبا موحدا في مواجهة الجاهلية الموحدة ويصور الحقيقة الباقية من وراء الملابسات المتغيرة ويبرز المعالم المميزة للدعوة التي يحملها الرسل وللجاهلية التي تواجههم،من وراء الزمان والمكان،ومن وراء الأجناس والأقوام! ثم يتجلى هذا الجمال في كشف الصلة بين الحق الذي تحمله دعوة الرسل الكرام،والحق الكامن في كيان هذا الوجود:«قالَتْ رُسُلُهُمْ:أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟» ..

«وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا؟» ..

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ،إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ،وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ» ..وهكذا تتجلى العلاقة العميقة بين الحق في هذه الدعوة،والحق الكامن في الوجود كله.ويبدو أنه حق واحد موصول باللّه الحق،ثابت وطيد عميق الجذور:«كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ» ..وأن ما عداه هو الباطل الزائل «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ» ..كذلك يتمثل ذلك الجمال في شعور الرسل بحقيقة اللّه ربهم وفي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب تلك العصبة المختارة من عباده:«وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا،وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا،وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» ..[١٩٥]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[١٩٥] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٤٥]

قال تعالى:{ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) } سورة الأنعام

هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى وبمشهد الذي يرجع القهقرى مرتدا عن دين اللّه وحيرته في التيه بلا اتجاه وبتقرير أن هدى اللّه وحده هو الهدى .. هذا الإيقاع يختم برنة عالية عميقة مدوية. عن سلطان اللّه المطلق،في الأمر والخلق وعن انكشاف هذا السلطان وتفرده بالظهور - حتى للمنكرين المطموسين - «يوم ينفخ في الصور» ويبعث من في القبور ويستيقن من لم يكن يستيقن أن الملك للّه وحده،وأن إليه المصير:« قُلْ:أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا،وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ،كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ،حَيْرانَ،لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى. ائْتِنا. قُلْ:إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى،وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ. وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ» ..

«قُلْ» .. الإيقاع القوي المتكرر في السورة الذي يوحي بأن هذا الأمر للّه وحده،وأن الرسول - ﷺ- إنما هو منذر ومبلغ والذي يوحي بجلال هذا الأمر وعلويته ورهبته وأن الرسول - ﷺ- إنما هو مأمور به من ربه.

«قُلْ:أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا؟» .. قل لهم يا محمد ما هم عليه من دعوة غير اللّه والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه،وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا. سواء كان ما يدعونه وثنا أو صنما،حجرا أو شجرا،روحا أم ملكا،شيطانا أم إنسانا .. فكلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئا ولا يضرون. فهم أعجز من

النفع والضر. وكل حركة إنما تجري بقدر من اللّه. فما لم يأذن به اللّه لا يكون،ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور ..

قل لهم مستنكرا دعوة غير اللّه،وعبادة غير اللّه،والاستعانة بغير اللّه،والخضوع لغير اللّــه. وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه .. وسواء كان ذلك ردا على مـــا كـــان يقترحـــه المشركون على النبي - ﷺ- من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه! أو كـــان ذلك استنكارا مبتدأ لما عليه المشركون،وإعلانا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانـــب الـــنبي ﷺوالمؤمنين .. فإن المؤدى في النهاية واحد وهو استنكار هذا السخف الذي يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض له في النور بعيدا عن الموروثات الراسبة،وبعيدا كذلك عن العرف السائد في البيئة! ولتجسيم السخف وتضخيم الاستنكار يعرض هذه المعتقدات في ضوء ما هدى اللّه المسلمين إليه من عبادته وحده،واتخاذه وحده إلها،والدينونة لـــه وحـــده بـــلا شريك:«قُلْ:أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا؟» ..فهو ارتداد على الأعقاب ورجوع إلى الوراء بعد التقدم والارتقاء ..

ثم هذا المشهد الشاخص المتحرك الموحي المثير:«كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْـــأَرْضِ .. حَيْرانَ .. لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى:ائْتِنا» ..

إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيـــد،ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد،والآلهة المتعددة من العبيد! ويتفرق إحساســـه بـــين الهـــدى والضلال،فيذهب في التيه .. إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس:«كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ» - ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله - ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه،فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد - ولو في طريق الضلال! - ولكن هناك،من الجانب الآخر،أصحاب له مهتدون،يدعونه إلى الهدى،وينادونه «ائتنا» - وهو بين هـــذا الاستهواء وهذا الدعاء «حيران» لا يدري أين يتجه،ولا أي الفريقين يجيب! إنه العـــذاب النفسي يرتسم ويتحرك،حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير! ولقد كنت أتصـــور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هـــذا الـــنص ..ولكن مجرد تصور .. حتى رأيت حالات حقيقية،يتمثل فيها هذا الموقف،ويفيض منـــها

هذا العذاب ..حالات ناس عرفوا دين اللّه وذاقوه – أيا كانت درجة هذه المعرفة وهـــذا التذوق – ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة،تحت قهر الخوف والطمع .. ثم إذا هم في مثل هذا البؤس المرير .. وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة،وماذا يعني هذا التعبير! وبينما ظل المشهد الحي الشاخص المتحرك الموحي،يغمر النفس بالوجل من هذا المصير التعيس .. يأتي التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم:«قُلْ:إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى،وَأُمِرْنا لِنُسْـلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ،وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ»

إنه التقرير الحاسم في الظرف النفسي المناسب،فالنفس التي ترتسم لهـا صـورة الحـيرة الطاغية،والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار،تكون أقرب ما تكـون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم ..

ثم إنه الحق في ذلك التقرير الحاسم:«قُلْ:إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى » ..هو وحده الهدى – كما يفيد التركيب البياني للجملة – وإنه لكذلك عن يقين ..

وإن البشرية لتخبط في التيه،كلما تركت هذا الهدى،أو انحرفت عن شيء منه واسـتبدلت به شيئا من تصوراتها هي ومقولاتها،وأنظمتها وأوضاعها،وشـرائعها وقوانينـها،وقيمها وموازينها،بغير «علم» ولا «هدى» ولا «كتاب منير» ..

إن «الإنسان» موهوب من اللّه القدرة على تعرف بعض نواميس الكون وبعض طاقاتـه وقواه،للانتفاع بها في الخلافة في الأرض،وترقية هذه الحياة .. ولكن هذا الإنسان ذاته غير موهوب من اللّه القدرة على استكناه الحقائق المطلقة في هذا الكون،ولا علـى الإحاطـة بأسرار الغيوب التي تلفه من كل جانب،ومنها غيب عقله هو وروحه،بل غيب وظـائف جسمه والأسباب الكامنة وراء هـذه الوظـائف،والتي تـدفعها للعمـل هكذا،وبهـذا الانتظام،وفي هذا الاتجاه.

ومن ثم يحتاج هذا «الإنسان» إلى هدى اللّه في كل ما يختص بكينونته وحياته من عقيـدة وخلق،وموازين وقيم،وأنظمة وأوضاع،وشرائع وقوانين تحكم هذه الكينونة وتنظم لها واقع الحياة ..

وكلما فاء هذا «الإنسان» إلى هدى اللّه اهتدى. لأن هدى اللّه هو الهدى. وكلما بعــد كلية عنه،أو انحرف بعض الانحراف واستبدل به شيئا من عنده ضل. لأن ما لــيس مــن هدى اللّه فهو ضلال .. إذ ليس هنالك نوع ثالث «فماذا بعد الحق إلا الضلال؟».

ولقد ذاقت البشرية من ويلات هذا الضلال – وما تزال كلها تذوق – ما هو «حتمــي» في تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى اللّه .. فهذه هي «الحتمية التاريخية» الوحيــدة المستيقنة لأنها من أمر اللّه،ومن خبر اللّه،لا تلك الحتميات المدعاة! والذي يريد أن يتملــى شقاء البشرية في انحرافها عن هدى اللّه،لا يحتاج أن ينقب فهو حوله في كل أرض تــراه الأعين وتلمسه الأيدي،ويصرخ منه العقلاء في كل مكان[١٩٦].



[١٩٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٥٦٠] ويراجع فصل:«تخبط واضطراب» في كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» وفصل «شهادة القرن العشــرين» في كتــاب «التطــور والثبــات في حيــاة البشرية».«دار الشروق».

قال تعالى :{إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)} [الأنعام:٩٥، ٩٦]

إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد فضلا على أن يملك صنعها أحد! [١٩٧] معجزة الحياة نشأة وحركة ..وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية،وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة. والحياة الكامنة في الحبة والنواة،النامية في النبتة والشجرة،سر مكنون،لا يعلم حقيقته إلا اللّه ولا يعلم مصدره إلا اللّه ..وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها،وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها ..

تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول،تدرك الوظيفة والمظهر،وتجهل المصدر والجوهر،والحياة ماضية في طريقها. والمعجزة تقع في كل لحظة!!! ومنذ البدء أخرج اللّه الحي من الميت. فقد كان هذا الكون – أو على الأقل كانت هذه الأرض – ولم يكن هناك حياة .. ثم كانت الحياة .. أخرجها اللّه من الموات .. كيف؟ لا ندري! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة – عن طريق الأحياء – إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية وتتحول – وأصلها ذرات ميتة – إلى خلايا حية .. والعكس كذلك .. ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة! «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ،وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ» ..ولا يقدر إلا اللّه أن يصنع ذلك .. لا يقدر إلا اللّه أن ينشيء الحياة منذ البدء من الموات. ولا يقدر إلا اللّه أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية. ولا يقدر إلا اللّه على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة

[١٩٧] – يطنطن الماديون بأنه أمكن تحضير بعض المواد التي لم يكن يمكن تحضيرها إلا في تفاعلات كائن حي ..والفرق بين المادة العضوية والمادة الحية كبير ..كما أن هذه المادة المحضرة إنما صنعت من مواد مخلوقة و لم يخلقها البشر،ولا يستطيعون!

.. في دورة لم يعلم أحد يقينا بعد متى بدأت،ولا كيف تـــتم .. وإن هـــي إلا فـــروض ونظريات واحتمالات!!! لقد عجزت كل محاولة لمتفسير ظاهرة الحياة،على غير أساس أنها من خلق اللّه .. ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا .. «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ!» .. وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة،بدون التجـــاء إلى الاعتراف بوجود اللّه .. ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا .. ولم تبـــق منـــها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد،ولا تدل على الإخلاص! وأقـــوال بعـــض «علمائهم» الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف باللّه،تصور حقيقة موقف «علمهم» نفسه من هذه القضية. ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتـــات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين،عازفين عن هذا الدين،لأنه يثبـــت «الغيب» وهم «علميون!» لا «غيبيون»! ..

ونختار لهم هؤلاء العلماء من «أمريكا»!!! يقول «فرانك أللن». (ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا) في مقال:نشأة العالم هل هـــو مصادفة أو قصد؟ من كتاب:«اللّه يتجلى في عصر العلم» .. ترجمة الدكتور:الـــدمرداش عبد المجيد سرحان.

.. «فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق،فلا بد أن تكون قد نشأت عـــن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة؟

« إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبـــق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق. وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب – مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم – ولقد تقـــدمت دراســـة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا،حتى أصبحنا قـــادرين علـــى التنبؤ بحدوث بعض الظواهر،التي نقول:إنها تحدث بالمصادفة،والتي لا نســـتطيع أن نفســـر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد). وقد صرنا بفضل تقـــدم هـــذه

الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة [١٩٨]،وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة،وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان .. ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة :

«إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية. وهي تتكون من خمسة عناصر هي :

الكربون،والأدروجين،والنيتروجين،والأكسجين،والكبريت .. ويبلغ عدد الذرات في الجزء الواحد ٤٠،٠٠٠ ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة ٩٢ عنصرا،موزعة كلها توزيعا عشوائيا [١٩٩]،فإن احتمال اجتماع هذه الناصر الخمسة،لكي تكون جزيئا من جزيئات البروتين،يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزء الواحد.

« وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا،فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد،إلا بنسبة ١ إلى ١٠ ١٦٠،أي بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة. وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات .. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .. ويتطلب تكوين هذا الجزء على سطح الأرض وحدها – عن طريق المصادفة – بلايين لا تحصى من السنوات،قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠ ٢٤٣ سنة).

---

[١٩٨] – نحن بتصورنا الإسلامي لا نعرف أن هناك «مصادفة» واحدة في هذا الوجود.وإنما هو قدر اللّه يخلق به كل شيء:«إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» وهناك سنن مطردة للوجود هي النواميس.وفي كل مرة تنفذ فيها السنة فإنها تنفذ بقدر – بدون جبرية آلية،وكذلك يقع أن يجري قدر اللّه بالخارقة لتلك النواميس – في ظروف معينة لحكمة خاصة – فالقانون العام والخارقة كلاهما يمر بقدر خاص في كل مرة يجري فيها ..ونحن حين نقتطف من حديث «العلماء» فإن هذا لا يعني الموافقة على كل ما يقولونه.

[١٩٩] – وهذه – كذلك – واحدة من خبط «العلماء» فليس هنالك توزيع عشوائي ..إنما هنالك توزيع مرسوم بقدر معلوم!

«إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية. فكيف تتألف ذرات هذه الجزئيات؟

إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى،غير التي تتآلف بها،تصير غير صالحة للحياة. بل تصير في بعض الأحيان سموما. وقد حسب العالم الانجليزي:ج. ب. سيثر.. الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات،فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠). وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا.

«ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة،ولا تدب فيها الحياة إلا عند ما يحل فيها ذلك السر العجيب،الذي لا ندري من كنهه شيئا،إنه العقل اللانهائي[٢٠٠]. وهو اللّه وحده،الذي استطاع أن يدرك [٢٠١] ببالغ حكمته،أن مثل هذا الجزء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة،فبناه وصوره،وأغدق عليه سر الحياة» ..

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة إيوى وأخصائي في وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) في مقال:«المادية وحدها لا تكفي» من الكتاب نفسه :

«إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد،وهي التي تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا – بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكوّن الحياة. ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن .. نقول:إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم. فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع![٢٠٢] ».

---

[٢٠٠] – هذا التعبير «العقل اللانهائي» راسب من رواسب الفلسفة.يستخدمه الرجل لأنه من رواسب ثقافته! والمسلم لا يعبر عن اللّه – سبحانه – إلا بما سمى به نفسه من أسمائه الحسنى ..

[٢٠١] – وهذه كذلك!!!

[٢٠٢] – وقد أشار في مقاله من قبل إلى قول برتراند رسل بنشأة الحياة مصادفة وزوالها كذلك بجبرية آلية!

ويقول:«ألبرت ما كومب ونشستر» (متخصص في علم الأحياء دكتوراه من جامعة تكساس. أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور ...) في مقال:«العلوم تدعم إيماني باللّه» من الكتاب نفسه :

«... وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء. وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة. وليس بين مخلوقات اللّه أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون.

«انظر إلى نبات برسيم ضئيل. وقد نما على أحد جوانب الطريق. فهل تستطيع أن تجد له نظيرا في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار،بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم - وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية.

«فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إن اللّه لم يصنعها هكذا وحدها،ولكنه خلق الحياة،وجعلها قادرة على صيانة نفسها،وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل. مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر .. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء،وأكثرها إظهارا لقدرة اللّه .. إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد،تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر. ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات:كل عرق،وكل شعيرة،وكل فرع على ساق،وكل جذر أو ورقة،يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا،فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات .. تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة[٢٠٣]).

وفي هذا القدر كفاية لنعود إلى الجمال المشرق في سياق القرآن:«ذلِكُمُ اللَّهُ» ..مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر .. هو اللّه .. وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده .. بالعبودية والخضوع والاتباع [٢٠٤]

---

[٢٠٣] - بإذن اللّه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.وبقدر اللّه الذي تتم به كل حركة في الوجود كله .

[٢٠٤] - يراجع كلمة «الرب» في كتاب:«المصطلحات الأربعة في القرآن» للسيد أبي الأعلى المودودي،أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

« فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟» ..فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون!
إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيرا في القرآن الكريم – كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء – في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية،وآثارها الدالة على وحدة الخالق،لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود،الذي يدين له العباد بالاعتقاد في ألوهيته وحده،والطاعة لربوبيته وحده،والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية،والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله،والدينونة لشريعته كذلك وحدها ..
وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية. إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر – بإعطائهم العقيدة الصحيحة – لينتهي إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة.
وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة اللّه وحده وإخراجهم من عبادة العباد. وإلا أن تكون الدينونة في الحياة الدنيا،وفي شئون الحياة اليومية للّه وحده،وإلا أن يخرج الناس من سلطان المتسلطين،الذين يدعون حق الألوهية،فيزاولون الحاكمية في حياة البشر،ويصبحون آلهة زائفة وأربابا كثيرة فتفسد الحياة،حين يستعبد الناس فيها لغير اللّه!
ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة:«ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» ..ذلكم اللّه الذي يستحق الربوبية فيكم .. والرب هو المربي والموجه والسيد والحاكم ..ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا اللّه ..«فالِقُ الْإِصْباحِ،وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً،وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» ..
إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضا،وهو الذي جعل الليل للسكون،وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدرة دوراتهما .. مقدرا ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء،وبعلمه الذي يحيط بكل شيء.
وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة. وانبثاق النور في تلك الحركة،كانبثاق البرعم في هذه الحركة .. وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء

والجمال سمات مشتركة،ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك ..

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى .. إن الإصباح والإمساء،والحركة والسكون،في هذا الكون - أو في هذه الأرض - ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

إن كون الأرض تدور دورها هذه حول نفسها أمام الشمس وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة .. هي تقديرات من «العزيز» ذي السلطان القادر «العليم» ذي العلم الشامل .. ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو،ولما انبثق النبت والشجر،من الحب والنوى ..

إنه كون مقدر بحساب دقيق. ومقدر فيه حساب الحياة،ودرجة هذه الحياة،ونوع هذه الحياة .. كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه - وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب ..

والذين يقولون:إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون. وأن الكون لا يحفلها. بل يبدو أنه يعاديها. وأن ضآلة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحي بهذا كله. بل يقول بعضهم:إن هذه الضآلة توحي بأنه لو كان للكون إله ما عنى نفسه بهذه الحياة! ... إلى آخر ذلك اللغو،الذي يسمونه أحيانا «علما»! ويسمونه أحيانا «فلسفة»! وهو لا يستأهل حتى مناقشته! إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة في نفوسهم ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التي تفرض نفسها عليهم! ويقرأ لهم الإنسان فيجد كأنما هم هاربون من مواجهة حقيقة قرروا سلفا ألا يواجهوها! .. إنهم هاربون من اللّه الذي تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة في كل اتجاه! وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا اللّه في نهايتها،فعادوا في ذعر إلى سكة أخرى. ليواجهوا اللّه - سبحانه - في نهايتها كذلك! إنهم مساكين! بائسون! لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذي تستذل به الرقاب .. فروا «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» .. ثم ما

زالوا في فرارهم التقليدي حتى أوائل هذا القرن .. دون أن يتلفتوا وراءهم ليروا إن كانت الكنيسة ما تزال تتابعهم. أم انقطعت منها [٢٠٥] – كما انقطعت منهم – الأنفاس.

إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا .. فإلى أين الفرار؟ ..

يقول «فرانك أللن» العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عن نشأة الحياة :

« إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صورا عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية. فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها،فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار،وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام،فيكون في ذلك تتابع الفصول،الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا،ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة. ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة،ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل).

«ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا،منقضة بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة،ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات،حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها. والمطر مصدر الماء العذب،ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة» ..

إن الأدلة «العلمية» تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا عن تعليل نشأة الحياة،بما يلزم لهذه النشأة – وللنمو والبقاء والتنوع بعدها – من موافقات لا تحصى في تصميم الكون .. منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق،ووراءها من نوعها كثير. فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم.الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. والذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ..[٢٠٦]

---

[٢٠٥] – يراجع فصل:«الفصام النكد» في كتاب:«المستقبل لهذا الدين».«دار الشروق».

[٢٠٦] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ١٥٨٦]

وقال تعالى:{ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف:١٠٥]

والآيات الدالة على اللّه ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون،معروضة للأبصار والبصائر.في السماوات وفي الأرض.يمرون عليها صباح مساء،آناء الليل وأطراف النهار.وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها.بارزة تواجه العيون والمشاعر.موحية تخايل للقلوب والعقول.ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق.

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها.لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد.لحظة تأمل في الخضم الزاخر،والعين الفوارة،والنبع الروي.لحظة تأمل في النبتة النامية،والبرعم الناعم،والزهرة المتفتحة،والحصيد الهشيم.لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء،والسمك السابح في الماء،والدود السارب والنمل الدائب،وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام ..لحظة تأمل في صبح أو مساء،في هدأة الليل أو في زحمة النهار ..لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب ..

إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب،والتأثر المستجيب.ولكنهم «يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ» ..لذلك لا يؤمن الأكثرون!

وحتى الذين يؤمنون،كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم.فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية،وكل اعتبار من اعتبار ات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف،لتكون كلها للّه،خالصة له دون سواه.والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا للّه سبحانه،ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد:«وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» ..مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص.مشركون سببا من الأسباب مع قدرة اللّه في النفع أو الضر سواء.مشركون في الدينونة لقوة غير قوة اللّه من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع اللّه دون سواه.مشركون في رجاء يتعلق بغير اللّه من عباده على الإطلاق.مشركون في تضحية

يشوبها التطلع إلى تقدير الناس.مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكـن لغـير اللّه.مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه اللّه ..عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،"فِي قَوْلِـه:" فَـلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا "،قَالَ:الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِـي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ:وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانَةُ، وَحَيَاتِي، وَيَقُولُ:لَوْلا كَلْبُهُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ:مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ:لَوْلا اللَّهُ وَفُلانٌ، لا تَجْعَلْ فِيهَا فُلانًا ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ".[٢٠٧]

وعَنْ أَبِي عَلِيٍّ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ قَالَ:خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ فَقَالَ:يَا أَيُّهَا النَّـاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ .فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَـزْنٍ،وَقَيْسُ بْـنُ الْمُضَارِبِ فَقَالاَ:وَاللَّهِ لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ،أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا،أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ .قَالَ:بَـلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ،خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ:أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ ؛ فَإِنَّـهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ .فَقَالَ لَهُ:مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ،وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ:قُولُوا:اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ أَنْ نُشْـرِكَ بِـكَ شَـيْئًا نَعْلَمُهُ،وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ.[٢٠٨]

وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي:

عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ:جَلَسْتُ أَنَا وَمُحَمَّدٌ الْكِنْدِيُّ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ،ثُمَّ قُمْتُ مِـنْ عِنْدِهِ،فَجَلَسْتُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ،قَالَ:فَجَاءَ صَاحِبِي وَقَـدِ اصْـفَرَّ وَجْهُـهُ وَتَغَيَّـرَ لَوْنُهُ،فَقَالَ:قُمْ إِلَيَّ،قُلْتُ:أَلَمْ أَكُنْ جَالِسًا مَعَـكَ السَّـاعَةَ ؟ فَقَـالَ سَـعِيدٌ:قُـمْ إِلَـى صَاحِبِكَ،قَالَ:فَقُمْتُ إِلَيْهِ .فَقَالَ:أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ ؟ قُلْتُ:وَمَا قَالَ ؟ قَالَ:أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ:يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَعَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَحْلِفَ بِالْكَعْبَةِ ؟ قَالَ:وَلِمَ تَحْلِفُ بِالْكَعْبَةِ ؟ إِذَا حَلَفْتَ بِالْكَعْبَةِ فَاحْلِفْ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ،فَإِنَّ عُمَرَ كَانَ إِذَا حَلَفَ قَالَ:كَلاَّ وَأَبِي فَحَلَفَ بِهَا يَوْمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:لاَ تَحْلِفْ بِأَبِيكَ،وَلاَ بِغَيْرِ اللهِ،فَإِنَّهُ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ.[٢٠٩]

---

[٢٠٧] - تفسير ابن أبي حاتم [١ /٥٨](٢٢٧) صحيح

[٢٠٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٦ /٦١٤](١٩٦٠٦) ١٩٨٣٥ حسن لغيره

[٢٠٩] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٢ /٣٨٥](٥٣٧٥) صحيح

وعَنْ زَيْنَبَ،امْرَأَة عَبْد الله،قَالَتْ:كَانَ عَبْدُ الله إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَة فَانْتَهَى إِلَى الْبَاب،تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ،كَرَاهيَةَ أَنْ يَهْجُمَ منَّا عَلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ،قَالَتْ:وَإِنَّهُ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ،فَتَنَحْنَحَ،قَالَتْ:وَعنْدي عَجُوزٌ تَرْقِيني منَ الْحُمْرَة،فَأَدْخَلْتُهَا تَحْتَ السَّرِير،فَدَخَلَ،فَجَلَسَ إِلَى جَنْبي،فَرَأَى في عُنُقي خَيْطًا،قَالَ:مَا هَذَا الْخَيْطُ ؟ قَالَتْ:قُلْتُ خَيْطٌ أُرْقيَ لي فيه،قَالَتْ:فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ،ثُمَّ قَالَ:إِنَّ آلَ عَبْد الله لأَغْنيَاءُ عَنِ الشِّرْك،سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺيَقُولُ:إِنَّ الرُّقَى،وَالتَّمَائمَ،وَالتِّوَلَةَ شرْكٌ قَالَتْ:فَقُلْتُ لَهُ:لمَ تَقُولُ هَذَا وَقَدْ كَانَتْ عَيْني تَقْذفُ،فَكُنْتُ أَخْتَلفُ إِلَى فُلاَن الْيَهُوديِّ يَرْقيهَا،وَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكَنَتْ ؟ قَالَ:إِنَّمَا ذَلكَ عَمَلُ الشَّيْطَان كَانَ يَنْخُسُهَا بيَده،فَإِذَا رَقَيْتهَا كَفَّ عَنْهَا،إِنَّمَا كَانَ يَكْفيك أَنْ تَقُولي كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:أَذْهب الْبَاسَ رَبَّ النَّاس اشْف أَنْتَ الشَّافي،لاَ شفَاءَ إِلاَّ شفَاؤُكَ،شفَاءً لاَ يُغَادرُ سَقَمًا.[210]

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامرٍ الْجُهَنيِّ،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺأَقْبَلَ إِلَيْه رَهْطٌ،فَبَايَعَ تسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحد،فَقَالُوا:يَا رَسُولَ الله،بَايَعْتَ تسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا ؟ قَالَ:إِنَّ عَلَيْه تَميمَةً فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا،فَبَايَعَهُ،وَقَالَ:مَنْ عَلَّقَ تَميمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ.[211]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه -ﷺ- « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْك مَنْ عَملَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشرْكَهُ »[212].

وعَنْ أَبي سَعيد بْنِ أَبي فَضَالَةَ الأَنْصَاريِّ،وَكَانَ منَ الصَّحَابَة،أَنَّهُ،قَالَ:سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺيَقُولُ:إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلينَ وَالآخرينَ،ليَوْمٍ لاَ رَيْبَ فيه،نَادَى مُنَاد:مَنْ كَانَ أَشْرَكَ في عَمَلٍ عَملَهُ للَّه أَحَدًا،فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ منْ عنْد غَيْر الله،فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْك.[213]

وعَنْ مَحْمُود بْنِ لَبيد،أَنَّ رَسُولَ الله ﷺقَالَ:إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ قَالُوا:وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ:الرِّيَاءُ،يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقيَامَة:إِذَا

---

[210] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٢ /٢٣](٣٦١٥) صحيح لغيره

[211] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥ /٩١٦]((١٧٤٢٢) ١٧٥٥٨) صحيح

[212] - صحيح مسلم- المكنز [١٩ /٥٧](٧٦٦٦)

[213] - مسند أحمد (عالم الكتب) [٦ /١٤٠](١٧٨٨٨) ١٨٠٤٧ صحيح

جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ:اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَـانْظُرُوا هَـلْ تَجِـدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً.[٢١٤]

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان.

وهناك الشرك الواضح الظاهر،وهو الدينونة لغير اللّه في شأن من شؤون الحياة.الدينونة في شرع يتحاكم إليه – وهو نص في الشرك لا يجادل عليه – والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس و لم يشرعها اللّه.والدينونة في زيّ من الأزياء يخالف ما أمر اللّه به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة اللّه أن تستر ..

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حـين يكـون طاعـة وخضوعا ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد،وتركا للأمر الواضح الصادر من رب العبيد ..إنه عندئذ لا يكون ذنبا،ولكنه يكون شركا.لأنه يدل على الدينونة لغير اللّه فيما يخالف أمر اللّه ..وهو من هذه الناحية أمر خطير ..

ومن ثم يقول اللّه:«وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» ..فتنطبق على من كـان يواجههم رسول اللّه في الجزيرة،وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان.

وبعد فما الذي ينتظره أولئك المعرضون عن آيات اللّه المعروضة في صفحات الوجود،بعد إعراضهم عن آيات القرآن التي لا يسألون عليها أجرا؟ ماذا ينتظرون؟

«أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ،أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ؟» ..وهي لمسة قوية لمشاعرهم،لإيقاظهم من غفلتهم،وليحذروا عاقبة هذه الغفلة.فإن عـذاب اللّـه الذي لا يعلم موعده أحد،قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم،وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون ..إن الغيـب موصـد الأبواب،لا تمتد إليه عين ولا أذن،ولا يدري أحد ماذا سـيكون اللحظـة،فكيف يـأمن الغافلون؟[٢١٥]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٢١٤] – مسند أحمد (عالم الكتب) [٧ /٧٩٩](٢٣٦٣٠) ٢٤٠٣٠ صحيح

[٢١٥] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٦٦٦]

قال تعالى :{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) } [هود:٢٥ - ٣٠]

إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد - ﷺ- والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة،حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها.وذلك مع تقدير أن المحكي هنا هو معنى ما قاله نوح - عليه السلام - لا ألفاظه.وهو الأرجح.فنحن لا ندري بأية لغة كان نوح يعبر.

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ:إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» ..ولم يقل قال:إني ..لأن التعبير القرآني يحيي المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية.وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع.هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى أنه يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة :«إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» ..وهو أقوى في تحديد هدف الرسالة وإبرازه في وجدان السامعين.

ومرة أخرى يبلور مضمون الرسالة في حقيقة جديدة:«أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» ..

فهذا هو قوام الرسالة،وقوام الإنذار.ولماذا؟

«إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» ..فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار،في هذه الكلمات القصار ..

واليوم ليس أليما.إنما هو مؤلم.والأليم – اسم مفعول أصله:مألوم! – إنما هم المألومون في ذلك اليوم.ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا،لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم،شاعر به،فما بال من فيه؟

«فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِه:ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا،وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ،وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ،بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» ..

ذلك رد العلية المتكبرين ..الملأ ..كبار القوم المتصدرين ..وهو يكاد يكون رد الملأ من قريش:ما نراك إلا بشرا مثلنا،وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا – بادي الرأي – وما نرى لكم علينا من فضل،بل نظنكم كاذبين.

الشبهات ذاتها،والاتهامات ذاتها،والكبرياء ذاتها،والاستقبال الغبي الجاهل المتعالي! إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر:أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة اللّه فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر.وهي شبهة جاهلة،مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه اللّه في أرضه،وهي وظيفة خطيرة ضخمة،لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة،وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيأون لحمل الرسالة،باختيار اللّه لهم،وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه.

وشبهة أخرى جاهلة كذلك.هي أنه إذا كان اللّه يختار رسولا،فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم،المتسلطين العالين؟ وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني،والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه،واستحق حمل رسالة اللّه بخصوصيته في المختارين من صفوفه.وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض،إنما هي في صميم النفس،واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى،بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي،واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها ..إلى آخر صفات النبوة الكريمة ..وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء! ولكن الملأ من قوم نوح،كالملأ من قوم كل نبي تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص

العلوية،فلا يدركون مبررا لاختصاص الرسل بالرسالة.وهي في زعمهم لا تكون لبشر.فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض! «ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا» ..

هذه واحدة ..أما الأخرى فأدهى :« وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا،بادِيَ الرَّأْيِ»!!

وهم يسمون الفقراء من الناس «أراذل» ..كما ينظر الكبراء دائما إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا لأنهم بفطرتهم أقــرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء،وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء.ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف،ولم تعوقها المصالح والمظــاهر عــن الاستجابة ولأنهم لا يخافون من العقيدة في اللّه أن تضيع عليهم مكانــة مســروقة لغفلــة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها.وأول صــور الوثنيــة الدينونــة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه بهذا كله للّــه وحــده دون شريك.فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طــور وفي كــل أرض.ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائما،ويصدون عنها الجماهير ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتنفير.

«وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ» ..أي دون ترو ولا تفكير ..وهــذه تهمة كذلك توجه دائما من الملأ العالين لجموع المؤمنين ..أنها لا تتــروى ولا تفكــر في اتباع الدعوات.ومن ثم فهي متهمة في اتباعها واندفاعها،ولا يليق بــالكبراء أن ينــهجوا نهجها،ولا أن يسلكوا طريقها.فإذا كان الأراذل يؤمنون،فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنــوا إيمان الأراذل ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون! «وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» ..يــدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهــدى،أو أعرف بالصواب.فلو كان ما معكم خيرا وصوابا لاهتدينا إليه،ولم تسبقونا أنتم إليه! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطئ الذي تحدثنا عنــه.قيــاس الفضــل بالمــال،والفهم بالجاه،والمعرفة بالسلطان ..فذو المال أفضل.وذو الجاه أفهم.وذو السلطان أعرف!!!

هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيــد عــن المجتمــع،أو تضعف آثارها،فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية،وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صــورها

الكثيرة.وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب[٢١٦].وهي انتكاسة للبشرية من غير شك،لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنسانا،واستحق الخلافة في الأرض،وتلقى الرسالة من السماء وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية! «بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» ...

وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه.ولكنهم على طريقة طبقتهم ..«الأرستقراطية» ..يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق «بالأرستقراط!» «بل نظنكم!» لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة - بادي الرأي - التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون! إنه النموذج المتكرر من عهد نوح،لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب،المتعاظمة المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ!! [٢١٧]

وقال تعالى :{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) } [البقرة: ١١٦ - ١١٧]

وهذه المقولة الفاسدة:«اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» ..ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح،فهي كذلك مقولة اليهود في العزير.كما كانت مقولة المشركين في الملائكة.و لم تفصل الآية هنا هذه المقولات،لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة - ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماما،ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية،والشيوعية العالمية،وهي أشد كفرا من المشركين في ذلك الحين! - ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون وها هم أولاء يستوون مع المشركين!

وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن اللّه - سبحانه - يبادر بتتريه اللّه عن هذا التصور،وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعا:«سُبْحانَهُ! بَلْ لَهُ ما

---

[٢١٦] - في أمريكا اليوم يقاس الرجل يدخله،ويوزن برصيده في البنك!!! وموجة الجاهلية الوثنية تطغى من أمريكا على العالم حتى في الشرق الذي يزعم أنه مسلم!!!

[٢١٧] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ٢٤٩٥]

فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ،كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ.بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ.فَيَكُونُ» ..

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن اللّه سبحانه،وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه،وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق،وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعا ..لقد صدر الكون عن خالقه،عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة:«كُنْ،فَيَكُونُ» ..فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن،على الصورة المقدرة له،بدون وسيط من قوة أو مادة ..أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها،بذلك الكائن المراد صدوره عنها،فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه،لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه.وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها ..وبقدر ما وهب اللّه للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته،وسخر له الانتفاع بها،بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى ..ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه،وهي تحاول كشف هذه الأسرار وتفترض فروضا تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال،ولم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه والارتياد.فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها.مضحكة إلى حد يحير الإنسان:كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته،وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله.وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل،وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة،الخاطئة المنهج ابتداء.فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية – على وجه خاص – أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى،باءوا بالتعقيد والتخليط،كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته،وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته ..وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله،وفوق طبيعة خلقته وتكوينه ..

والنظرية الإسلامية:أن الخلق غير الخالق.وأن الخالق ليس كمثله شيء ..ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة:«وحدة الوجود»[218] على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح – أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة – أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق،أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده ..أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس ..والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر:وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة،ووحدة ناموسه الذي يسير به،ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع:«بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» ..

فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولدا ..فالكل من خلقه بدرجة واحدة،وبأداة واحدة:«بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ:كُنْ فَيَكُونُ» ..

وتوجه الإرادة يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشري،لأنها فوق طاقة الإدراك البشري.فمن العبث إنفاق الطاقة في اكتناه هذا السر،والخبط في التيه بلا دليل![219]



[218] – **هذا يؤكد أن السيد رحمه الله لا يقول بوحدة الوجود كما أخذ ذلك من ظاهر كلامه في تفسير سورة الإخلاص**

[219] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٣١٠]

يصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنـوة كبنـوة عيسى،أو شركا في الألوهية كشركته في الألوهية:«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ – وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية اللّه سبحانه وحدانية لا تتبلس بشـبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور وعني بتقرير أن اللّه – سبحانه – لـيس كمثلـه شيء.فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية.كما عني بتقرير حقيقة الصـلة بين اللّه – سبحانه – وكل شيء (بما في ذلك كل حـي) وهـي أنها صـلة ألوهيـة وعبودية.ألوهية اللّه،وعبودية كل شيء للّه ..والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيـه بالغـة بتقرير هذه الحقائق – أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه – بحيث لا تدع في الـنفس ظلا من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر أن هذه هـي الحقيقـة الـتي جـاء بها الرسـل أجمعون.فقررها في سيرة كل رسول،وفي دعوة كل رسول وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام،إلى عهد محمد خاتم النبيين – عليه الصلاة والسلام – تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول:«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» ..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية – وهي حاسمة وصارمة في تقريـر هـذه الحقيقة – يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة وينسب للّه – سبحانه – البنين والبنات أو ينسب للّه – سبحانه – الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم اقتباسا من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات! ألوهية وعبودية ..ولا شيء غير هذه الحقيقة.ولا قاعدة إلا هذه القاعدة.ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية،وصلة العبودية بالألوهية ..

ولا تستقيم تصورات الناس – كما لا تستقيم حياتهم – إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش،ومن كل شبهة،ومن كل ظل! أجل لا تستقيم تصورات الناس،ولا تستقر مشاعرهم،إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ..

هو إله لهم وهم عبيده ..هو خالق لهم وهم مخاليق ..هو مالك لهم وهم مماليك ..وهم كلهم سواء في هذه الصلة،لا بنوة لأحد.ولا امتزاج بأحد ..ومن ثمّ لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه:التقوى والعمل الصالح ..وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله.فأما البنوة،وأما الامتزاج فانى بهما لكل أحد؟! ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة،إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة:أنهم كلهم عبيد لرب واحد ..ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد ..فأما القربى إليه ففي متناول الجميع ..عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان،لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان ..وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين اللّه والناس وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس ..وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام! فالمسألة – على هذا – ليست – مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين،فحسب،إنما هي كذلك مسألة نظام حياة،وارتباطات مجتمع،وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام ..ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد،بالعبودية لرب العباد ..ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس،بوصفها الممثلة لابن اللّه،أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم.ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من اللّه!

وقد ظلّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقا مقدسا كحق الكنيسة في جانب ..ظل هذا الحق أو ذاك قائما في أوربا باسم (الابن)

أو مركب الأقانيم.حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مغيرين.فلما ارتدوا أخـــذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس» وكانت فيمـــا بعـــد ثـــورات «مارتن لوثر» و«كالفن» و«زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح ..على أساس مـــن تـــأثير الإسلام،ووضوح التصور الإسلامي،ونفي القداسة عن بني الإنسان ونفـــي التفـــويض في السلطان ..لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام ..[٢٢٠]

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته وألوهيـــة روح القـــدس (أحـــد الأقانيم) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد للّه،أو ألوهية أحد مع اللّه،في أي شـــكل مـــن الأشكال ..يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبـــد للّـــه وأنـــه لـــن يستنكف أن يكون عبدا للّه.وأن الملائكة المقربين عبيد للّه وأنهم لن يستنكفوا أن يكونـــوا عبيدا للّه.وأن جميع خلائقه ستحشر إليه.وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم.وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم:«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِـــيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ – وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ – وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَـــنْ عِبادَتِـــهِ وَيَسْـــتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً.فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيـــدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِـــنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً».

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدا للّه.لأنه – عليه السلام – وهو نبي اللّه ورسوله – خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان.وهو خير من يعرف أنه من خلق اللّه فلا يكون خلق اللّه كاللّه أو بعضا من اللّه! وهو خير من يعرف أن العبودية للّه – فضلا على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة – لا تنقص من قدره.فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء.وهي المرتبـــة الـــتي يصف اللّه بها رسله،وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده ..وكذلك الملائكة المقربـــون – وفيهم روح القدس جبريل – شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء – فما بـــال

[٢٢٠] – يراجع فصل «التوحيد» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».«دار الشروق».

جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟! مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَـــنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً»..

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر اللّه لهم بسلطانه ..سلطان الألوهيـــة علـــى العباد ..شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه ..

فأما الذين عرفوا الحق،فأقروا بعبوديتهم للّه وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هـــو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

«وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّـــا وَلا نَصِيراً» ..

وما يريد اللّه – سبحانه – من عباده أن يقروا له بالعبودية،وأن يعبدوه وحده،لأنه بحاجـــة إلى عبوديتهم وعبادتهم،ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء.ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،لتصح تصوراتهم ومشاعرهم،كما تصح حيـــاتهم وأوضاعهم.فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر،ولا أن تستقر الحياة والأوضاع،على أساس سليم قويم،إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار،وما يتبع الإقرار من آثار ..

يريد اللّه – سبحانه – أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفـــوس النـــاس وفي حياتهم.ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض فلا يخضعوا إلا له،وإلا لمنهجه وشريعته للحياة،وإلا لمـــن يحكـــم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد ليرفعوا جبـــاههم أمام كل من عداه حين تعنو له وحده الوجوه والجباه.يريد أن يستشـــعروا العـــزة أمـــام المتجبرين والطغاة،حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون اللّه ولا يـــذكرون أحـــدا إلا اللّه.يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب.ولكن تجيء عـــن تقـــوى وعمل صالح فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى اللّه.يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية،فتكون لهم غيرة على سلطان اللّـــه في الأرض أن يدعيـــه المدعون باسم اللّه أو باسم غير اللّه فيردون الأمر كله للّه ..ومن ثم تصلح حياتهم وترقـــى وتكرم على هذا الأساس ...

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة وتعليق أنظار البشر للّه وحده وتعليق قلوبهم برضاه وأعمالهم بتقواه ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه ..إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض ..في هذه الحياة ..فأما ما يجزي اللّه به المؤمنين المقرين بالعبودية العاملين للصالحات،في الآخرة،فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر.وفيض من عطاء اللّه.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان باللّه في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعا قبل أن يحرفها الأتباع،وتشوهها الأجيال ..يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلادا جديدا للإنسان تتوافر له معه الكرامة والحرية،والعدل والصلاح،والخروج من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.والذين يستنكفون من العبودية للّه،يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي ..يذلون لعبودية الهوى والشهوة.أو عبودية الوهم والخرافة.ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم،ويحنون لهم الجباه.ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيدا مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام اللّه ..ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون اللّه ..هذا في الدنيا ..أما في الآخرة «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً،وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً» ..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان.وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان ..[٢٢١]



[٢٢١] - في ظلال القرآن للسيد قطب - ت- علي بن نايف الشحود [ص ١١٨٩]

قال تعالى :{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)} [إبراهيم:٣٥ – ٤١]

إن السياق يصور إبراهيم – عليه السلام – إلى جوار بيت اللّه الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش،فإذا بها تكفر فيه باللّه،مرتكنة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة اللّه! فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر،ليرد الجاحدين إلى الاعتراف،ويرد الكافرين إلى الشكر،ويرد الغافلين إلى الذكر،ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون.

ويبدأ إبراهيم دعاءه:«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» ..فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان،عظيمة الوقع في حسه،متعلقة بحرصه على نفسه.والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد،الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب اللّه دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا،ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم،فكفروا النعمة،وجعلوا للّه أندادا،وصدوا عن سبيل اللّه.ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن:«وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ» ..

ويبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه،والتجاؤه إليه في أخص مشاعر قلبه.فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه،يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه.ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم اللّه.وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى

نور الإيمان باللّه وتوحيده.فيخرج من التيه والحـيرة والضـلال والشـرود،إلى المعرفـة والطمأنينة والاستقرار والهدوء.ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب،إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد ..إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه،فيجنبه هو وبنيه أن يعبـد الأصنام.يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام مـن الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير:«رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ» ..ثم يتابع الدعاء ..فأما من تبع طريقي فلم يفـتتن بهـا فهـو مني،ينتسب إلي ويلتقي معي في الآصرة الكبرى،آصرة العقيدة:«فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» ..
وأما من عصاني منهم فأفوض أمره إليك:«وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ..

وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصـيه من نسله ويحيد عن طريقه،ولا يستعجل لهم العذاب بل لا يذكر العذاب،إنما يكلـهم إلى غفران اللّه ورحمته.ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة وتحت هذا الظل يتوارى ظـل المعصية فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم! ويمضي إبراهيم في دعائه يذكر إسـكانه لبعض أبنائه بهذا الوادي المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم،ويذكر الوظيفة التي أسكنهم في هذا القفر الجدب ليقوموا بها:«رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِـكَ الْمُحَرَّمِ» ..لماذا ؟

«رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ» ..فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك،وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجدب والحرمان.«فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَـيْهِمْ» ..وفي التعـبير رقـة ورفرفة،تصور القلوب رفافة مجنحة،وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلـك الـوادي الجديب.إنه تعبير نديّ يندّي الجدب برقة القلوب ..«وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ» ..عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج ..لماذا؟ أليأكلوا ويطعموا ويسـتمتعوا؟ نعـم! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور:«لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» ..وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام ..إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة للّه.ويبرز هـدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض ..إنه شكر اللّـه المنعم الوهاب.

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم ..فلا صلاة قائمة للّه،ولا شكر بعد استجابة الدعاء،وهويّ القلوب والثمرات! ويعقب إبراهيم على دعاء اللّه لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر اللّه ..يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم اللّه الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء.فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء.إنما هو توجه القلب إلى اللّه الذي يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء:«رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ:وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ» ..

ويذكر إبراهيم نعمة اللّه عليه من قبل فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر:«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ،إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ» ..

وهبة الذرية على الكبر أوقع في النفس.فالذرية امتداد.وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية،وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد.وإن إبراهيم ليحمد اللّه،ويطمع في رحمته:«إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ».ويعقب على الشكر بدعاء اللّه أن يجعله مديما للشكر.الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق،أو يصرفه عنها صارف،ويستعين اللّه على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه:«رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ.وَمِنْ ذُرِّيَّتِي.رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ» ..

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى في موقف جيرة البيت من قريش.وهذا إبراهيم يجعل عون اللّه له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه،ويدعو اللّه ليوفقه إليه.وهم ينأون عنها ويعرضون،ويكذبون الرسول الذي يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو اللّه أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده! ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا،يوم يقوم الحساب،فلا ينفع إنسانا إلا عمله ثم مغفرة اللّه في تقصيره:«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» ..وينتهي المشهد الطويل:مشهد الدعاء الخاشع الضارع.ومشهد تعداد النعم والشكر عليها ..في إيقاع موسيقي متموج رخي ..ينتهي بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا،فهو

القلوب معه إلى جوار اللّه،وتذكر القلوب فيه نعم اللّه.ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر،كما ينبغي أن يكون عباد اللّه،الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء ..ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم – عليه السلام – في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة:« ربنا» أو «ربّ».فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية اللّــه لــه ولبنيه من بعده ذات مغزى ..إنه لا يذكر اللّه – سبحانه – بصفة الألوهيــة،إنما يــذكره بصفة الربوبية.فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم الجاهليــات – وبخاصــة في الجاهلية العربية – إنما الذي كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية.قضية الدينونــة في واقع الحياة الأرضية.وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان.والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع ..فإما أن يدين النــاس للّه فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير اللّه فيكون غيره ربهم ..وهذا هو مفرق الطريق بــين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة.

والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه علــى قضــية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء![٢٢٢]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢٢٢] – في ظلال القرآن للسيد قطب – ت– علي بن نايف الشحود [ص ٢٧٥٤]

الفهرس العام